د. جمال محمد حسن الزنكي

إمارة دمشق

في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية

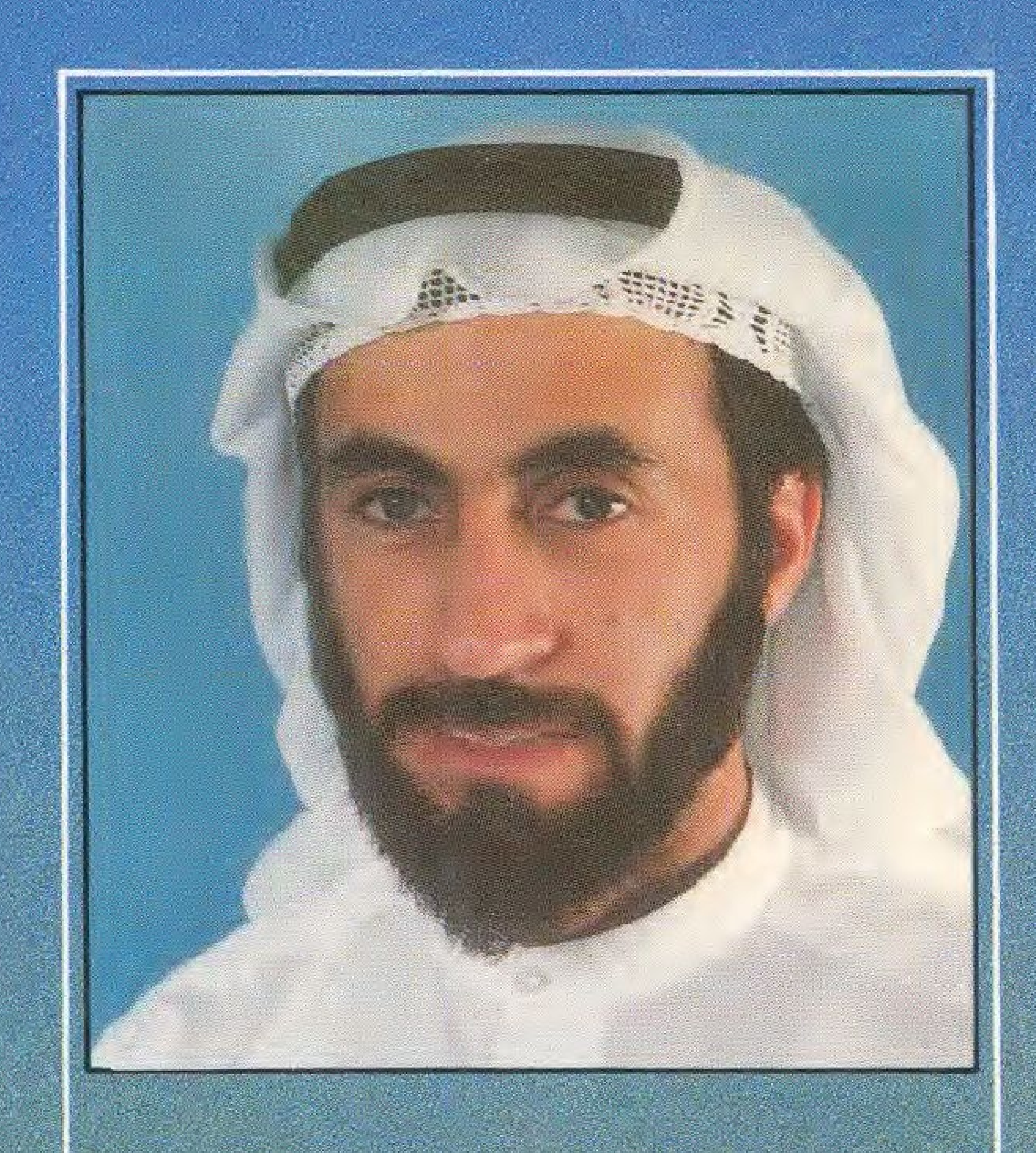
٤٨٨ - ٥٤٩ هـ / ١٠٩٥ - ١١٥٤م

ملحمة الجهاد الأسلامي ضد الصليبيين الغزاة

الكويت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م
الطبعة الأولى



لوحة توضح حصار الصليبيين الفرنسيين والألمان لمدينة دمشق، محرم ٥٤٢ هـ / يونيو ١١٤٧ م ، الحملة الصليبية الثانية الفاشلة،



تعريف بالمؤلف

المؤهلات العلمية

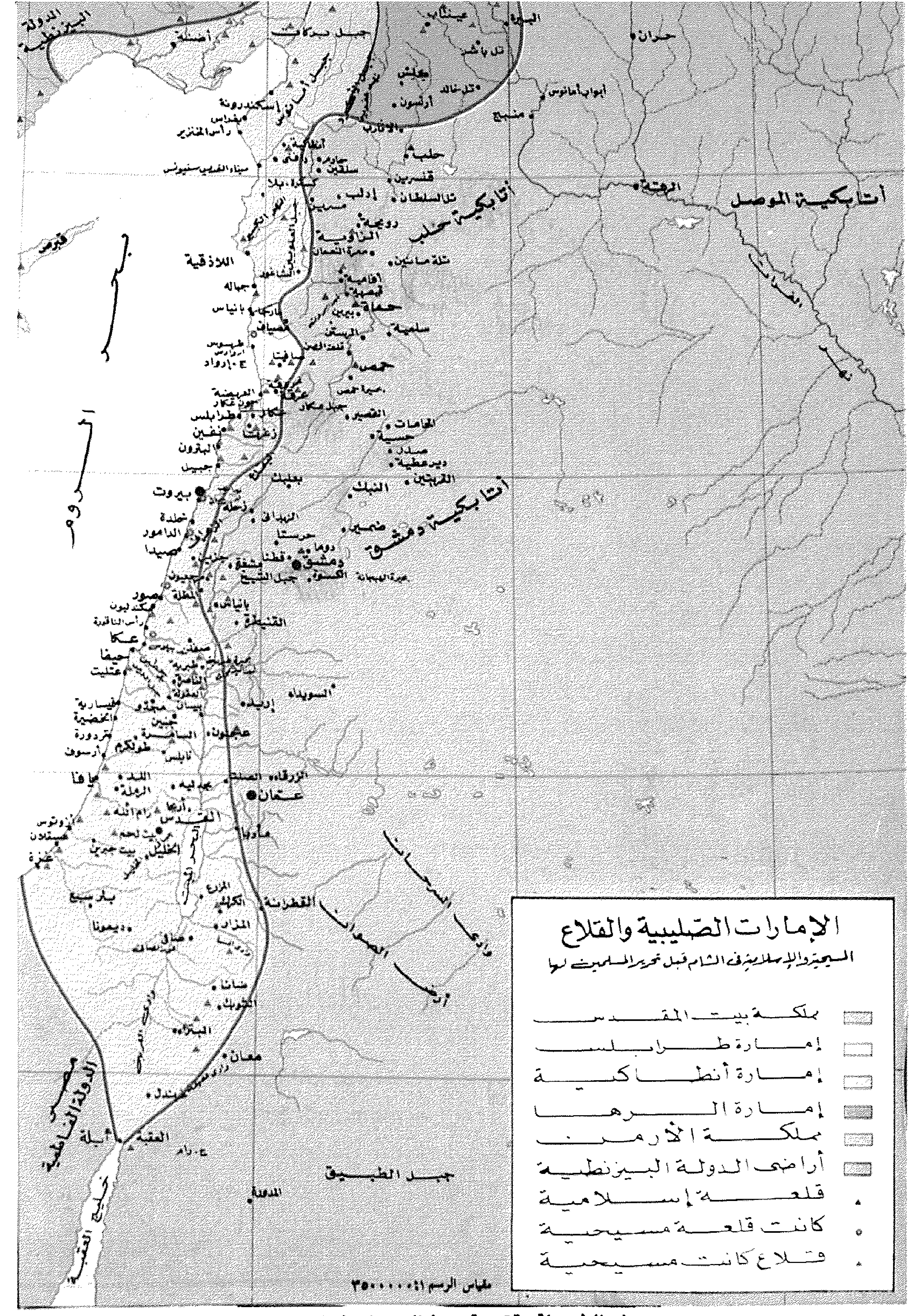
- ليسانس تاريخ من جامعة الكويت عام ١٩٨٠م.
- ماجستير قسم التاريخ بجامعة نوثرن كلورادو بولاية كلورادو بالولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٨٥م.
- دكتوراه بالتاريخ الاسلامي والعصور الوسطى من جامعة سانت اندروز في المملكة المتحدة عام ١٩٨٩م.
- منذ عام ١٩٨٩م يدرس:
- الحضارة الاسلامية.
- التاريخ الاسلامي.
- والعصور الوسطى

تعريف بالكتاب

يتناول هذا الكتاب دراسة مرحلة مهمة من تاريخ امتنا الاسلامية، تالبت فيها قوى الشر من صليبية وبيزنطية وأرمنية للنيل من كرامة وكيان هذه الأمة، فقد تلاحقت فيها موجات بشرية هائلة سميت «بالحملات الصليبية» سعت للقضاء على كيان هذه الأمة وتطهيرها عرقيا واستبدالها بعباد الصليب الذين سبحت خيولهم بدماء اجدادنا الأطهار. وقامت امارة دمشق - التي أسست منذ ٤٨٨ هـ حتى ٥٤٩ هـ بزعامة أسرة طغتكين - بدور فعال في صنع احداث تلك المرحلة،
وقاومت وأعاقت بشتى
مشاريع قوى الشر الكنسية و

السعر:
١,٧٥٠ د.ك

مطابع القبس التجارية



هذه الخريطة مقتبسة من أطلس تاريخ الاسلام

أ.د حسين مؤنس. مؤسسة الزهراء للإعلام العربي

القاهرة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م

إمارة دمشق

في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية

٤٨٨ - ٥٤٩ هـ/ ١٠٩٥ - ١١٥٤م

ملحمة الجهاد الأسلامي ضد الصليبيين الغزاة



تأليف: د. جمال محمد حسن عبدالرحيم الزنكي
مدرس التاريخ الاسلامي والعصور الوسطى بجامعة الكويت

الكويت: ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

إهـداء:

إلى والديّ وأسرتي العزيزة ولكل من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

- ولكل من يسعى لتحرير أراضي المسلمين المغتصبة وأولها القدس الشريف.

أبـو المثنـى

جمال محمد حسن الزنكي



المحتويات

«خلاصـــة»

تتناول هذه الدراسة وهي بعنوان «إمارة دمشق في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية، ٤٨٨ ـ ٥٤٩هـ / ١٠٩٥ ـ ١١٥٤م»الى دراسة تاريخ الإمارة التي تأسست عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م. بعد هزيمة ومقتل تاج الدولة تُتُش بالقرب من الرَّي عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م على يد ابن أخيه السلطان بِركياروق بن السلطان ملكشاه. وقد قسمت مناطق نفوذ تاج الدولة في كل من بلاد الشام والجزيرة الفراتية بصورة رئيسية بين أكبر أبنائه فخر الملوك رُضوان في حلب والملك شمس الملوك دُقَاق في دمشق. وتألفت مملكة دمشق من جنوب بلاد الشام وأجزاء من الجزيرة الفراتية مثل الرَحْبة ميَافارقين.

وأصبح ظهير الدين طُغْتكين ـ الذي كان أتابكاً للملك دُقاق ـ الحاكم الفعلي لدمشق في عهد الملك دُقَاق في الفترة بين ٤٨٨هـ ـ ٤٩٧هـ /١٠٩٥ ـ ١١٠٤م. واستمرت أسرة طغتكين في حكم إمارة دمشق إلى أن سقطت عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م بيد القائد المسلم نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب، وبهذا وحّد نور الدين بلاد الشام لمواجهة الغزاة الصليبيين.

وسيتناول هذا البحث مناقشة المسائل التالية:

أولا : الظروف التي أدت إلى قيام هذه الإمارة.

ثانيا : دور طغتكين في تدعيم سلطته في الإمارة.

ثالثا : السياسة الخارجية لهذه الإمارة والعوامل التي شكلت هذه السياسة.

رابعا : الآثار الناجمة عن قدوم الصليبيين على الإمارة، وعلى الأخص صليبيو بيت المقدس.

خامسا : المنافسات الداخلية في الإمارة ومدى تأثيرها على استقرار الإمارة وعلاقتها الخارجية.

سادسا : الأحلاف التي عقدتها الإمارة والعوامل التي دعت إليها.

سابعا : مدى تأثير القوة الناهضة لزنّكي - حاكم حلب والموصل (٥٢١هـ - ٥٤١هـ / ١١٢٧ - ١١٤٦م) - على دمشق، ولماذا لم ينجح في ضم دمشق الى جبهته المتحدة في بلاد الشام والجزيرة والتي هدف منها إلى مواجهة القوى الصليبية.

ثامنا : الأسباب التي ساعدت نور الدين محمود بن زنكي - حاكم حلب - على ضم دمشق لدولته عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤ م

تاسعا : أهمية قوة دمشق العسكرية، ودور هذه القوة في حماية الإمارة من الأخطار الكثيرة التي كانت تهددها.

وأخيرا، هناك خاتمة تلخص أهم العوامل التي ساعدت على المحافظة على استقلالها خلال تلك الفترة، ودور الإمارة في قضية الجهاد ضد الغزاة الصليبيين.



المقدمة

لم تكن منطقة دمشق ـ (جند دمشق) في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية ـ أواخر القرن الخامس الهجري حتى منتصف القرن السادس الهجري/ أواخر القرن الحادي عشر حتى منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ـ مادة لدراسة وافية. ولسوء الحظ فإن معظم الدراسات عن بلاد الشام خلال هذه الفترة تتركز حول شمال بلاد الشام (جند حلب)، ومثال على ذلك دراسة ألبتكس بعنوان **عماد الدين زنكي**، ١٩٧٢م ودراسة عماد الدين خليل بعنوان **عماد الدين زنكي**، ١٩٧٢، ودراسة أليسيف، **نور الدين**، ١٩٦٧م وكذلك بحث كارول هيلينبراند «حياة وأعمال نجم الدين آيل غازي»، *دورية دار اسلام*، المجلد ٥٨، ١٩٨١م. ويؤمل من هذه الدراسة «إمارة دمشق في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية» «٤٨٨هـ ـ ٥٤٩م / ١٠٩٥ ـ ١١٥٤م» أن تسد فراغا علميا لبحث هذه المنطقة في تلك الفترة التاريخية من تاريخ أمتنا الإسلامية.

ويواجه الباحثون صعوبات في دراسة هذا الموضوع لقلة المعلومات وندرة المصادر التاريخية الأصلية. فبلاد الشام قاطبة وخاصة دمشق، في الفترة الموصوفة تحت البحث لم تكن تعاني سياسيا واقتصاديا فحسب، بل عانت أيضا من انحسار في الحياة الفكرية، واشتُهر في هذه الحقبة مؤرخان من بلاد الشام فقط معاصران هما: أبو القاسم علي بن عساكر، مؤلف كتاب «**تاريخ دمشق**» وحمزة بن القلانسي مؤلف كتاب *ذيل* «**تاريخ دمشق**». ولسوء الحظ، فإن الدراسة الكبيرة لابن عساكر والتي تتألف من أربعين مجلدا أو يزيد على ذلك: لا تساعدنا كثيرا في فهم التاريخ السياسي لبلاد الشام خلال الفترة التي يتناولها هذا الموضوع فقد كرس ابن عساكر

هذا العمل الضخم لدراسة العلماء من الفقهاء ورواة الحديث الشريف. ونادرا ما ذكر القادة السياسيون بالتفصيل وخاصة خلال الفترة التي يتناولها هذا البحث. وما يزال ابن القلانسي هو المؤرخ الأهم ليس لدمشق فحسب، بل لكل بلاد الشام، ويعد أيضا إلى حد ما مؤرخا للجزيرة الفراتية والعراق خلال الفترة التي ندرسها. فإن معظم المؤرخين المسلمين المتأخرين حصلوا على القدر الأكبر من معلوماتهم فيما يتعلق بمدينة دمشق من ابن القلانسي بما فيهم ابن الأثير وابن العديم إبن شداد وابن كثير وشهاب الدين أبو شامة وابن خلدون.

ولا يحتاج القارىء أن نعطيه تفصيلا لأهمية المصادر المعاصرة سواء العربية أم الغربية التي استعنت بها كثيرا، وسيلاحظ ذلك من خلال تتبعه للهوامش التي جعلتها نهاية كل فصل، ومن أهم المصادر الغربية التي تمثل وجهة نظر الصليبيين هو وليم الصوري ويعد كتابه «تاريخ الأعمال المنجزة عبر البحار» واحدا من أهم المصادر الأساسية لفهم العلاقة ما بين دمشق والصليبيين، كما اعتمدت على العديد من الدراسات العامة بالحروب الصليبية، ومن أمثلة هذه الدراسات العامة الحديثة الدراسات ك. م. سيتون «**تاريخ الصليبيين**» (المائة سنة الأولى)، لندن، ١٩٦٩م - ودراسة رأس .رانسيمان «**تاريخ الصليبيين**» المجلد ٢: كامبردج ١٩٥٢م ودراسة جي. ريلي - سميث، «**الحرب الصليبية الأولى والفكرة الصليبية**»، ١٩٨٦م - وكذلك دراسة ار . سمايل، «**الحرب الصليبية**» (١٠٩٧ - ١١٩٣م) كامبردج، ١٩٥٦م ودراسات أخرى، وسوف يرى القارىء قائمة بالمصادر والمراجع المختلفة في نهاية هذا الكتاب إن شاء الله.

وتضم هذه الدراسة ثمانية فصول، يتعلق الفصل الأول بالوضع في بلاد الشام قبيل العدوان الصليبي والظروف التي أدت إلى قيام امارة دمشق. وتتركز الفصول التالية: من الفصل الثاني إلى الفصل السابع - على فترة حكم أمير واحد من أمراء دمشق، من ظهير الدين طغتكين ٤٤٨ - ٥٢٢ هـ إلى آخر حاكم للامارة وهو مجير

الدين أبق (٥٣٤ هـ - ٥٤٩هـ / ١١٤٠ - ١١٥٤م). أما الفصل الثامن فهو مكرس لدراسة جيش دمشق. وقد عالجت في دراستي هذه النقاط الرئيسية التي تهمني بشأن هذه الإمارة خلال هذه الفترة الغامضة التي لم تعط حقها سواء من مؤرخينا أو مؤرخي الغرب الأوروبي، وعلاوة على ذلك بحثت كيف استطاعت الإمارة الصمود طوال تلك الفترة في ظروف سياسية معقدة سادت بلاد الشام جميعها، ثم قدمت تبريرا لسقوطها النهائي سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م على يد نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب.

د.جمال محمد حسن عبدالرحيم الزنكي
الكويت ١٤١٤هـ

«الفصل الأول»

«بلاد الشام قبيل العدوان الصليبي»

يتناول موضوع هذا البحث دراسة لإمارة دمشق في المرحلة الباكرة للحروب الصليبية في الفترة بين سنتي ٤٨٨ و ٥٤٩هـ / ١٠٩٥ ـ ١١٥٤م. ويستلزم البدء بهذا البحث إعطاء لمحة موجزة ذات خلفية تاريخية عن الوضع في بلاد الشام على وجه العموم ـ والظروف التي ساعدت على تأسيس إمارة دمشق خلال تلك الفترة التاريخية.

لقد حققت السلطة الفاطمية في بلاد الشام مكاسب متفاوتة منذ احتلالها الأول لها في ٣٥٩هـ / ٩٦٩م(١). ولكن مكاسب الفاطميين في بلاد الشام لم تدم طويلا، إذ إن غالبية شعوب بلاد الشام بما فيهم الشيعة الأثنى عشرية لم يعترفوا بالسلطة الفاطمية عن طيب خاطر. وحدث أن نشأت حركات المعارضة في القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي، ضد الحكم الفاطمي، وتزعم حركة المعارضة آنذاك الشيعة الاثنى عشرية في كل من حلب وصور وطرابلس. كما نشأت حركات أخرى معارضة تزعمها السنة أيضا وعلى رأسهم أهالي مدينة دمشق.
ففي عام ٤٥٥هـ / ٤ يناير ١٠٦٣م، أعلن قاضي صور عين الدولة محمد بن عقيل ـ وهو من الشيعة الاثنى عشرية ـ استقلاله عن الفاطميين ودام استقلال صور حتى عام ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م عندما تمكنت القوات الفاطمية بقيادة منير الدولة الجيوشي من إعادة السيادة الفاطمية لمدينة صور مرة أخرى (٢)

كما أعلن في بداية عام ٤٥٧هـ / الثالث عشر من ديسمبر ١٠٦٤م ـ القاضي أمين الدولة بن عمار ـ وهو من الشيعة الاثنى عشرية ـ استقلاله في طرابس (٣). وفي عام ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م ـ أي بعد سبعة أعوام من استقلال صور ـ أعلن محمود بن صالح بن مرداس ـ أمير حلب وهو من الشيعة الاثنى عشرية ـ موالاته للسلاجقة الذي بسطوا سيادتهم على الخلافة العباسية في بغداد، مؤيدا في ذلك انتزاعهم سدةّ الخلافة العباسية من هيمنة البويهيين الزيدية، وكان ذلك في عام ٤٤٧هـ / الثاني من ابريل عام ١٠٥٥م (٤).

وقد ضمت إمارة طرابس التي استقلت في بداية ٤٥٧هـ / الثالث عشر من ديسمبر عام ـ ١١٦٤م ـ كما هو مذكور أعلاه ـ كلا من طرابس وطرطوس وعرقة وجبيل، وألحقت بها في عام ٤٧٣هـ / الثاني والعشرين من يونيه عام ١٠٨٠م، مدينة جَبَلة الواقعة على ساحل البحر الأبيض لمسافة تبلغ عشرين ميلا جنوبي اللاذقية. وسوف تفقد هذه الإمارة استقلالها وتعود للسيادة الفاطمية عام ٥٠١هـ / ١١٠٨م، وبعدها بأشهر قليلة ستسقط بأيدي الغزاة الصليبيين الذين بدأوا شن حملاتهم ضد المشرق الاسلامي منذ ٤٨٩هـ / ١٠٩٧م (٥). ونجح القائد التركماني في عام ٤٦٣هـ / ١٠٧١م والذي يدعى أَتْسِز بن أُوق ـ والذي كان واحدا من أتباع السلطان السلجوقي ملكشاه ـ نجح أتسز في إعادة الرملة وطبرية والقدس إلى السلاجقة (٦). وبعد خمسة أعوام ـ في ذي القعدة عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٦م تمكن أتسز من الاستيلاء على دمشق من الفاطميين بعد حصار طويل. (٧)

وبالرغم من أن أتسز لم يسترد بلاد الشام كلها للخلافة العباسية فقد شرع في خطة أكثر طموحا، وحاول إسقاط الدولة الفاطمية في مصر ذاتها، بعد أن كان قد أسس دولته في دمشق. ففي عام ٤٦٩هـ / ١٠٧٧م ـ أي بعد عام واحد فقط من استعادته مدينة دمشق إلى السلاجقة ـ تقدم أتسز باتجاه القاهرة ومعه عشرون ألف رجل بهدف الاستيلاء على المدينة والسيطرة على مصر برمتها. ولكن طموح أتسز تلاشى عندما أبيد جيشه الكبير من قبل الجيش الفاطمي الذي قاده الأفضل بن بدر الجمالي ـ الوزير المصري ـ وفر أتسز من الموت ومعه فقط خمسة عشر خيالا، وهرب إلى غزة ومنها إلى دمشق، وسقط باقي الجيش الدمشقي بين قتيل و أسير.

وعلى الرغم من أن الدمشقيين قد عانوا الكثير في ظل حكم أتسز الاستبدادي، إلا أنهم لم يكن لهم خيار أفضل من أتسز. ويبدو أن الدمشقيين لم ينسوا أيام الحكم الفاطمي الجائر. وعلى أية حال، فعندما عاد أتسز إلى دمشق راحوا يطلبوا أن يسوي لهم أوضاع مدينتهم المتردية التي عانت كثيرا من جراء مصادراته لأملاكهم وإجبارهم لدفع الضرائب المرتفعة (٨). ويبدو أن أتسز قد بدد أموال دمشق خاصة للصرف على مشاريعه الحربية الطموحة ضد الفاطميين.

وبعد هذه الكارثة التي حلت بقوات أتسز في شرقي القاهرة، بدأ ولاة القدس والرملة وغزة ـ الذين كانوا تحت قيادة حاكمهم أتسز في التمرد والعصيان ضده فخلعوا طاعته وخطبوا للخليفة الفاطمي.(٩)

وأعطى السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان في عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م بلاد الشام لأخيه تاج الدولة تتش كإقطاع، ووعده بأن كل ما يستولي عليه تتش من الفاطميين مستقبلا سوف يكون من نصيبه. ويبدو أن السلطان ملكشاه كان يشك في ولاء أتسز حاكم دمشق له، ولذلك وهب بلاد الشام كلها لأخيه تتش بما في ذلك مدينة دمشق. ولا تذكر المصادر التاريخية المعاصرة فيما إذا كان تتش قد حاول أن يخضع أتسز حاكم دمشق له. وعلى أية حال، فسوف تساعد الظروف في بلاد الشام تتش على ضم دمشق سلميا إلى سلطته في العام التالي .فتقدّم تتش بجيش كبير نحو حلب في ذلك العام للاستيلاء عليها من واليها المتمرّد سابق بن محمود بن مرداس الذي سبق له أن اعترف بسلطة السلاجقة على إمارته قبل ثمانية أعوام كما ذُكر، ثم إن قائدا بارزا من قادة تتش يدعي مسلم بن قريش حاكم الموصل تآمر مع حاكم حلب المتمرد لإجبار تتش على التخلي عن محاصرة المدينة. فقام ابن قريش بإعلام إبن مرداس عن الإمدادات التي أرسلت لتتش عن طريق تركمان التركي ـ أحد أمراء خراسان ـ وذلك في بطنان الواقع بين منبج وحلب.

وتمكن ابن مرداس من أن ينصب كمينا لحملة الاغاثة هذه وأن يستولي عليها، فأجبرت الكارثة ـ التي حلّت بحملة الإغاثة ـ تتش على التخلي عن محاصرة حلب. ثم عاد أدراجه إلى ديار بكر ليقضي فيها فصل الشتاء هناك. واستولى بعد ذلك على منبج وحصن الغابة الواقع بين منبج وحلب وكان ذلك في ربيع هذه السنة، ومع كل هذه المكاسب التي خلفّها وراءه، فقد احتل تتش حصن بزاعة الذي يبعد عشر ميلا إلى الشرق عن مدينة حلب، وارتكب مذبحة بحق السكان الذين سبق وأن تآمروا ضد قائده تركمان التركي قبل سنة. كما هو مذكور أعلاه. ثم تقدم تتش نحو حصن أعزاز واستولى عليه ،كما حاول مباغتة مدينة حلب فيما بعد، ولكن محاولته الاستيلاء عليها باءت بالفشل (١٠)

ولم يعد الفاطميون قادرين على تحمل الهزائم لحقت بهم على أيدي السلاجقة عليهم وخاصة اعادتهم مدينة دمشق التي تعد المدينة الأكثر أهمية في بلاد الشام في ذلك الوقت لسيادة الخلافة العباسية ـ ولذلك استعاد الجيش الفاطمي في عام ٤٧١هـ / ١٠٧٩م، بقيادة ناصر الدولة الجيوشي كلا من الرملة وطبرية والقدس في فلسطين من أتسز حاكم دمشق ثم تقدم الجيش الفاطمي بعد ذلك ليفرض حصاره على مدينة دمشق. فاستغاث أتسز بتتش وعرض عليه أن يسلمه المدينة، ويتخلى عنها له ويضع نفسه تحت امرته، فهرع تتش إلى دمشق، واستولى على المدينة قبل وصول القوات الفاطمية.

وبعد ذلك بفترة وجيزة، دبر تتش مكيدة ضد أتسز وقتله. وبذلك تمكن تتش من أخذ فلسطين من الفاطميين باستثناء ساحلها(١١). وبعد ضمّه مدينة دمشق إلى مناطق نفوذه، جعل هذه المدينة عاصمة له وقاعدة إنطلاق للسيطرة على بلاد الشام كلها وخاصة مدينة حلب التي تعد ثاني أهم مدينة في بلاد الشام.

وسيطر مسلم بن قريش ـ وهو شيعي اثنا عشري في العام التالي ٤٧٢هـ / ١٠٨٠م، علي مدينة حلب بمساعدة أحداث حلب «جماعة أحداث حلب» الذين فتحوا له بوابات المدينة. ثم تقّدم مسلم بن قريش الذي كان قد وُعد بالمساعدة من

قبل الفاطميين لفرض حصاره على مدينة دمشق التي كانت مقرا لتتش الذي كان مشغولا آنذاك بالقيام بحملة ضد الامبراطورية البيزنطية في شمال بلاد الشام. وعلى الرغم من فشل الفاطميين في العام المنصرم إلا أنهم لم يتوقفوا عن محاولاتهم لاستعادة بلاد الشام وخاصة مدينة دمشق، فهرع تتش إلى دمشق وأحبط هذه المحاولة التي كانت تستهدف الاستيلاء على عاصمته دمشق (١٢).

واستعاد سليمان ابن قتْلُمش ـ حاكم قونية المسلم ـ في عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٥م مدينة انطاكية للمسلمين من الحاكم البيزنطي الفردوس الرومي. وعندما علم مسلم بن قريش باستيلاء ابن قتلمش على انطاكية، طلب من ابن قتلمش دفع إتاوة كالتي كان الحاكم البيزنيطي السابق معتادا على دفعها له، فرفض ابن قتلمش طلبه، فاسرع مسلم بن قريش بجيشه ليأخذ منه أنطاكية، لكن ابن قتلمش هزم قوات مسلم بن

قريش هزيمة منكرة بالقرب من أنطاكية، وقُتل مسلم بن قريش نفسه في المعركة ثم أسرع ابن قتلمش لأخذ مدينة حلب من إبراهيم بن عقيل الذي كان قد خلف مسلم بن قريش فيها. ولكن عندما وصلت أنباء تقدّم ابن قتلمش إلى ابن الحتيتي - قائد جماعة الأحداث في حلب - استغاث بتتش ووعده بأن يتخلى له عن المدينة. وعلى الرغم من أن قوات تتش هزمت جيش ابن قتلمش إلاّ أن ابن الحتيتي رفض تسليم مدينة حلب إلى تتش كما وعده، وارسل ابن الحتيتي إلى السلطان السلجوقي ملكشاه برسالة يدعوه فيها لاستلام مدينة حلب بدلا من أخيه تتش. وعلى أية حال، فان تتش تمكن من السيطرة على المدينة بمساعدة أحد الأمراء الحلبيين ويدعى ابن الرعوي، ولكنه انسحب منها باتجاه دمشق عندما وصلته أنباء تقدم السلطان ملكشاه السلجوقي نحو حلب. ووفقا لما أورده ابن الأثير، فإن بعضا من قادة تتش نصحوه بقتال أخيه السلطان ملكشاه بالقرب من حلب، ويضيف ابن الأثير أنه كانت هناك فرصة سانحة لجيش تتش في كسب المعركة إلاّ أنه رفض القتال ضد أخيه، ثم يقول ابن الأثير: إن تتش برر هذا بقوله: « لن أقوض سلطان أخي الذي أنا مستظل به، فإن ذلك سيصيبني بالضعف أولا » (١٣).

ويبدو أن المشاكل المحيطة بمصير حلب جعلت العلاقة الفاترة اصلا بين تتش وأخيه السلطان ملكشاه تسوء أكثر فأكثر، ولذلك اقترح السلطان بأن يكبح جماح أخيه تتش وتطلعاته الذي سبق أن وهبه بلاد الشام كلها كاقطاع. فكانت الخطوة الأولى التي قام بها لإضعاف تتش - التي انجزت في نفس السنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م - تتلخص في أن السلطان ملكشاه وهب محمد بن مسلم بن قريش - وكان خصما لتتش - وهبه ولاية الموصل وولاية المدن الرئيسية في الجزيرة الفراتية وعلى الأخص تلك المدن الواقعة في ديار مضر. وذلك لإحباط محاولة توسع تتش في ديار بكر التي تقع في الشمالي الشرقي من ديار مضر. وكانت الخطوة الثانية التي هدفت إلى إضعاف تتش كانت في تعيين وال قوي في حلب من قبل السلطان ملكشاه يدعي قسيم الدولة آق سنقر الحاجب في عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م، ويبدو أنه ليس هناك من أحد يستطيع كبح تطلعات تتش للسيطرة على بلاد الشام باستثناء قسيم الدولة الذي كان يعد واحدا من أقوى الولاة وأكثرهم ولاء للسلطان ملكشاه،

وسوف نرى خلال سير سلسلة الأحداث كيف أنشأ ملكشاه فكرته الذكية بتعيينه قسيم الدولة كوال في حلب في شمالي بلاد الشام في محاولة منه لإصلاح الوضع ووقف مطامع تتش.(١٤)

ونجح آق سنقر الحاجب ـ صاحب حلب في رجب عام ٤٨١هـ / العشرين من سبتمبر ١٠٨٩م في إخضاع عز الدولة ناصر بن منقذ ـ حاكم شيزر ـ الذي كان اسميا تحت سلطة تاج الدولة تتش. ويبدو أن آق سنقر الحاجب فعل هذا لإضعاف قوة تاج الدولة تتش في شمالي بلاد الشام بعد حصوله على موافقة في هذا الشأن من سيده السلطان ملكشاه، وبذلك يحبط خطة تتش في توحيد بلاد الشام كلها تحت سيطرته.

وبينما التنافس محتدم بين السلاجقة أنفسهم في بلاد الشام أنذاك، استعادت القوات الفاطمية بقيادة منير الدولة الجيوشي في عام ٤٨٢هـ / ١٠٨٩ ـ أي بعد سبع وعشرين سنة من استقلال مدينة صور عن الفاطميين ـ مدينة صور من حكامها المتمردين أبناء قاضيها «حاكمها» عين الدولة محمد بن عقيل. ثم أعاد الفاطميون سيادتهم على صيدا ومدينتين تابعتين لإمارة طرابلس المستقلة وهما عَرْقه وجُبَيل، وهما تبعدان حوالي عشرين ميلا شمالي بيروت.

وتجدر الإشارة هنا أنه بعد نجاح الفاطميين في عمليتهم الحربية هذه، استعاد الفاطميون ساحل بلاد الشام كله باستثناء يافا التي كانت لاتزال تحت سيطرة تاج الدولة تتش(١٥). ويُعزى السبب في عدم قدرة السلاجقة على الحفاظ على المدن الساحلية في بلاد الشام إلى ضعفهم في بناء أسطول كفء لمواجهة أسطول الفاطميين الضخم.

ويظهر أن تتش اكتشف أنه لن يصمد أمام الفاطميين إلا بكسب ثقة السلطان ملكشاه، ولهذا تصالح مع أخيه، وقام في العام التالي أي عام ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م بالزحف بقواته متحدا مع قوات حلب بقيادة آق سنقر الحاجب وقوات الرُها بزعامة بوزان لاخضاع حاكم مدينة حمص خلف بن ملاعب الذين كان على المذهب الشيعي الاثنى عشري. وقد تمكنوا من استعادة هذه المدينة المهمة للخلافة العباسية

والسلطنة السلجوقية، وقد منح تتش خلف بن ملاعب الأمان وأعطى له الاذن للرحيل إلى أسياده الفاطميين في مصر(١٦).

ويبدو أن هذه أول مرة منذ تعيين آق سنقر الحاجب واليا لحلب من قبل السلطان ملكشاه - يقوم آق سنقر وحليفة بوزان صاحب الرّها في حملة مشتركة بالتعاون مع تاج الدولة تتش، ومن المؤكد انهما حصلا على موافقة مسبقة من سيدهما السلطان ملكشاه.

وأمر السلطان ملكشاه كلا من آق سنقر الحاجب صاحب حلب وبوزان صاحب الرها بطاعة تاج الدولة تتش، - صاحب دمشق - للتعاون جميعا لهدف استعادة كل الساحل الشامي من الفاطميين أصحاب مصر، وهذا الساحل هو المنطقة الوحيدة في بلاد الشام التي لازالت تحت سيطرة الفاطميين بعد أن خسروا الباقي لصالح السلاجقة، كما أمرهم بعد إتمام هذا المشروع بانتزاع مصر نفسها من الفاطميين(١٧). ويظهر أن هذا المشروع لإخضاع مصر للخلافة العباسية من قبل السلاجقة كان أول محاولة رسمية جادة من هذا النوع. وكما نوهنا سابقا أن الملك أتسز بن أُوق - صاحب دمشق - حاول سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٧م إخضاع مصر للسلاجقة، إلا أنه فشل في تحقيق هذا الأمل للعباسين والسلاجقة على حد سواء، ويبدو أن أتسز قام بهذه المحاولة دون أخذ موافقة رسمية من سيده السلطان ملكشاه صاحب الكلمة الاولى في الخلافة العباسية. ويبدو أن تتش قرر أن يبدأ قبل الشروع في إخضاع الساحل الشامي التابع للفاطميين أن يشرع في إخضاع المناطق التي لازالت تتمتع بالاستقلال عن الفاطميين - في بلاد الشام - خاصة إمارة طرابلس التي كان يحكمها آنذاك جلال الملك بن عمار، وكما قد أوضحنا من قبل أن أسرة بنو عمار استقلت عن الدولة الفاطمية في عام ٤٥٧هـ / ١٠٦٦م، ومن دون شك أن هذا المشروع لو تم كما اراده تتش، لحقق تتش نجاحا كبيرا يقوى به في ضم طرابس وضرب القوة الفاطمية ضربة موجعة في بلاد الشام، إلا أن مسعاه هذا قد فشل. فعندما فرض هو وحلفاؤه الحصار على مدينة طرابس تمكن جلال الملك بن عمار من إقناع آق سنقر الحاجب

بالتخلي عن حصاره لطرابس وهجر جيش تاج الدولة تتش، فقد أراه جلال الملك مرسوما من السلطان ملكشاه يؤكد أحقية جلال الملك بحكم طرابس.

وهكذا رفض آق سنقر الاستمرار في حصار طرابلس بالرغم من أوامر تاج الدولة له لاتمام الحصار وطاعة أوامره، إلا أن آق سنقر أجابه بأنه ملتزم بأوامره إلا إذا خالفت أوامر السلطان. وعلى أية حال، انسحب آق سنقر بقواته عن طرابلس مما اضطر تاج الدولة نفسه لفك حصاره هذا وكذا بوزان صاحب الرها(١٨). ويبدو أنه بعد هذه الحادثة تأكد للسلطان ملكشاه مدى عصيان أخيه تتش له ومحاولته الاستقلال عنه، ولهذا نرى تتش يسرع نحو بغداد، ليقابل أخاه السلطان، ويطيب قلبه ويزيح عنه شكه في ولائه له. وقد أكدت الأحداث طمع تتش في الحصول على السلطنة السلجوقية. فبينما تتش في طريقه نحو بغداد جاءته الأخبار بوفاة السلطان، ولذلك أسرع نحو عاصمته دمشق ليعلن نفسه سلطانا للسلاجقة. وقد ساعد هنا الانقسام والاختلاف بين أبناء السلطان ملكشاه حول وراثة السلطنة السلجوقية تاج الدولة تتش ليكسب دعم الأمراء والولاة في بلاد الشام، حتى ينضموا لصفه في طلب السلطنة له. والغريب في الأمر أن بعض الأمراء الذي عرف عنهم سوء علاقتهم مع تتش أيدوا موقفه ودعموه عمليا لنيل السلطنة مثل آق سنقر الحاجب ـ صاحب حلب ـ الذي عينه السلطان ملكشاه واليا لحلب ليقف أمام أطماع تتش في بلاد الشام، كما وقف في صف تتش بوزان صاحب الرها وحّران وكذلك ياغسيان بن محمد التركماني صاحب أنطاكية، وهي من أحصن المدن وأكبرها في شمال بلاد الشام(١٩) ويبدو أنها المرة الأولى منذ غزو السلاجقة لبلاد الشام سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١م أن أصبحت بلاد الشام ـ عدا الساحل التابع للفاطميين ـ تحت سيطرة مباشرة لحاكم وحيد وهو السلطان تاج الدولة تتش.

وتقدم تتش يقود قوات تعدادها عشرة آلاف رجل ليستولي على الموصل ـ وهي مدينة مهمة في الجزيرة الفراتية وكان يحكمها آنذاك إبراهيم بن قريش بن بدران ـ فتمكن تتش بقواته هذه من سحق قوات الموصل والتي كانت تقدر بثلاثين ألفا قرب مدينة الموصل، ثم أخذ المدينة، وعين علي بن قريش واليا على المدينة خلفا

لشقيقه إبراهيم بن قريش بن بدران الذي قتل في تلك المعركة قرب الموصل، وبعد استيلائه على الموصل وتعزيز سيادته في بلاد الشام جميعها ـ عدا الساحل الذي كان يسيطر عليه آنذاك الفاطميون ـ أرسل تتش للخليفة العباسي المقتدي طالبا منه الاعتراف به كسلطان أوحد للسلاجقة، والدعاء له على المنابر في عاصمة الخلافة وجميع البلاد كسلطان جديد، إلا أن المقتدي رفض هذا الطلب، ويبدو أن هذا الطلب كان فيه غلظة، إلا ن المقتدي لم يكن في وضع يسمح له بتحدي تتش ولهذا نراه يبرر عدم تنفيذه لهذا الطلب بأن تتش يجب عليه أولا إخضاع السلاجقة جميعا الذين لازالوا يتنافسون لنيل السلطنة بمن فيهم ابن أخ تتش وهو بركياروق بن السلطان ملكشاه الذي عزز نفوذه في أصفهان، وعموما تقدم تتش بقواته نحو ديار بكر في الجزيرة الفراتية واستعاد سيادته عليها جميعها بما فيها آمد وميافارقين وهما أهم مدينتين رئيسيتين هناك(٢٠).

ثم تقدم تتش نحو أصفهان لإخضاع ابن أخيه بركياروق الذي أعلن نفسه وريثا لأبيه السلطان ملكشاه لكونه أكبر أبناء السلطان. وحدث في تلك الأثناء ما لم يكن بالحسبان فقد انقلب آق سنقر الحاجب وبوزان ـ حليفي تتش ـ عليه وهجراه إلى منافسة بركياروق، وبهذا رجحت كفة بركياروق بعد أن كان في موقف صعب وكانت كل المؤشرات تؤكد تفوق تتش. وبسبب هذا الحدث اضطر تتش للعودة إلى ديار بكر، حيث فضل العودة لتلك المنطقة لحشد قوات جديدة من التركمان بسبب فقده قوات حلب وقوات الرها اللتين خذلتاه، ثم زحف تتش نحو مدينة أنطاكية التي ثار عليه صاحبها ياغسيان وحول ولاءه للسلطان بركياروق كما فعل صاحباه آق سنقر الحاجب وبوزان، إلا أنه لم يستطع إخضاع أنطاكية، فعاد إلي دمشق في أواخر ذى الحجة ٤٨٦هـ / ٢٠ يناير ١٠٩٤م(٢١).

زحف تتش في ربيع ثان ٤٨٧هـ / ٢١ ابريل ١٠٩٤م بعشرة آلاف رجل ونهب قرى مدينة حلب. وفي تلك الأثناء زحفت القوات المتحالفة ضد تتش بزعامة آق سنقر الحاجب صاحب حلب وبوزان صاحب الرها وكاربوقا حاكم الموصل الجديد من قبل السلطان بركياروق وكذلك يوسف بن أبق صاحب الرحبة، وقد بلغ تعداد

تلك القوات المتحالفة حوالي عشرين ألف رجل أي ضعف قوات تتش، وكان اللقاء في ٨ جمادى الأولى ٤٨٧هـ / ٣ سبتمبر ١٠٩٥م قرب نهر سبعين على بعد عدة أميال من تل السلطان، وقد منيت القوات المتحالفة المتفوقة عدديا بهزيمة منكرة، وأسر كل قوادها بمن فيهم آق سنقر الحاجب، وأمر تتش بضرب عنق منافسيه التقليديين آق سنقر وبوزان وأبقى على الاخرين كأسرى ورهائن. ثم زحف تتش لأخذ مدينة حلب - التي فتح له سكانها إحدى البوابات - فدخلها دون قتال (٢٢). ويحمل عماد الدين محمد الكاتب المؤرخ المسلم وصاحب كتاب «نُصْرة الفترة وعُصْرة الفطرة» يحمل السلطان بركياروق مسؤولية هذه الكارثة التي حلت بقوات الحلفاء عند نهر سبعين. فهو يزعم أن السلطان بركياروق لم يكتف بتخييب ظن حلفائه به بعدم مساعدتهم، بل إنه لم يقرأ كتبهم التي أرسلوها طالبين المساعدة العاجلة، فقد كان مشغولا في سماع الغناء الماجن والسكر(٢٣). وبعد نجاحه في استعادة بلاد الشام وضمها لحكمه - عدا الساحل التابع للفاطميين - تمكن تتش

من بسط سيادته علي الرها وسروج في الجزيرة الفراتية، ثم زحف بقواته نحو ديار بكر، وقد تجنب تتش في طريقه نحو ديار بكر الطريق المألوف وهو الذي يمر بالموصل لأن ابن أخيه السلطان بركياروق كان في تلك الأثناء يحاصر أخاه الأصغر السلطان محمود في الموصل نفسها. وكما أوضحنا سابقا بعد وفاة السلطان ملكشاه في ١٥ شوال ٤٨٥ هـ / ١٧ يونيو ١٠٩٣م، تنافس أبناؤه على نيل السلطنة. فقد أعلنت تَرْكان خاتون بنت طَفْغَاج خان - زوجة السلطان ملكشاه التي عرفت بقوة شخصيتها ونفوذها أيام حكم زوجها ملكشاه - أعلنت ابنها محمود - الذي لم يتجاوز الأربع سنوات - سلطانا للسلاجقة، ونصبت نفسها وصية عليه حتى يبلغ سن الرشد. وأصبحت مدينة أصفهان مركزا لقيادة محمود، واعترف الخليفة العباسي المقتدي بسلطنة محمود بن ملكشاه. ويبدو أن الخليفة وجد أن فرصة تنازع البيت السلجوقي لنيل السلطنة سوف تعطيه الفرصة لإعادة قوة الخلافة العباسية كما كانت خلال العصر العباسي الأول (عصر الخلفاء الكبار)، خاصة أن تأييده للسلطان محمود الصغير قد يعطيه فرصة لاضعاف السلطنة السلجوقية التي استبدت بالخلافة العباسية والتي أصبحت رسما وصورة دون قوة فاعلة، إلا أن المقتدي غير

رأيه واعترف بسلطة بركياروق في ٢٤شوال ٤٨٧ هـ / ٢٩ أكتوبر ١٠٩٤م. وقد وجد تتش أن التنازع بين بركياروق وأخيه محمود فرصة لكسب قوة الأضعف وهو محمود ليقوى به على الأقوى وهو بركياروق، ولهذا توجه بقواته نحو ديار بكر للالتقاء بتركان خاتون وقرر عقد تحالفا معها يتم به عقد زواج سياسي بينهما، إلا أن الأقدار أرادت غير ما أراد الحليفان فقد توفيت تركان خاتون في طريقها نحو ديار بكر في رمضان ٤٨٧هـ / ١٥ سبتمبر ١٠٩٤م، كما توفي محمود ابنها في شوال من نفس العام متأثرا من مرض الجدري، فجاءت هذه الحوادث لصالح بركياروق الذي تمكن من أخذ أصفهان من أتباع محمود(٢٤) ،وتشتت جيش تركان خاتون الذي كان يقدر بعشرة آلاف إلى قسمين، أحدهما انضم لبركياروق والآخر انضم إلى تتش. ومن جهة أخرى كانت الظروف تسير لصالح السلطان تاج الدولة تتش وانضم لعسكره أعداد كبيرة من جيش ابن أخيه السلطان بركياروق مما أضعف موقف بركياروق وقوى من دعم طموح تتش بالسلطنة. ودفع هذا الوضع الخليفة العباسي المستظهر بالله بن المقتدي بأمر الله للاعتراف بسلطنة تتش ورفع اعترافه السابق بالسلطان بركياروق، ووفقا لرواية ابن القلانسي خُطبَ للسلطان تتش على منابر العاصمة بغداد نفسها، وفي تلك الأثناء كتب السلطان تتش لابنه الأكبر فخر الملوك رضوان ـ نائبه في حلب ـ يأمره بإرسال بقية عسكر الشام للمساهمة في إخضاع بركياروق، ثم زحف السلطان تتش بعسكره ناحية قرية تدعى داشيلو تبعد عن مدينة الري حوالي ستة وثلاثين ميلا. وهناك كتب لقواد من عسكر بركياروق يستحثهم على عصيان بركياروق وقبوله سلطانا لهم، وكان لمرض سيدهم بركياروق في تلك الأثناء أثر واضح في تعهدهم له بالمساعدة والاستجابة لطلبه، كما كان لهداياه المجزية لهم أثر لا يقل فاعلية عن سابقه، إلا أن الظروف كانت في خدمة بركياروق فقد شفي من مرضه الشديد مما دفع أعداداً كبيرة من قواد عسكرة الى العدول عن وعدهم لتتش بالنصرة وخذلان بركياروق، كما انضمت قوات جديدة لبريكاروق من منطقة جرباذقان البعيدة عن الري حوالي مائة ميل من جهة الشرق. وتم اللقاء بين المعسكرين المتنافسين على السلطنة في صفر ٤٨٨هـ / ١٠٩٥ م في داشيلو، وهُزم تتش وعسكره الذي كان يقدر بثلاثين ألفا هزيمة منكرة، وقتل تتش

على يد أحد غلمانه، الذي كان سابقا غلاماً لآق سنقر الحاجب صاحب حلب، الذي أعدمه تتش في السنة السابقة كما أسلفنا(٢٥). وبعد هزيمة السلطان تاج الدولة تتش ومقتله، أسرع ابنه فخر الملوك رضوان للاحتفاظ بسلطان والده في بلاد الشام والجزيرة.

وسوف نناقش نشأة إمارة دمشق في الفصل الثاني، ولكن معرفة الجغرافيا السياسية لامتداد نفوذ السلطان تاج الدولة من الأمور الضرورية للتوصل إلى تقييم دقيق لما أعقب ذلك من أحداث، وقد اتضح أن بلاد الشام ومعظم الجزيرة الفراتية وأجزاء من العراق وأجزاء من إيران المعاصرة كانت تقع تحت سيطرة السلطان تاج الدولة تتش، فكانت بلاد الشام بأكملها ـ باستثناء سواحل فلسطين ـ تقع تحت سيطرته المباشرة، كذلك كانت معظم الجزيرة الفراتية بما في ذلك الرها وسروج وحران وميافارقين وآمد وحصن كيفا والرحبة تقع تحت سيطرته أيضا . وبعد وفاته احتفظت بلاد الشام بولائها لأبنائه بما في ذلك مدنها الرئيسية ـ مثل: دمشق وحلب والقدس وأنطاكية وحمص وحماة وبعلبك وبصرى. أما معظم المدن في الجزيرة فقد غيرت ولاءها باستثناء ميافارقين والرحبة، بينما استرد السلطان بركياروق كل العراق وايران من أبناء تتش وأقام الملك شمس الملوك دقاق بن السلطان تاج الدولة تتش مملكة مستقلة له في دمشق، بدون الحصول علي موافقة أخيه الأكبر الملك فخر الملوك رضوان صاحب حلب. وضمت مملكة دمشق العديد من المدن العظيمة في بلاد الشام ـ مثل دمشق وحماة وبعلبك وبصرى وربما القدس كذلك(٢٦).

وهكذا يمكن أن نرى بجلاء أن الفترة التي تسبق مباشرة فترتنا التي نبحثها في هذه الدراسة كانت واحدة من الفترات المليئة بالصراعات المستمرة من أجل كسب النفوذ والسيطرة فيما بين أفراد العائلة السلجوقية، والتي امتدت اقليميا في أنحاء منطقة بلاد الشام، وتوسعت إلى ما وراء جبال زاجروس باتجاه الشرق، بل إنها قامت بين الحين والآخر ببعض الغزوات ضد الفاطميين أنفسهم في مصر.

أرجو أن اعطيت القرىء الكريم فكرة بسيطة عن حال بلاد الشام بشكل عام وامارة دمشق بشكل خاص والظروف التي ستنشأ بها تلك الامارة.

الهوامش

١ ـ درويش النخيلي، **فتح الفاطميين للشام**، الاسكندرية، ١٩٧٩م، ص١٧٤.
٢ ـ عمر تدمري، **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور**، المجلد الأول، الطبعة الثانية، بيروت ،١٩٨٤م، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٨.
٣ ـ المرجع السابق، ص ٣٤٩.
٤ ـ ابن القلانسي، **ذيل التاريخ دمشق**، تحقيق: اتش. اف. أميدروز، (ليدن، ١٩٠٨م، ص ٩٨).
٥ ـ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق مجموعة من المؤرخين (القاهرة بدون تاريخ)، المجلد الثامن ص ٢٥٩,٢٥٦.
٦ ـ ابن القلانسي، ص. ص ٩٨ ـ ٩٩.
٧ ـ ابن الأثير، **الكامل**، ص ١٢٢.
٨ ـ ابن العبري غريغوريس المالطي، **تاريخ الزمان**، تحقيق سالم دكاش. بيروت، ١٩٨٦م، ص: ١٥٥.
٩ ـ ابن الأثير، **الكامل**، ص ١٢٣.
١٠ ـ ابن القلانسي، ص ١٢٢، ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**. تحقيق سامي دهان، دمشق ١٩٥٤م. المجلد الثاني، ص ٥٧، محمد الشيخ، **الامارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني الميلاديين**، الاسكندرية، ١٩٨٠م ص ١٤٧ ـ ١٤٩.
١١ ـ ابن الأثير، **الكامل**، ص ١٢٦؛ ابو الفدا ابن كثير، **البداية والنهاية**، بيروت، ١٩٦٦م، المجلد الثاني عشر، ص ١١٩.
١٢ ـ ابن الأثير، **الكامل**، ١٢٧.
١٣ ـ المرجع السابق، ص ١٤٠.
١٤ ـ ابن القلانسي، ص ١٢٠.
١٥ ـ عز الدين بن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، المجلد الأول، تحقيق سامي دهان (دمشق، ١٩٦٣م)، ص ١٥٥ ـ ٢٥٦؛ ابن القلانسي، ص ١٢٠.
١٦ ـ ابن القلانسي، ص ١٢٠.
١٧ ـ سيد عبد العزيز سالم وأحمد العبادي، **طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي**. (الاسكندرية. ١٩٦٧م)، ص ٦٧.
١٨ ـ ابن الأثير، **الكامل**، ص ١٦٠ ـ ١٦١.
١٩ ـ المرجع السابق، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.
٢٠ ـ سهيل زكار، **مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية**، (دمشق، ١٩٨١م)، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.
٢١ ـ ابن القلانسي، ص ١٢٤.

الفصل الثالث

عهد تاج الملوك بُورِي بن ظهير الدين طُغْتكِين

٥٢٢هـ - ٥٢٦هـ/١١٢٨ - ١١٣٢م

سيتناول هذا الفصل عهد ظهير الدين طغتكين، الذي كان الحاكم الفعلي غير الرسمي لمملكة دمشق خلال عصر الملك دقاق بن السلطان تتش. فوفقا لرواية ابن القلانسي الذي يعد أهم مورخ معاصر لدمشق في تلك الفترة التاريخية تم تعيين طغتكين في سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م أتابك للملك شمس الملوك دقاق. وقد اعتمد الملك دقاق اعتمادا كبيرا في إدارة شؤون مملكته على أتابكه ظهير الدين طغتكين. (١) ويظهر أن الملك شمس الملوك دقاق حاز تلك السنة لقب ملك دمشق اسميا، ولكن الحاكم الحقيقي للمملكة كان أتابكه ظهير الدين طغتكين.

كان طغتكين في سنيّ حياته الأولى أحد مماليك السلطان تاج الدولة تتش، واكتشف فيه سيده أيام شبابه الشجاعة والنبل والذكاء الحاد، ولذلك قدمه على أقرانه من مماليكه التركمان في بلاطه وسلمه بعض الوظائف، وبالرجوع إلى مؤرخنا ابن القلانسي وهذا المؤرخ الوحيد المعاصر الذي ذكر هذه المسألة،لم نجده يصف لنا هذه الوظائف. وبعد أن أثبت طغتكين جدارته في القيام بتلك المهام، قام السلطان تتش بتقليده منصب رئاسة جيش دمشق الذي كان يطلق عليه لقب الإسفهسلار، بالإضافة إلى ذلك فقد أعطاه نيابة مدينة دمشق عند غيابه عنها (٢). وقد أثبت طغتكين أثناء نيابته على مدينة دمشق كفاءته العالية في تسيير أمور المدينةوبما يتمتع به من العدل والحزم، ولذلك أحبه الدماشقة واكتسب سمعة طيبة في بلاط سيده السلطان تتش، ففي سنة ٤٨٦هـ/ فبراير ١٠٩٣م، منحه سيده تتش مدينة ميّافارقين المشهورة في ديار بكر كأول إقطاع له، كما أرسل تتش إبنه الثاني شمس الملوك دقاق إلى ميافارقين ليتلقى تدريبا على إدارة أمور الحكم هناك تحت إشراف مربيه «أتابكه» طغتكين، وحازت ميافارقين كثيراً من الميزات أثناء ولايته، فأصبحت أكثر أمنا وازدهارا، وفي تلك الفترة تمكن طغتكين من القضاء على مؤامرة دبرت على سلطته في تلك المدينة، وتمكن من قتل المتآمرين (٣).

ودبرت مؤامرة خلال سنة ٤٨٨هـ/ ١١ يناير ١٠٩٥م على نائب السلطان تاج الدولة تتش في مدينة آمد بديار بكر. فنجح طغتكين أيضا في إعادة هذه المدينة لسيادة سيده تتش (٤).

وأثناء مرحلة الصراع والتنافس على السلطنة بين تاج الدولة تتش وابن أخيه بركياروق بن ملكشاه - في الفترة الممتدة بين سنتي ٤٨٥هـ حتى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٢م حتي ١٠٩٥م، للفوز بالسلطنة - شارك طغتكين في القتال في صف سيده تتش حتى آخر معركةوكانت قرب الري في ١٧ من صفر ٤٨٨هـ/١٠٩٤م وفيها هُزم تتش وقُتل كما سبق ذكره في الفصل الأول.وكان من حسن حظ طغتكين وبعض قواد تتش أنهم نجوا من القتل، إلا أنهم وقعوا أسرى بأيدي عسكر السلطان بركياروق (٥).

وعندما وصلت أخبار الكارثة السابقة قرب الري لفخر الملوك رضوان - الابن الأكبر لتتش - أثناء مسيره مع قوات الشام لمساعدة أبيه ضد ابن عمه بركياروق بن ملكشاه - أسرع رضوان للعودة الى مدينة حلب، وتسلمها من وزير أبيه هناك المعروف بأبي القاسم الحسن الخوارزمي، وبعد فترة قصيرة عاد الابن الثاني قرب الري. وعندما كان موجودا في حلب، اتصل دقاق سرا بساوتكين الخادم المستناب في حفظ قلعة دمشق ليدبر معه مسألة هروبه سرا من حلب ليتولي أمر دمشق، ويؤسس هناك مملكة مستقلة عن أخيه الأكبر الملك رضوان الذي جعل مقر حكمه في حلب. وفعلا تمكن دقاق من إنجاز هذا الأمر ووصل الى مدينة دمشق، كما نجح ساوتكين في إقناع عسكر دمشق وأجنادها بالسمع والطاعة لدقاق. وبالرغم أن سيادة الملك دقاق تحققت له في مملكته الجديدة «دمشق»، إلا أن الملك رضوان - صاحب حلب - لم يتساهل مع أخيه دقاق المتمرد على حكمه كوريث شرعي لوالدهما السلطان تتش. ومن جهة أخرى تذكر المصادر التاريخية أن السلطان تتش قام قبل مقتله بتعيين جناح الدولة حسين بن آيتكين - زوج أم ابنه الأكبر رضوان - كأتابك لرضوان، ويبدو أن جناح الدولة حسين سيصبح الرجل الأول في سلطنة تتش بعد مقتل سيده تتش قرب الري في ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، وتولى رضوان وراثة

مملكة أبيه تتش (٦). وهناك رأى آخر يقول بأن تتش قام بتعيين طغتكين كأتابك لابنه الثاني دقاق عندما كان في ميّافارقين وذلك أيام حكم تتش، كما سبق ذكره. إلا أنه يظهر أن تتش كان يعزم بأن يوصي بالملك لابنه رضوان وليس لدقاق، ولهذا أوصى قواد جيشه قبل هزيمته عند الري في تلك السنة - بأن يسمعوا لابنه الأكبر رضوان (٧).

ويبدو أن مقتل تتش في تلك المعركة وهزيمته، أثنت السلطان بركياروق عن الانتقام لمقتل قسيم الدولة آق سنقر الحاجب - نائبه على حلب - على يد قوات عمه تتش في ربيع الآخر من السنة الماضية ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، وكان من حسن حظ طغتكين - الذي أسر في تلك المعركة - فقد قبل بركياروق تبادل الأسرى. وكما أسلفنا، فبينما كان طغتكين في الأسر، تمكن شمس الملوك دقاق بن السلطان تتش أن يتولى أمر دمشق بالتعاون مع نائب أبيه هناك ساوتكين الخادم دون علم أخيه الأكبر فخر الملوك رضوان، وهكذا استغل دقاق عن أخيه الأكبر الملك رضوان في حكم مملكة دمشق (٨). وعندما أطلق السلطان بركياروق سراح طغتكين في ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، عاد طغتكين الى مدينة دمشق حيث احتفى به الملك دقاق، وأقره على منصبه السابق منذ أيام حكم والده تتش كإسفهسلار لجيش دمشق.

وسواء كان زواج طغتكين من أم الملك دقاق، كان قبل أسره من قبل بركياروق كما يشير المؤرخ ابن الأثير أو كان بعد إطلاق سراحه، كما يوضح ابن القلانسي، فإن هذه المسألة ليست ذي بال، وأهم ما في هذه المسألة ان طغتكين بقدومه بعد إطلاق سراحه - إلى دمشق أصبح الحاكم غير الرسمي في هذه المملكة، خاصة بعد أن تخلص من منافسه ساوتكين الخادم بتآمره مع سيده دقاق في نفس السنة، وهكذا تمكن طغتكين من إصلاح الوضع في دمشق وتوطيد نفوذه هناك (٩).

ويبدو أن التنافس بين الأخوين رضوان ودقاق، اضطر طغتكين للتورط في ذلك الصراع، فلم يحتمل رضوان انفراد أخيه في حكم مملكة دمشق، ولهذا زحف سنة ٤٩٠هـ/١٩ ديسمبر ١٠٩٦م، ومعه أتابكه جناح الدولة حسين صاحب حمص بعسكريهما لأخذ مدينة دمشق، وفي طريقهما لدمشق، أتتهما الأخبار بأن ياغسيان

بن محمد التركماني ـ صاحب أنطاكية ـ أسرع لنجدة حليفه الملك دقاق وأتابكه طغتكين، ولهذا اضطرا للانسحاب جهة بيت المقدس للاحتماء بحليفهما سقمان بن أُرتق صاحب بيت المقدس، إلا أن مطاردة قوات دمشق لقوات حلب وحمص منعتهم من الاحتماء ببيت المقدس، مما اضطر رضوان وأتابكه الى الفرار الى مدينة حلب، وإنفل أكثر عسكريهما (١٠).

وتقدمت قوات رضوان وأتابكه جناح الدولة حسين في تلك السنة للهجوم على ياغسيان في أنطاكية، ويبدو أنهما فعلا ذلك انتقاما لتحالفه مع منافسيهما دقاق وطغتكين، الا أنهما اضطرا من جديد للانسحاب، عندما شعرا بأن قوات دمشق بزعامة دقاق وطغتكين في طريقهما لنجدة حليفهما ياغسيان صاحب أنطاكية (١١). إلا أنه يبدو أن رضوان لم ييأس من محاولاته هذه، فطلب المساعدة هذه المرة من سليمان بن آيلغازي بن أُرتق صاحب سموساته بالاضافة الى قوات بيت المقدس بقيادة سُقمان بن أُرتق، وزحفوا جميعا جهة مدينة دمشق. إلا أنه يظهر أن قوات دمشق بقيادة دقاق وطغتكين وحليفهما ياغسيان ـ صاحب أنطاكية ـ كانت قد سبقت القوات المنافسة واتجهت جهة حلب، وقد قرر الطرفان المتنافسان ـ عند نهر القويق القريب من مدينة حلب ـ التفاوض والوصول الى تسوية لحقن الدماء، إلا أن هذه المساعي فشلت، والتقى الخصمان في ذي الحجة ٤٨٨هـ/ ٣ ديسمبر ١٠٩٥م، وحلت الهزيمة بقوات دمشق وحليفها صاحب أنطاكية، وكان لسقمان بن أُرتق ـ صاحب بيت المقدس ـ دوراً فعّالا في هذا الانتصار الذي حققته قوات حلب في دمشق، وهربت في أعقاب الهزيمة قوات دمشق مع قوادها إلى دمشق، وكما هربت قوات أنطاكية مع قائدها ياغسيان إلى أنطاكية (١٢). واذا سلمنا بأن دقاق ـ بعد تلك الهزيمة ـ قد قبل ان يخطب لأخيه رضوان في دمشق وأنطاكية (١٣)، فهذا لا يعني أن مملكة دمشق دخلت فعليا تحت سيادة الملك رضوان صاحب مملكة حلب.

وواجهت الملك رضوان ـ صاحب حلب ـ في سنة ٤٩٠هـ/ التاسع عشر من ديسمبر ١٠٩٦م ـ مصاعب جمة كان أبرزها ثورة أتابكه عليه جناح الدولة حسين صاحب حمص، كما أن أخاه الملك دقاق صاحب دمشق لم يعترف بالتبعية له، وفي

تلك الأثناء استقبل رضوان رسولا من قبل الخليفة الفاطمي المستعلي أبو القاسم بن المستنصر أبو تميم ـ محملا بالهدايا النفيسة ـ وطالبا منه أن يخطب للخليفة الفاطمي، وهذا الإجراء يعني اعتراف رضوان بالسيادة الفاطمية على مملكته، وبالمقابل وعده الرسول بمساعدات عسكرية ومالية لضم مملكة دمشق له. ويبدو أن رضوان قد أعماه حقده على أخيه دقاق وأتابكه جناح الدولة حسين الثائرين عليه، فقبل هذا العرض دون دراسة عواقب هذا الأمر الخطير، الا أنه اضطر بعد عدة أسابيع أن يغير رأيه تحت ضغط قواد عسكره وحلفائه من التركمان السنة خاصة ياغسيان صاحب أنطاكية، الذين رفضوا أن يكونوا تحت إمرة ملك تابع للخلافة الفاطمية الاسماعيلية المناهضة للخلافة العباسية السنية في بغداد، وبهذا أعاد رضوان الخطبة للخلافة العباسية (١٤). وهكذا نرى إلى أى مدى كانت الأخطار المحدقة تحف بمملكة دمشق من كل مكان حتى أتت هذه المرة من الدولة الفاطمية التي كانت قبل حوالي اثنين وعشرين سنة فقط أي عام ٤٦٨هـ/١٠٧٦م تسيطر على دمشق.

وفي نفس السنة أي ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، وبينما كانت جحافل القوات الصليبية الغازية بأعداد هائلة تزحف قادمة من آسيا الصغرى ـ بعد انتصاراتها على سلاجقة الروم المسلمين ـ في طريقها لحصار مدينة أنطاكية في شمال مدينة بلاد الشام، كان الملك رضوان مع حليفيه ياغسيان ـ صاحب أنطاكية نفسها ـ وسقمان بن أرتق ـ صاحب بيت المقدس ـ في طريقهما لاستعادة حمص من أتابكه جناح الدولة حسين، وكان أمرا طبيعيا أن يطالب ياغسيان ـ صاحب أنطاكية ـ أن تقوم الجيوش المتحالفة مجتمعة لنجدة عاصمته أنطاكية، إلا أن سقمان صاحب بيت المقدس اعترض على هذا الطلب، وطالب بالمقابل بأن تقوم القوات المتحالفة جميعا أولا بالاستيلاء على حمص ثم الزحف لإنقاذ أنطاكية، ويظهر من سير الأحداث، أن المسلمين بما فيهم مسلمي بلاد الشام لم يقدروا حقيقة التهديد الصليبي عليهم، رغم أن الهدف المعلن للحملة الصليبية الاولى هو احتلال الصليبيين للأماكن المقدسة عند النصارى في فلسطين خاصة بيت المقدس التي كانت إقطاعاً لسقمان بن أرتق

الذي رفض عرض ياغسيان صاحب أنطاكية لمواجهة الخطر الصليبي بأقصى سرعة ممكنة قبل أن يستفحل، وكأن الخطر الصليبي كان في انتظار القوى الاسلامية المتصارعة في بلاد الشام من الانتهاء من خلافاتها الداخلية المعقدة حتى يدعوها فيما بعد للتفرغ لمواجهته، وعلى أية حال فإن هذا الخلاف بين ياغسيان وسقمان أغاظ الملك رضوان، مما اضطره للرجوع بعسكره لعاصمته حلب، ثم أسرع ياغسيان بعسكره لتحصين مدينته أنطاكية، كما بعث أبنائه مستنجدا بالملك دقاق وأتابكه طغتكين ووثاب بن محمود زعيم بني كلاب آخر بقايا المرداسين، كما طلب النجدة من خصمه السابق جناح الدولة حسين صاحب حمص، وهنا يبدو أن ياغسيان أدرك أن الصراعات بين القوى الاسلامية في بلاد الشام لن تمنعهم من الوقوف صفا واحدا ضد الخطر القادم من الغرب الصليبي الحاقد الذي أتى ليأكل الأخضر واليابس، كما أرسل ياغسيان أحد أبنائه لطلب المساعدة من التركمان وكربوقا صاحب الموصل وغيرهم من القوى الاسلامية في الشرق لمناشدتهم لنجدة أنطاكية (١٥).

ويظهر أن ياغسيان اكتشف أن الملك رضوان لم يكن جادا في مساعدته لمواجهة القوات الصليبية الكبيرة المتوجهة لفرض الحصار على عاصمته أنطاكية وهي المدينة الثانية في شمال بلاد الشام بعد حلب في الأهمية آنذاك، ولا تعطينا المصادر التاريخية المعاصرة ما يفيد بأن ياغسيان طلب من حليفه رضوان نجدة لهذا الغرض، وكأن ياغسيان أدرك أن لعبة التحالف التي عرفت عنه وذلك بتحويل تحالفه السابق مع الملك دقاق صاحب دمشق الى أخيه رضوان صاحب حلب - لم تكن لصالحه ولهذا سنراه يدفع الثمن غاليا. ووفقا لرواية ابن الأثير فإنه خلال حصار الصليبيين لأنطاكية، أرسلت قوات الحملة الصليبية رسالتين لكل من رضوان - صاحب حلب - ودقاق - صاحب دمشق - لتعلمهما بأن مملكتهما حلب ودمشق لن تكونا هدفا لحملتهم، حتى يثنيهما عن مساعدة ياغسيان صاحب أنطاكية (١٦) وهكذا طبق الأجداد سياسة (فرق تسد) قبل الأحفاد بأكثر من ثمانية قرون والتي سيطبقها الاستعمار الحديث عندما يستعمر الشعوب المغلوبة على أمرها خاصة في عالمنا الاسلامي. وبينما كانت أنطاكية محاصرة من قبل القوات الصليبية، أرسلت هذه

القوات فرقة تقدر بثلاثين ألف رجل لنهب وسلب الأراضي الزراعية حول حلب وذلك لتوفير الكلأ والغذاء لقواتها الكبيرة التي عانت من شبح المجاعة والتي يقدر عددها بأكثر من ثلاثمائة ألف مقاتل، وعندما وصلت هذه الفرقة منطقة الباره ـ الواقعة على بعد حوالي خمسة عشر ميلا شمالي مدينة أفامية ـ قتلوا خمسة عشر مسلما هناك، إلا أنهم التقوا أخيرا بقوات دمشق بقيادة الملك دقاق وأتابكه طغتكين التي أتت مجيبة لمناشدة حاكم أنطاكية، ووفقا لرواية بن القلانسي اقتربت القوات الدمشقية من الفرقة الصليبية وهاجمتها وقتلت بعض أفرادها، ولهذا اضطرت هذه الفرقة الصليبية للتراجع الى الروج وهو إقليم على بعد أميال قليلة من غرب مدينة حلب، واتجهت القوات المنسحبة إلى مدينة أنطاكية لتجتمع من جديد مع الجيش الصليبي الرئيسي الذي لازال محاصرا لهذه المدينة (١٧)، ووفقا للرواية التاريخية الأرمنية التي يذكرها المؤرخ الأرمني المشهور متى الرهوي فإن قوات دمشق تلك ـ التي واجهت الفرقة الصليبية ـ كانت بقيادة طغتكين والتي يقدرها بثلاثين ألف، أما عدد الفرقة الصليبية تلك فكانت تقدر بسبعة آلاف بقيادة الدوق جود فري القائد الرئيسي في الحملة الصليبية الاولى، ويؤكد متى الرهوي أن الدوق جود فري هذا كاد أن يُقتل على يد طغتكين عندما رمى طغتكين نفسه عليه وأسقطه من فرسه وطعنه في صدره، إلا أنه لم ينجح في خرق درعه فهرب جود فري ونجى من الموت، إلا أن رواية متى الرهوي تناقض رواية ابن القلانسي في نتائجها فهو يرى ـ أي متى الرهوي ـ أن القوات الدمشقية إنهزمت وولت مدبرة الى بلدها، ولهذا عادت القوات الصليبيةالى معسكرها حول أنطاكية المحاصرة (١٨).

وفي ربيع الآخر ٤٩١هـ/ فبراير ١٠٩٨م ـ بينما كان الصليبيون يحكمون الحصار على أنطاكية ـ تمكن أحد قواد الحملة الصليبية الأولى ويدعى بلدوين صاحب بولون من إقامة أول كونتيه صليبية في الشرق عرفت بكونتيه الرها في اقليم الجزيرة الفراتية، فقد تمكن هذا القائد الصليبي مع قواته القليلة التي تقدر بحوالي مائتي فارس من دخول مدينة الرها بناء على طلب ملكها ثوروس الأرمني، وقد تبنى هذا الملك ـ الذي حرم من الأبناء ـ هذا القائد الصليبي واتخذه ابنا له، ولم ينتظر بلدوين البولوني وفاة متبنيه حتى يحوز على حكم الرها، بل تآمر مع الأرمن على ملكهم

وقتلوه وأصبح حاكما لأول كونتية صليبية في الشرق. وبهذا تمكن الصليبيون بالغدر من إقامة هذه الكونتية الصليبية في المشرق بسهولة دون خسائر تذكر (١٩). وعندما وصلت الأخبار إلى القوات الإسلامية بقيادة كربوقا صاحب الموصل والقوات المتحالفة معها ـ وأهمها قوات دمشق بقيادة دقاق وأتابكه طغتكين، وقوات حلب وحمص وغيرها ـ بأن أنطاكية قد سقطت في أيدي القوات الصليبية وذلك بتواطىء أحد زعماء الحملة الصليبية الأولى ويُدعى بوهيموند بن جويسكارد النورماندي مع أحد متحفظي إحدى بوابات أنطاكية المعروف بابن فيروز، أسرعت هذه القوات لتخليص المدينة من الصليبيين، وفي أثناء زحفهم لإنقاذ أنطاكية، أُخبروا بأن قلعة أنطاكية مازالت صامدة لم تسقط في يد القوات الغازية، وفعلا نجحت القوات الإسلامية في الوصول مساء اليوم الثاني الذي أُخذت فيه أنطاكية، بعد مذبحة مروعة ارتكبها الصليبيون ضد المسلمين في هذه المدينة، التي صمدت أكثر من تسعة أشهر تقاوم الغزوة الهمجية التي جاءت من الغرب الصليبي المتخلف لتعبر عن حقيقة كرهها للإسلام وأهله. قام الصليبيون بإغلاق أبواب المدينة عليهم وأصبحوا محاصرين من قبل القوات الاسلامية حول أنطاكية وكذلك حامية قلعة أنطاكية بعد أن كانوا هم المحاصرين لأنطاكية وأهلها لمدة تسعة أشهر، وقد اضطر الصليبيون من شدة الهجمات الاسلامية عليهم أن يبنوا حائطا ليمنع عنهم تلك الغارات، إلا أن هذا لم يمنع عنهم خطر المجاعة التي بدأت تكشر عن أنيابها لهم بعد أن حصروا هم أنفسهم داخل هذه المدينة دون أن يوفروا لهم الغذاء الكافي، (٢٠) ويبدو أن سياسة الأرض المحروقة التي اتبعها المسلمون خاصة ياغسيان لمنع القوات الغازية من توفير الغذاء لها ولمواشيها كان لها تأثير كبير في إضعاف القوى الصليبية وتشتيت جهدها وإشغالها في توفير الغذاء لهذه الأعداد الكبيرة، التي قدرت بثلاثمائة ألف مقاتل عن هدفها الرئيسي وهو القتال.

على أي حال، يبدو أن جو عدم الثقة المشتركة الذي كان سائدا آنذاك بين القادة المسلمين في الشام والجزيرة استمر خلال الحملة الإسلامية المتحالفة المشتركة لمحاولة تدارك سقوط أنطاكية، فرغم التهديد الصليبي الكبير لهم جميعا فقد كانت المراسلات المستمرة بين الملك رضوان ـ صاحب حلب ـ وكربوقا ـ صاحب الموصل ـ

الذي أقام علاقات قوية مع رضوان ـ العدو التقليدي لأخيه الملك دقاق صاحب دمشق وأتابكه طغتكين ـ أدت هذه المراسلات إلى تخوف دقاق وأتابكه من أن تكون تلك العلاقات الوطيدة بداية لتحالف الموصل وحلب ضد دمشق، اضافة الى ذلك تخوف جناح الدولة حسين ـ صاحب حمص وأتابك الملك رضوان السابق ـ من أحد منافسيه الذي شارك في تلك الحملة الإسلامية لإنقاذ أنطاكية وهويوسف بن أبق صاحب الرحبة، كما كان عدم الانضباط سمة واضحة لهذه الحملة ولهذا نرى متطوعة التركمان وكذلك متطوعة العرب بقيادة وثاب بن محمود زعيم بني كلاب يغادرون الحملة الي بلادهم دون أخذ إذن مسبق من قائد الحملة كربوقا، وعلى أية حال، وجد الصليبيون ـ غرة رجب ٤٩١هـ الموافق ٥ يونيو ١٠٩٨م ـ أن امامهم خيارين لا ثالث لهما إما الخروج لقتال المسلمين خارج أنطاكية أو الموت جوعا داخل المدينة. وعندما بدأت القوات الصليبية بمغادرة المدينة وهم يشكلون صفوف القتال قام كربوقا بمنع القوات الاسلامية من الهجوم على القوات الصليبية حتى يكتمل خروج كل قوات الصليبية، وعندما خرجت كل القوات الصليبية واستعدت للقتال، هاب كربوقا كثرة أعدادهما، فهرب التركمان دون ان يشاركوا في قتال حقيقي، ثم فر كربوقا وتبعه دقاق وأتابكه طغتكين منهزمين، ولم تتعقب القوات الصليبية القوات الفارة ظنا منها أن المسلمين يدبرون كمينا لهم، ولهذا دخلوا المدينة من جديد واستلموا قلعة أنطاكية صلحا من المتحفظ عليها يوم السادس من رجب ٤٩١هـ الموافق الحادي عشر من يونيو ١٠٩٨م [٢١]. وبهذا سقطت أنطاكية التي كانت تعد واحدة من أحصن المدن الاسلامية في شمال بلاد الشام إن لم تكن هى أحصنها على الإطلاق في ذلك الوقت، وبهذا أقام الصليبيون من هذه المدينة والمناطق المتاخمة لها إمارة صليبية فكانت الثانية في الترتيب بعد الرها التي سبقتها بثلاثة أشهر فقط، ونال حكم هذه الامارة بوهيموند بن جويسكار النورماندي الذي كان له دور كبير في الاستيلاء على هذه المدينة.

وليس هناك شك أن الشقاق الذي وقع بين القادة المسلمين الذين تزعموا حملة نجدة أنطاكية كان العامل الرئيسي في فشلهم إنجاز مهمة المحافظة على سيادة أنطاكية الاسلامية، كما انه كان من المفروض ان تتعاون الخلافة العباسية المتمثلة بسلاطين

السلاجقة مع الخلافة الفاطمية المتمثلة بالوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي ضد الخطر المشترك لهم، إلا أن الحسد أعمى الفاطميين عن هذه الحقيقة فعرضوا التحالف مع الصليبيين واقتسام بلاد الشام بينهما بحيث يستأثر الصليبيون بشمال الشام (مملكة حلب بما فيها أنطاكية) بينما يستحوذ الفاطميون على جنوب الشام أي مملكة دمشق. ولو قدر نجاح فكرة التحالف الصليبي الفاطمي لكان مصير مملكة دمشق وكذلك مملكة حلب على خطر عظيم، ولغير هذا التحالف تاريخ بلاد الشام بصورة شاملة ولتغير مسار الحروب الصليبية ذاتها. وبينما الخطر الصليبي يزداد ويتعاظم على بلاد الشام نرى ان الدولة الفاطمية كانت تسبح في طريق يتجه عكس تيار جهاد هؤلاء الغزاة الصليبيين.

وقام جيش فاطمي - بعد شهر من سقوط أنطاكية - بقيادة الوزير الفاطمي الافضل بن بدر الجمالي بالزحف على فلسطين لاستعادتها من الأراتقة التابعين للسلاجقة السنة، ولم يستطع الأراتقة - كان يقودهم آنذاك أرتق بن سقمان وأخوه أيلغازي مع قواتهما من التركمان الحفاظ على اقطاعاتهما هناك التي منحها لهما السلطان تتش بن ألب أرسلان، وهكذا استعاد الفاطميون بيت المقدس وبقية فلسطين بعد خروجها من سيادتهم أكثر من عشرين سنة منذ سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م. (٢٢) وبالرغم أن حصار الأفضل لبيت المقدس استمر أربعة أسابيع، (٢٣) إلا أن المصادر التاريخية لم تشر فيما إذا قام سقمان بن أرتق - صاحب بيت المقدس - بطلب المساعدة سواء من دمشق أو ضرتها حلب، إلا أنه يبدو للعيان بأن كلا المملكتين دمشق وحلب لم تكونا في وضع يسمح لهما بحماية بيت المقدس من الخطر الصليبي الوشيك خصوصا إذا علمنا أن الهدف الرئيس المعلن للحملة الصليبية الأولى هو الاستيلاء على هذه المدينة المقدسة، فلو قدر لهما في أحسن الاحوال منع سقوط بيت المقدس في أيدي الفاطميين فإن هذا لن يُنجي هذه المدينة من السقوط في أيدي القوات الصليبية التي أتت بأعداد كبيرة تفوق الحصر.

واصل الصليبيون حملتهم، ففي الرابع عشر من محرم سنة ٤٩٢هـ/ الموافق ٢٨ نوفمبر ١٠٩٨م تمكنوا من أخذ معرة النعمان بالأمان وهي مدينة كبيرة على الطريق

بين حلب وحماه، إلا أن الصليبيين غدروا بأهلها وأعملوا فيهم السيف بعد أن أعطوهم الأمان والأيمان، ثم تقدموا نحو مدينة بيت المقدس في أواخر شهر رجب من نفس السنة، وقد تمكنوا من انتزاع المدينة المقدسة في الثاني والعشرين من شعبان سنة ٤٩٢هـ/ الموافق ١٤ يوليو ١٠٩٩م بعد حصار امتد أربعة أسابيع فقط قبل وصول نجدة الوزير الفاطمي الأفضل. وقد ارتكب الصليبيون في المدينة المقدسة مذبحة أصبحت حديث كل العصور، وحتى يهود بيت المقدس نكبوا بهذه الكارثة فأحرقوا كما تُشوى الشياه، ولم يستثن الصليبيون من القتل والحرق سوى النصارى. (٢٤) ولا يستبعد بأن مذابح الصليبيين، في معرة النعمان وبيت المقدس التي ذهب ضحيتهما عشرات الألوف كان لها رد فعل كبير على أسلوب تعامل المسلمين مع أعدائهم الصليبيين، وسوف نرى فيما بعد كيف ان المسلمين سوف يثأرون لهذه المذابح.

من المؤكد أن النصر الكبير الذي حققه الصليبيون في عسقلان في الرابع عشر من رمضان سنة ٤٩٢هـ/ الموافق ١٤ اغسطس ١٠٩٩م على القوات الفاطمية بزعامة الوزير الأفضل أكد تفوقهم في فلسطين، خصوصا أن الأفضل وقواده فروا الى مصر بعد تلك الهزيمة المنكرة وتركوا مدينة عسقلان، وهي أهم ميناء استراتيجي على الساحل الشامي لتواجه مصيرها المجهول، إلا أن الصليبيين قبلوا عرض أهل عسقلان بفك الحصار عن مدينتهم مقابل دفع جزية لهم تقدر بعشرين ألف دينار، ويذكر ابن القلانسي أن قوات الأفضل التي منيت بالهزيمة من قبل الصليبيين كانت تقدر بعشرة آلاف رجل، وكانت خسائرهم في الأرواح تقدر بألفين وسبعمائة رجل. (٢٥) ومما لاشك فيه أن النجاحات السريعة التي حققها الصليبيون في إقامة إمارات في كل من بيت المقدس وأنطاكية والرها ومحاولاتهم الدائبة لإقامة إمارة رابعة على أراضي منطقة طرابلس جعلت التهديد الصليبي المفروض على كل المسلمين في بلاد الشام بما فيها مملكة دمشق حقيقة لا يمكن التقليل من خطورتها.

وفي صفر ٤٩٣هـ / في ١٨ ديسمبر ١٠٩٩م، زحفت قوات مملكة دمشق بقيادة الملك دقاق نحو ديار بكر لإخضاع أرتاش - حاكم مدينة ميّافارقين - الثائر على سيده

دقاق، وكما هو معروف، أن هذه المدينة من أهم مدن ديار بكر إن لم تكن أهمها على الاطلاق في ذلك الوقت، واستطاع دقاق أن يعيد النظام والاستقرار لهذه المدينة وأن يخضعها من جديد إلى سيادة مملكته، وعاد لدمشق في غرة شوال السنة التالية الموافق ١١٠٠/١١/٦م، والملفت للنظر أنه رغم خطورة التهديد الصليبي لمملكة دمشق وبلاد الشام عامة في تلك الأثناء إلا أن ذلك لم يمنع مملكة دمشق من المحافظة على سيادتها على تلك المنطقة البعيدة جدا عن الحدود الجغرافية للمملكة. إلا أن مملكة دمشق ستفقد فيما بعد مدينة ميافارقين - وهي المدينة الوحيدة في ديار بكر في ذلك الحين التي كانت لاتزال تحت سيادة مملكة دمشق، لهذا لم يعد لمملكة دمشق أية إقطاعات في ديار بكر.

لقد نكب المسلمون في الجزيرة الفراتية بهزيمة كبيرة جديدة على أيدي صليبي الرها، ففي ربيع الأول ٤٩٤هـ/ ١١٠١/١/٤م حقق صليبيو الرها نصراً على الأمير سقمان بن أرتق صاحب سروج (صاحب بيت المقدس سابقا)، وتمكنوا من الاستيلاء على سروج نفسها وهي مدينة على أحد أفرع نهر الفرات على بعد حوالي ثمانية أميال من مدينة الرها، ،وضُمت تلك المدينة لكونتية الرها. (٢٦) وفي شعبان ٤٩٤هـ/ مايو ١١٠١م، وبينما كان الملك دقاق متواجدا في ديار بكر لاخضاع والي ميافارقين المتمرد عليه - كما سبق ذكره - تلقى أتابكه ونائبه في دمشق طغتكين عرضا من قاضي مدينة جبلة المعروف بابن صليحة بضم جبلة لمملكة دمشق، فقبل طغتكين هذا العرض دون تردد وضم مدينة جبلة الساحلية الواقعة جنوب ميناء اللاذقية إلى مملكة دمشق. وكان ابن صليحة قد حكم هذه المدينة مستقلا عن إمارة طرابلس التي كان يحكمها آنذاك ابن عمار، وتمكن هذا القائد المغامر من إحباط أربع محاولات من قبل الصليبيين لأخذ مدينته، ويبدو ان مواقفه المشرفة ضد الصليبيين - اذا ما قورنت بمقاومة القوى الاسلامية الكبيرة في بلاد الشام كمملكة حلب أو إمارة طرابلس أو شيزر - تعد أعمالا فذة تسجل لصالح سجل الجهاد الإسلامي ضد الغزو الصليبي في مراحله المبكرة. وعلى أية حال، وعلى الرغم من بطولة هذا القائد مع قلة إمكاناته وعدته، إلا أنه إقتنع بأن الصليبيين

لن يتركوه ينعم بحكم هذه المدينة الساحلية رغم فشل محاولاتهم الأربع السابقة، ولذلك كتب لطغتكين يدعوه لتسلم مدينته، ويظهر أن ابن صليحة كان مدركا بأن مملكة دمشق هي القوة الإسلامية الوحيدة التي ممكن أن تحمي جبلة من السقوط، كما أن هذا التصرف يبرز لنا أهمية مملكة دمشق في الجهاد ضد الصليبيين والذي كان أبرز من دور مملكة حلب. وبينما كان ابن صليحة في مدينة دمشق، عرض امير طرابلس ابن عمار الذي كان يحتفظ بعلاقة جيدة مع طغتكين ـ أن يسلمه طغتكين ابن صليحة الذي خرج عن طاعته عندما كان واليه على هذه المدينة، مقابل ان يدفع له رشوة كبيرة قدرها ثلاثمائة ألف دينار، الا أن طغتكين رفض أن يغرر بابن صليحة الذي وثق به وسلمه مدينته وأمنه على نفسه،ولاشك أن هذا التصرف الحكيم الذي ينم عن أمانة طغتكين ووفائه بوعوده سيمكنه من كسب حلفاء جدد في المستقبل،(٢٧) إلا أن والي جبلة الجديد وهو تاج الملوك بوري بن طغتكين أساء حكم هذه المدينة، وهذا التصرف غير المسؤول كما يذكر ابن القلانسي لم يكن من عادة مملكة دمشق في ذلك الوقت، وعلى أية حال، كتب أهل جبلة إلى ابن عمار ـ صاحب طرابلس ـ يعرضون عليه تسليم مدينتهم له، وفعلا تسلم ابن عمار جبلة، وقبض على بوري ثم أرسله إلى أبيه طغتكين في مدينة دمشق وأعلمه ملابسات هذا الأمر، وأوضح له أنه لو ترك جبلة تحت ولاية ابنه بوري لكان سقوطها أمرا محتوما بيد الصليبيين (٢٨).

كما أسلفنا كان الغزاة الصليبيين يناضلون لإقامة إمارة لهم على أنقاض إمارة طرابلس ولم ييأسوا من نيل مرادهم، ففي أواخر جمادى الآخرة ٤٩٥هـ/ أواخر ابريل ١١٠٢م تلقى طغتكين طلباً من ابن عمار ـ صاحب طرابلس ـ يناشده المساعدة ضد الخطر الصليبي الوشيك على عاصمة طرابلس من قبل ريموند صاحب سانت جيل الذي كان يسعى للاستيلاء على هذه المدينة ليجعلها عاصمة لإمارته المرتقبة في طرابلس، ولبى طغتكين هذا النداء بسرعة وأرسل ألفى مقاتل من عسكر دمشق للانضمام لقوات حمص بقيادة جناح الدولة حسين، واحتشدت تلك القوات في أنطرطوس الساحلية الواقعة على بعد حوالي خمسة أميال جنوب مرقية، ووفقا لرواية ابن الاثير كانت القوات الصليبية تقدر بثلاثمائة رجل، إلا أن أحد

المؤرخين المحدثين وهو عمر تدمري يعتقد بأن مساعدة نصرانية إضافية أتت للقوات الصليبية كانت متمثلة بماروني جبل لبنان المستوطنين حول مدينة طرابلس . (٢٩) وعموما حلت هزيمة كبيرة بقوات دمشق وحمص، وهربت قوات دمشق منذ بداية القتال فتبعها قوات حمص، وبهذا استولى الصليبيون على مدينة أنطرطوس التابعة لإمارة طرابلس بسهولة. (٣٠) ويبدو أن عدم خروج طغتكين نفسه ـ الخبير في قتال الفرنجة لقيادة النجدة الدمشقية في هذه المهمة ـ سببا رئيسا في هذا الفشل الذريع.

رغم انشغال مملكة دمشق بالخطر الصليبي الذي يتهددها وباقي الإمارات الاسلامية في بلاد الشام كمملكة حلب وإمارة طرابلس وإمارة شيزر، إلا أن هذا لم يثنها عن المحافظة على إقطاعاتها وممتلكاتها البعيدة عن حدودها كمدينة الرحبة التي تبعد عن مدينة دمشق أكثر من ألف كيلو متر، ففي جمادي الآخرة من سنة ٤٩٦هـ/ ١٣ مارس ١١٠٣م، تمكن الملك دقاق وأتابكةطغتكين من إخضاع مدينة الرحبة التي ثارت على سيادة مملكة دمشق في تلك الأحيان، والرحبة هذه مدينة استراتيجية تقع على نهر الفرات على الطريق الرئيس بين العراق وبلاد الشام، وهي أول نقطة استراحة للمسافرين من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام وكان الذي يتمكن آنذاك من السيطرة على هذه المدينة يستطيع التحكم بشمال الشام، وقد إستبد بحكمها في تلك الأثناء مملوك تركي يقال له حسن، أعلن استقلاله عن مملكة دمشق في هذه المدينة وقتل الموالين لدمشق الذين رفضوا الانضمام لثورته، لذلك قامت مملكة دمشق بإعادة فرض سيادتها على هذه المدينة الاستراتيجية رغم بعدها الشاسع عن مملكة دمشق (٣١).

سنحت تلك السنة فرصة لمملكة دمشق لضم مدينة مهمة لها، ففي شعبان ٤٩٦هـ/٢ يونيو ١١٠٣م، كتب أهل حمص الى طغتكين طالبين منه تسلم مدينتهم، وجاء هذا الطلب بعد أن وصلت الحالة في حمص إلى حافة الهاوية خصوصا بعد مقتل حاكمها جناح الدولة حسين ـ والذي كان يحكمها مستقلا عن مملكة حلب ـ على يد الباطنية هناك، وسوف نتطرق لموضوع الباطنية بنوع من التفصيل في الفصل الثالث إن شاء الله. على أية حال أسرع طغتكين إلى مدينة حمص وتسلمها قبل أن

تصل جحافل الصليبيين بقيادة ريموند صاحب سانت جيل للاستيلاء على هذه المدينة المهمة في بلاد الشام، وهكذا رجع الصليبيون بخفي حنين وضمت مدينة حمص إلى مملكة دمشق للمرة الأولى.(٣٢) ويبدو أن الظروف هيأت لمملكة دمشق ضم مدينة حمص، فكانت القلاقل الداخلية في المدينة والخطر الصليبي الداهم عليها من العوامل الرئيسة للاسراع في ضم هذه المدينة الكبيرة المهمة لمملكة دمشق.

نعود الآن للحديث عن العلاقات الدمشقية الفاطمية وأهمية هذه العلاقات لحركة الجهاد ضد الصليبيين، ففي رمضان ٤٩٦هـ/ ٩ يونيو ١١٠٣م، أرسل الوزير الفاطمي الأفضل أسطولا وجيشاً إلى مدينة يافا الساحلية التابعة للفاطميين بقيادة ابنه شرف المعالي حسين، ثم كتب إلى طغتكين يناشده التعاون مع هذه القوات الفاطمية ضد الغزاة الصليبيين، ورغم أن طغتكين كان اسميا تحت سيادة الدولة العباسية السنية إلا أنه كان يرى أن قضية جهاد الصليبيين لا توقف تعاونه وتحالفه مع فاطميي مصر أعداء الدولة العباسية،ولذلك قبل طغتكين هذه المناشدة، وأمر قواته الدمشقية بالزحف نحو يافا للانضمام إلى القوات الفاطمية، ويبدو أن طغتكين وجد أنها فرصة سانحة لتكوين تحالف مع الفاطميين ضد الصليبيين، ويعد ذلك تطوراً مهما في العلاقة بين دمشق ومصر الفاطمية خاصة إذا علمنا أن الفاطميين (الإسماعيلية) كانوا قبل سبع سنين مضت يعرضون على الصليبيين التحالف ضد منافيسهم السلاجقة السنة واقتسام بلاد الشام فيما بينهم كما سبق ذكره، وقد كانت دمشق ضمن المطامع الفاطمية خلال تلك المفاوضات (المؤامرات) الصليبية الفاطمية والتي فشلت بحمد الله، وعلى أية حال فقد حدثت أمور في تلك الأثناء أعاقت رحيل القوات الدمشقية إلى يافا. ولم يصرح ابن القلانسي - وهو المؤرخ الوحيد الذي ذكر هذه الحادثة - بالأسباب التي أعاقت هذا التحالف، وعموما نجحت القوات الصليبية في تلك الأثناء في الاستيلاء على ميناء يافا المهم، ويظهر أن تأخر طغتكين عن إرسال نجدة للفاطميين كانت عاملا مهما في تسهيل سقوط هذا الميناء الاستراتيجي بيد القوات الصليبية.(٣٣)

ثم قامت قوات بيت المقدس الصليبية في شعبان ٤٩٧هـ/ ٢٩ ابريل ١١٠٤م، بقيادة ملكها بلدوين الأول باحتلال ميناء عكا التابع للفاطميين دون أدنى مقاومة، فقد فر منها واليها الفاطمي المعروف بزهر الدولة بنا الجيوشي إلى مدينة دمشق ثم الى مصر وترك مدينته تواجه مصيرها وحدها، وارتكب الصليبيون كعادتهم مذابح ضد اهاليٍّ هذه المدينة. (٣٤) ويبدو أن ضم مملكة بيت المقدس هذا الميناء الرئيس في فلسطين ساعد على تحقيق تفوق القوات البحرية الصليبية على الملاحة في شرقي حوض البحر المتوسط خصوصا بعد استيلائهم في السنة الماضية على ميناء يافا كما سبق ذكره. ولا شك أن هذا التفوق الصليبي أضعف موقف المسلمين الدفاعي في بلاد الشام بما فيهم مملكة دمشق التي فقدت تجارتها البحرية مع الفاطميين، والتي كانت تسيّرها قبل تحقيق هذه السيادة الصليبية. وبهذا أصبح الطريق البري هو الطريق الوحيد لتجارتها مع مصر التي كانت المصدر الرئيس للتبادل التجاري للمملكة، وهذا الطريق البري يمر عبر أراضي يسيطر عليها صليبيو بيت المقدس مما أدى الى تهديد تجارة دمشق، كما أن تكلفة النقل البري كانت أكبر من النقل البحري مما سيضعف الموارد الاقتصادية لهذه الامارة التي كان يتهددها الخطر الصليبي.

في الثاني عشر من رمضان ٤٩٧هـ/ الموافق ٨ من يونيو ١١٠٤م توفي الملك دقاق بن تاج الدولة تتش - ملك دمشق - بعد مرض استمر مدة طويلة، وقد أقنعت صفوة الملك ابنها الملك دقاق قبل وفاته بأن يمنح الإمارة لزوجها طغتكين الى أن يبلغ تتش بن دقاق سن الرشد، وكان يبلغ آنذاك من العمر سنة واحدة فقط. (٣٥) ويبدو أن طغتكين أصبح منذ ذلك الحين وصيا على ابن دقاق القاصر وحاكما لإمارة دمشق بسياسة الأمر الواقع (de facto)، ويمكننا أن نطلق كلمة إمارة على دمشق بدلا من تسميتها مملكة منذ تولي طغتكين رسميا أمور دمشق بعد وفاة الملك دقاق.

في نفس السنة شفى طغتكين من مرض خطير ألم به، ويبدو أن شفاءه من هذا المرض الخطير جعله يحرص كل الحرص على الحكم بالعدل والعفو عن الخارجين على طاعته وخصوصا أولئك الذين رأوا أن ولايته لإمارة دمشق كانت بالخديعة

وإقراراً لأمر واقع. وعموما تمكن طغتكين بهذا العدل والعفو عن المتمردين عليه من كسب قلوب كثير من مناوئيه، كما نعمت الإمارة بالأمن والرخاء بالمقارنة بوضعها السابق. (٣٦) وكان الملك دقاق قبل وفاته قد اعتقل أخاه أرتاش في مدينة بعلبك الواقعة في سهل البقاع التابعة لمملكة دمشق، ويبدو أن الملك دقاق كان متخوفا من ثورة أخيه عليه واستيلائه على زمام الأمور في مملكة دمشق، وبعد وفاة دقاق بثلاثة أشهر لم يكتف طغتكين بإطلاق سراح أرتاش وإكرامه، بل نصّبه ملكا لدمشق بدل ابن أخيه القاصر تتش بن دقاق في الخامس والعشرين من ذي الحجة ٤٩٧هـ/الموافق ١٨ سبتمبر ١١٠٤م. (٣٧) ويبدو أن طغتكين قد أخل بوصية الملك دقاق الذي أعطاه الوصاية على ابنه تتش ولم يخوله صلاحية تعيين أحد غيره.

وعلى أية حال، يبدو أن طغتكين نصب أرتاش ملكا على دمشق لكسب رضاء السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، الذي فيما يبدو أنه اتهم طغتكين بالاستبداد بإمارة دمشق، وذلك عن طريقَ وصايته على الملك القاصر تتش بن دقاق، دون أن يحصل على موافقة رسمية من السلطان محمد بن ملكشاه الحاكم الفعلي للسلطنة السلجوقية بما فيها إمارة دمشق. ووفقا لرواية ابن القلانسي حذرت والدة الملك أرتاش ابنها من تآمر طغتكين على قتله حتى ينفرد بحكم دمشق، وفعلا صدّق أرتاش اتهامات أمه، وهرب الى بعلبك ـ التي كان معتقلا فيها سابقا ـ حتى يجمع الرجال لقتال طغتكين، ولم يكتف أرتاش بحشد الرجال بل طلب عونا من أعداء اخوانه المسلمين صليبيي بيت المقدس بزعامة ملكهم بلدوين الأول ضد منافسه طغتكين، إلا أن بلدوين الأول لم يعط عهدا بتقديم العون لأرتاش.

على أية حال، زحف أرتاش بأعوانه إلى بصرى في اقليم حوران لطلب مساعدة واليها أيتكين الحلبي الخارج عن طاعة طغتكين، ومنها انطلقا الى الرحبة الثائرة على طغتكين ـ التي سبق أن ثارت كما سبق ذكره ايام الملك دقاق ـ لحشد قواتهم المتمردة ضد طغتكين. (٣٨)

وحدث في هذه الأثناء أن توفي الملك تتش بن دقاق في صفر ٤٩٨هـ/٢٢ اكتوبر ١١٠٤م، (٣٩) وبوفاة بن دقاق أصبح طغتكين حرا الآن في الاستبداد بإمارة دمشق،

وذلك أن الملك الشرعي قد توفي دون بديل آخر، وبينما كانت المؤمرات الداخلية تحاك ضد طغتكين من قبل الثائرين عليه تسلم رسالة من قائد قوات الفاطمية في عسقلان سناء الملك بن الأفضل طالبا المساعدة للقتال ضد الصليبيين. (٤٠) وبلا تردد أرسل طغتكين قوات تقدر بألف وثلاثمائة فارس من أفضل فرسان إمارة دمشق بقيادة إصبهبذ صباوة ،(٤١) وكما أسلفنا فإنه على الرغم من أن طغتكين كان يدين بالمذهب السني وهو المذهب الرسمي للخلافة العباسية وسلاطين السلاجقة، إلا أنه رأى أن التعاون مع الفاطميين في قضية مقاومة الخطر الصليبي فوق مسألة الخلاف المذهبي، كما أنه فيما يظهر رأى أن هذا التعاون مع الفاطميين سوف يعزز مصالح طغتكين في المناطق الخاضعة للسيادة الفاطمية في بلاد الشام والتي كانت مهددة بالسقوط بيد الصليبيين مثل صور وعسقلان وبيروت وغيرها، فليس من المستبعد أن تكون هذه المناطق الاستراتيجية مستقبلاً من حظ إمارة دمشق كما حدث بالنسبة لمدينة حمص التي تسلمتها دمشق سنة ٤٩٦هـ كما سبق ذكره، ويقدر ابن القلانسي الجيش الفاطمي في عسقلان بأكثر من عشرة آلاف مقاتل، ومن جهة أخرى يقدر ابن الأثير ذلك العسكر بخمسة آلاف بالاضافة إلى ألف وثلاثمائة رامي دمشقي، بينما قُدرت القوات الصليبية التي واجهتهم بألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف من الرجالة، والتقى العسكران قرب مدينة الرملة. ووفقا لفولشر صاحب شارتر - المؤرخ الصليبي المعاصر - تمكنت القوات الفاطمية من محاصرة القوات الصليبية بزعامة ملك بيت المقدس الصليبي بلدوين الأول، ويؤكد فولشر بأن متطوعي الدماشقة كان لهم دور فعال في خلخلة ترتيب القوات الصليبية بعد أن أمطرتها بسهامها أولا، ثم سلوا سيوفهم وأغمدوها في الصليبيين. ويبدو أن القوات الفاطمية لم يكن لها دور رئيس في تحقيق هذا الإنجاز، إلا أن بلدوين الأول استطاع تدارك تلك الهزيمة المتوقعة وتمكن بنفسه من قيادة قوة صغيرة منتقاة من قواته وأحبط هجوم الدماشقة وهزمهم، وبهذا فتح له الطريق لسحق باقي العسكر الفاطمي (٤٢).

وألم بطغتكين في ذاك العام مرض خطير، ووصل إليه رسول في تلك الأثناء من

أمير طرابلس فخر الملك بن عمار طالبا المساعدة ضد الصليبيين الغزاة، كما أتت الأخبار لطغتكين بأن الأمير الأرتقي سقمان بن أرتق ـ صاحب ماردين و صاحب بيت المقدس السابق قبل احتلال الفاطميين لها سنة ٤٩٧هـ ـ كان قد تحالف مع جكرمش ـ صاحب الموصل ـ للجهاد ضد الصليبيين، ونظرا لتخوف طغتكين أن تصيبه مصيبة الموت، وليس هناك وريث له يمكن أن يُعتمد عليه ـ حتى ابنه الأكبر بوري لتسيير أمور الإمارة التي كانت تعصف بها المخاطر من كل مكان خاصة الخطر الصليبيّ ـ فقد كتب طغتكين إلى الأمير سقمان يدعوه لتسلم حكم دمشق، وفعلا سار سقمان بعسكره نحو دمشق ليتسلمها من طغتكين، ثم سار نحو طرابلس لانقاذها من التهديد الصليبي، وبينما كان سقمان في طريقه نحو دمشق، ندم طغتكين على عرضه الذي قدمه لسقمان لتسلم دمشق عندما حذره قواد عسكره عواقب تسليم الإمارة لسقمان، كما خوفوه من أن يكون مصيره كمصير أتسز بن أوق ـ صاحب دمشق الأسبق ـ عندما طلب من تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان أن يتولى أمر دمشق لتخوفه من سقوطها بيد الفاطميين، وكان جزاء أتسز أن قُتل على يد تتش في ربيع الأول سنة ٤٧١هـ/ الثاني عشر سبتمبر ١٠٧٨م كما سبق ذكره. (٤٣) وعندما تذكر طغتكين مصير أتسز ساءت صحته، إلا أن خبر وفاة سقمان في طريقه إلى دمشق وعودة عسكره الى ماردين خفف أعراض مرض طغتكين وعجل بشفائه، (٤٤) ولاشك، أن وفاة سقمان حفظت استقلال إمارة دمشق وحكم أسرة طغتكين لفترة أطول، كما حرمت الأراتقة من لعب دور متميز في تاريخ بلاد الشام في وقت مبكر، على أية حال، سوف يتأخر دور الأراتقة في بلاد الشام حوالي ثلاث عشر سنة عندما يتولى اخو سقمان نفسه وهو آيل غازي أمر حلب في الفترة بين سنتي ٥١١هـ و ٥١٦هـ/ مايو ١١١٧م حتىّ نوفمبر ١١٢٢م.

نجح طغتكين في أوائل شعبان ٤٩٨هـ/ ١٧ ابريل ١١٠٥م، في إخضاع أحد الثائرين على حكمه ويدعى كمشتكين الخادم ـ صاحب بعلبك ـ التابعة لإمارة دمشق، وقد جاءت إشاعات تؤكد عدم ولائه لسيده طغتكين، ولهذا قام طغتكين بفرضّ سلطته عليه بالقوة .(٤٥) ويبدو أن طغتكين لم يكن مستعدا للتسامح مع

عصيان هذا الوالي الذي كان يحكم مدينة بعلبك الاستراتيجية الواقعة على الطريق الرئيس بين مدينتي دمشق وطرابلس التي كانت تعاني من الهجمات الصليبية المتكررة عليها، (٤٦) وبعد أن أخضع طغتكين بعلبك، زحف بعسكر دمشق نحو مدينة رفانية الصليبية الواقعة على بعد حوالي خمسة عشر ميلا شمال غرب مدينة حمص التابعة لدمشق، وتمكن عسكر دمشق من تدمير قلعة رفانية وقتل حراسها وعاد الى حمص، (٤٧) ويبدو ان هذه العملية الناجحة ضد الصليبيين كانت الأولى من نوعها تحققها قوات إمارة دمشق والتي سوف تفتح الباب نحو تحقيق انتصارات أكبر للقوات الاسلامية في المستقبل.

كتب النائب الفاطمي في عسقلان الأمير شرف المعالي بن الأفضل ـ الوزير الفاطمي ـ في سنة ٤٩٨هـ/ ٢٣ سبتمبر ١١٠٤م، لطغتكين طالبا منه التحالف لحرب الصليبيين الذين كانوا يهددون الممتلكات الفاطمية المتبقية في الساحل الشامي، إلا أن طغتكين اعتذر لانشغالاته الكثيرة، ويبدو أن طغتكين كان منهمكا في ذلك الحين في ترسيخ دعائم حكمه في إمارته التي كانت في تلك الأثناء تعصف بها المشاكل الداخلية خاصة مسألة ثورة الملك أرتاش بن تاج الدولة تتش المتحالف مع والي حصن بصرى أيتكين الحلبي المجتمعان في بصرى، الواقعة على بعد عشرة أميال غرب حصن صرخد في إقليم حوران التابع لإمارة دمشق، فقد زحف طغتكين بقواته نحو بصرى لمواجهة هذين الثائرين اللذين تحالفا مع الصليبيين لإسقاط نظام حكمه وانتزاع دمشق منه، ولو نجح هذا التحالف ضد طغتكين لهدد دمشق وجعلها لقمة سائغة سهلة السقوط بيد صليبيي بيت المقدس، إلا أن طغتكين غير رأيه أثناء زحفه نحو بصرى واتجه إلى عسقلان واجتمع بعسكر الفاطميين في عسقلان.

يبدو أن تردد طغتكين في تقديم العون لفاطميي عسقلان كان لتخوفه من عدم جدية الجيش الفاطمي في قتال الصليبيين، وفعلا انهزمت القوات الفاطمية الدمشقية أمام القوات الصليبية قرب عسقلان، وانسحبت قوات دمشق بقيادة طغتكين نحو بصرى لإخضاع العاصين عليه، وتمكن طغتكين بسهولة أن يخضع أرتاش وآيتكين، وقبل عذريهما وتآمرهما عليه حتى وصل الأمر الى تحالفهما مع

اعداء الأمة من صليبيي بيت المقدس، وخلع عليهما وطيب قلبيهما ومنحهما إقطاعات تعوضهما عما أخذ منهما. ولم يعد طغتكين تنصيب أرتاش ملكا لدمشق كما كان قبل تمرده وانفرد طغتكين بحكم الإمارة بنفسه.(٤٨)

وتمكن طغتكين في ربيع الآخر ٤٩٩هـ/١٢ ديسمبر ١١٠٥م بقوات دمشق بأن يدمر وينهب حصن علعال التابع لصليبيي بيت المقدس الواقع في سواد طبرية ،وهي المنطقة الشرقية لبحيرة طبرية واقليم البثنية الممتد بين نهر الأردن وإقليم حوران، ثم عاد بقوات دمشق سالما بعد اتمام هذا العمل (٤٩).

وضمن خطة الصليبيين لاستنزاف إمارة دمشق، قام الفرنجة في السنة التالية اي سنة ٥٠٠هـ/ ٢ ديسمبر ١١٠٦م بسلب ونهب وتدمير السواد الممتد بين شرق غور الأردن وإقليم البلقاء، كما نهبوا حوران وجبل عوف الواقع بين السواد وإقليم الشراة ويبدو أن هذه المناطق كانت تابعة ولو اسميا لإمارة دمشق، ولهذا اشتكى أهلوها إلى طغتكين من الغارات التخريبية الصليبية، وفي الحال خرج طغتكين بعسكر دمشق لوقف هذه الأعمال التخريبية، وبينما كان طغتكين في السواد، قامت قوات صور التابعة للفاطميين بقيادة الأمير عز الملك بمهاجمة حصن تبنين «طورون» الواقع على بعد عشرة أميال شرقي صور، وعندما علم ملك بيت المقدس الصليبي بلدوين الأول بهذه الغارة على تبنين خرج بقواته من طبرية لإنقاذ هذا الحصن الذي تم بناؤه من قبل «هيو» صاحب طبرية الصليبي التابع لمملكة بيت المقدس. و في تلك الأثناء قامت قوات دمشق بقيادة طغتكين بالإغارة على حصن قريب من طبرية، ولم يذكر ابن القلانسي ـ المؤرخ الوحيد الذي ذكر هذه الأحداث ـ هذا الحصن بالاسم، وتمكن من أخذه وقتل حراسه ثم انسحب نحو زُرّا في اقليم حوران ربما ليلاقي القوات الصليبية في قتال مفتوح في تلك المنطقة القاحلة، إلا أنه يبدو أن الصليبيين أدركوا خطة طغتكين تلك، ولذلك تراجعوا نحو طبرية التابعة لهم، وعادت قوات طغتكين الى دمشق. وتذكر الرواية الصليبية التي يذكرها وليم الصوري بأن الهجوم على حصن تبنين التابع للصليبيين كان من قبل القوات الدمشقية وليست من قبل قوات مدينة صور الفاطمية، كما يضيف بأن قوات مدينة طبرية الصليبية بقيادة هيو

تمكنت بعددها القليل وهو سبعون شخصا، بأن تهزم قوات دمشق التي تقدر بأربعة آلاف، إلا أنه يستطرد ويذكر أن هيو قتل في هذا القتال،(٥٠) وهنا يحق للقارىء أن يستنتج إلى أي مدى كان بعض مؤرخي الصليبيين في العصور الوسطى مثل وليم الصوري يبالغوا في اطراء انتصاراتهم البعيدة في كثير من الأحيان عن عالم الواقع إلا أن هذا لا يعني أن بعض مورخينا المسلمين كانوا بعيدين عن تلك المبالغات، كما يبدو أن تلك الهجمات الصليبية على أملاك إمارة دمشق كانت تهدف لإشغال هذه الإمارة بنفسها حتى لا تقدم الدعم الواجب عليها عندما تقوم القوات الصليبية بعملية كبيرة لأخذ واحدة من أهم مدن الساحل التي لازالت بيد المسلمين وهي طرابلس التابعة لأسرة بني عمار.

وكان من أولويات سياسة دمشق مساعدة المدن الصامدة في بلاد الشام لإنقاذها من السقوط بيد الصليبيين، ولهذا نراها تنصر طرابلس المستقلة الصامدة فعندما قام فخر الدين بن عمار ـ أمير طرابلس ـ في شعبان من السنة التالية أي ٥٠١هـ/ ١٦ مارس ١١٠٨م بزيارة لدمشق للبحث مع طغتكين موضوع القيام بزيارة الى بغداد لمناقشة قضية طلب مساعدة طارئة من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، لمواجهة الحصار الصليبي الذي أخذ يشتد على مدينة طرابلس، استجاب طغتكين لهذا الطلب وأرسل ابنه بوري مع ابن عمار الى بغداد، وربما كان طغتكين متخوفا من أن يتآمر عليه السلطان محمد، الذي كانت علاقته به فيما يبدو فاترة، وفي أثناء زيارة ابن عمار لبغداد حدث أمر لا يقل خطورة من سقوط طرابلس بيد الصليبيين ألا وهو قيام نائبه في طرابلس المدعو أبو حرب بن عمار وهو ابن عم فخر الملك بن عمار نفسه، بالثورة على ابن عمه واعلان ولائه للفاطميين وبهذا عادت تلك المدينة للسيادة الفاطمية التي فقدتها منذ ٤٥٧هـ/١٠٦٦م، قبل أكثر من أربع وأربعين سنة. وسوف يمهد سقوط طرابلس بيد الفاطميين الى سقوطها بيد الصليبيين بعد فترة قصيرة كما سنرى فيما بعد. وكان من أهم أهداف طغتكين لإرساله إبنه للسلطان محمد هو إظهار ولائه للسلاجقة، وقد نجح بوري في تحقيق هذا الهدف، عن طريق تقديم الهدايا الى السلطان(٥١). ويبدو أن طغتكين استخدم أمواله لتحقيق أهدافه ليس

مع السلطان محمد بن السلطان ملكشاه والخليفة العباسي المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي وحسب، بل مع كثيرين غيرهما حتى مع الفرنجة أنفسهم، كما سنرى حينما سيضطر لعقد تحالف مع الملك بلدوين ـ حاكم بيت المقدس ـ وأمير أنطاكية الصليبي في ٥٠٩هـ/ مايو ١١١٥م.

وقد وعد السلطان السلجوقي محمد بمساعدة ابن عمار، فأمر شرف الدولة مودود بالاستيلاء على الموصل من أيدي المتمردين بقيادة جاولي سقاوة وبعد ذلك أمره بالزحف الى طرابلس. وعندما عاد فخر الملك بن عمار أدراجه الى دمشق، وانضم الى فرسان دمشق، وقرر أن يسيطر على مدينة جبلة التي كانت تخضع لسلطانه أثناء حكمه لإمارة طرابلس (٥٢)، ولكن يبدو أن طغتكين لم يستطع أن يساعده في استرداد جبلة أو حتى عاصمته طرابلس من أيدي الفاطميين. ومن دون شك أن سقوط طرابلس في أيدي الفاطميين، في رمضان ٥٠١هـ/ ابريل ١١٠٨م، كان عاملا مساعدا في سقوطها في أيدي الصليبيين في ١١ ذي الحجة ٥٠٢هـ/ ١٢ يوليو ١١٠٩م، كما حدث بالفعل بالنسبة للقدس، حينما استعاد الفاطميون القدس في شعبان ٤٩١هـ/ ٥ يونيو ١٠٩٨م وما أعقبه من سقوط المدينة في أيدي الصليبيين في العام التالي في ١٧ صفر ٤٩٢هـ/ ١٣ يناير ١٠٩٩م (٥٣).

وقام طغتكين تلك السنة بقيادة قوة دمشقية تقدر بألفي فارس وعدد كبير من المشاة بهزيمة قوات طبرية الصليبية التي كان يتزعمها حاكمها جرفاس، ووفقا لرواية ابن الأثير كانت قوات جرفاس تقدر بأربعمائة فارس وألفي راجل وتمكن طغتكين في المعركة من أسر جرفاس نفسه مع بعض جنوده، ثم أخذ طغتكين يساوم على اطلاق سراح هذا القائد الصليبي الذي كان أحد أقرباء الملك الصليبي بلدوين الأول، فقد طالب بأن يكون ثمن هؤلاء الأسرى هو إعادة ثلاث مدن رئيسة تابعة للصليبيين وهي مدن طبرية وعكا وحيفا للسيادة الإسلامية، وربما كان اختيارطغتكين لهذه المدن بالذات لأنه سوف يتمكن إذا سيطر على هذه المدن من التحكم بالطريق الرئيس الذي يصل بين مملكة دمشق والإمارات الصليبية الأخرى شمال بلاد الشام، هذا إذا أخذنا بالحسبان بأن مدينة صيدا الساحلية الواقعة شمال

عكا لازالت في تلك الفترة تحت السيادة الفاطمية. ويبدو أن هذا الطلب كان تعجيزيا من جهة طغتكين، ولهذا رفضه الملك بلدوين الأول وعرض أن يدفع فدية قدرها ثلاثين الف دينار لفداء الأسرى، ولكن طغتكين رفض هذا العرض لينال الحظوة والرضا من هذا السلطان الذي كان آنذاك يشك في صدق ولاء طغتكين للخلافة العباسية السنية ومهادنته بل تحالفه في أحيان أخرى مع الخلافة الفاطمية المنافس الرئيس لها، ويؤكد ابن الأثير أن هذا النصر الذي حققه طغتكين على قوات طبرية، أجبر الملك بلدوين الأول الصليبي على عقد معاهدة مع إمارة دمشق لمدة أربع سنوات، وخففت هذه المعاهدة من وقع الهزيمة التي ستلحق بطغتكين وقوات دمشق السنة المقبلة على يد الصليبيين قرب حصن الأكمة الصليبي. (٥٤)

لم تتوان دمشق عن تقديم الدعم للمدن الفاطمية الصامدة في بلاد الشام، ففي تلك السنة أي ٥٠١هـ/ ٢٢ اغسطس ١١٠٧م، قامت قوات بيت المقدس الصليبية بقيادة الملك بلدوين الأول بإحكام حصارها على مدينة صيدا الساحلية من البر وكذلك حصارها بحرا بواسطة الأسطول الجنيوي، والغريب في الأمر أن القوات البحرية الفاطمية حققت آنذاك لأول مرة نصرا على الأسطول الصليبي الجنيوي، ولكن الحصار البري استمر ولم يفكه الملك بلدوين الأول إلا عندما علم أن قوات دمشق بقيادة طغتكين في طريقها لنجدة صيدا (٥٥). وبلا شك أن مبادرة إمارة دمشق لنجدة صيدا، وربما كانت بدون طلب من تلك المدينة المحاصرة، ستدعم قضية جهاد الغزاة الصليبيين، كما أنها سوف تساعد على المحافظة على الممتلكات الفاطمية الصامدة في بلاد الشام.

ونعود من جديد للحديث عن طرابلس، فكما سبق ذكره خرجت مدينة طرابلس من حكم فخر الملك بن عمار وعادت للسيادة الفاطمية في رمضان ٥٠١هـ/ ١٣ ابريل ١١٠٨م، وبعد أقل من سنة أي في الأول من شعبان ٥٠٢هـ/ الموافق ٦ من مارس ١١٠٩م، قامت القوات الصليبية مجتمعة أي قوات بيت المقدس وأنطاكية والرها بالإضافة إلى أسطول جنيوي يقدر بستين سفينة بمحاصرة طرابلس برا وبحرا وأحكموا حصارها. وخاب ظن أهل طرابلس في المساعدة الفاطمية التي لم تخرج

من مصر إلا في الحادي عشر من ذي الحجة ٥٠٢هـ/ الموافق ١٢ من يوليو ١١٠٩م، أي بعد أكثر من ثلاثة أشهر من بداية إحكام الحصار بيد الصليبيين بعد حصار استمر أربعة أشهر وعشرة أيام (٥٦). وليس هناك شك أن سقوط مدينة طرابلس - ذات الأهمية الكبيرة والتي أصبحت عاصمة كونتية صليبية جديدة في بلاد الشام عرفت بكونتية طرابلس - كان لسقوطها أثر كبير في إضعاف المقاومة الدمشقية للتهديد الصليبي في بلاد الشام والجزيرة الفراتية، ولهذا سنرى طغتكين يقدم تنازلات جديدة للصليبيين ما كان ممكن أن يقدمها لو فشل الصليبيون في الاستيلاء على طرابلس في تلك السنة، ويبدو أن تأخر النجدة السلجوقية - التي وعد السلطان محمد بن ملكشاه باخراجها في رمضان السنة الماضية / السادس من ابريل ١١٠٨م أثناء زيارة فخر الملك بن عمار - صاحب طرابلس السابق - وبوري بن طغتكين للمساعدة في وقف التهديد الصليبي لطرابلس - كان العامل الرئيس في اضطرار طغتكين أن يسلك سياسة اللين نحو صليبيي بيت المقدس، وسيتضح ذلك قريبا ففي شعبان ٥٠٢هـ/ السادس من مارس ١١٠٩م - فشل طغتكين في ارسال مساعدة لمدينة عرقة الساحلية - الواقعة على بعد حوالي عشرة أميال شمال شرق مدينة طرابلس لمواجهة التهديد الصليبي لها، وذلك لكثافة الثلوج التي هطلت على تلك المنطقة لمدة شهرين متتالين، فقد دخلت تلك المدينة قبل أشهر قليلة فقط - التي كانت سابقا تابعة لإمارة فخر الملك صاحب طرابلس - ضمن ممتلكات دمشق، وكانت القوات الصليبية تهدد تلك المدينة بقيادة وليم جوردان - صاحب طرابلس - ومعه ثلاثمائة فارس، وعندما توقف هطول الثلج، زحف طغتكين ومعه أربعمائة نحو عرقة، وفوجأ بأن الصليبيين قد أحكموا حصار تلك المدينة، ولهذا قام بمناورة لإشغال الصليبيين عن أمر عرقة، وذلك بأن زحف نحو قلعة الأكمة التابعة للصليبيين والتي تقع قرب رفانية على الطريق بين رفانية وأنطرطوس، وفعلا نجحت خطة طغتكين عندما فك وليم جوردان حصار عرقة واتجه نحو قلعة الأكمة لإنقاذها، وعندما وصل خبر انسحاب وليم جوردان إلى طغتكين، انسحب طغتكين نحو حمص التابعة له إلا أن صليبيي طرابلس لم ييأسوا من أخذ عرقة القريبة جدا من عاصمتهم الجديدة ولهذا عادوا وشددوا الحصار عليها فاستسلمت صلحا (٥٧). ولا ريب أن هذا الاخفاق

الجديد لطغتكين وسقوط طرابلس بيد الصليبيين أضعف من موقف إمارة دمشق، ولهذا سنراه يقدم تنازلات في معاهدة الصلح مع الملك بلدوين الأول، ففي أواخر سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م اضطر طغتكين أن يعقد صلحا مع مملكة بيت المقدس لمدة عشر سنوات، وقبل فيه طغتكين تقسم محاصيل كل من جبل عوف واقليم السواد الواقع شمالي البلقاء في شمال شرق نهر الاردن الى ثلاثة أقسام، واحد منها لإمارة دمشق، والآخر للصليبيين أما الأخير فيقتسمه فلاحو المنطقة من صليبيين ومسلمين. (٥٨)

نجح طغتكين في سنة ٥٠٣هـ/٣١ يوليو ١١٠٩م، في الاستيلاء على رفانية التابعة للصليبيين، وحاول الصليبيون استعادتها منه ولكنهم فشلوا هذه المرة، ووقع طغتكين تلك السنة على اتفاقية صلح جديدة مع الصليبيين قدم فيها تنازلات أكثر من التي سبقتها، ففي هذه الاتفاقية حصل الصليبيون على ثلث محصول سهل البقاع التابع لدمشق، كما تسلموا حصن المنيطرة الواقع على بعد عشرة أميال غرب بعلبك، وحصن عكار الواقع على بعد ثمانية أميال شرق عرقة، بالاضافة إلى ذلك تعهد أهالي حصن مصياف الواقع على بعد خمسة عشر ميلا شمال غرب مدينة حماة، وحصن الطوفان الواقع على بعد عشرة أميال غرب حمص، وكذلك حصن الأكراد الواقع على بعد خمسة عشر ميلا غرب حمص - بدفع جزية سنوية للصليبيين (٥٩).

وتمكن صليبيو طرابلس في محرم ٥٠٣هـ/ ٣١ يوليو ١١٠٩م، من الاستيلاء على مدينة جبيل الساحلية الواقعة على بعد حوالي عشرين ميلا جنوب مدينة طرابلس وكانت جبيل تلك تحت ولاية فخر الملك بن عمار أمير طرابلس السابق والذي كان في ذلك الحين لايزال يحكم هذه المدينة المتبقية من إمارته التي فقدت استقلالها على يد الفاطميين قبل سنتين في رمضان عام ٥٠١هـ/ ابريل ١١٠٨م، وجاء احتلال جبيل بعد أيام قليلة من استيلاء الصليبيين على مدينة طرابلس بزعامة برترام صاحب تولوز بن ريموند صاحب سانت جيل، وقرر فخر الملك بن عمار بعد سقوط جبيل آخر أملاكه بيد الصليبيين الإقامة في مدينة دمشق في ظل حكم طغتكين

حليفه المخلص، وقد رفض الإقامة في مدينة شيزر عند حاكمها بن منقذ رغم رجاء ابن منقذ له. وقد عزى طغتكين حليفه بن عمار الذي عرف بتاريخه الحافل في الجهاد ضد الصليبيين ومنحه الزبداني وهو إقطاع كبير على بعد حوالي خمسة عشر ميلا شمال مدينة دمشق (٦٠).

وقامت الدولة السلجوقية في جمادى الأولى سنة ٥٠٣هـ/٢٨ نوفمبر ١١٠٩م بخطوات عملية لإعلان الجهاد ضد الصليبيين ، فكتب السلطان محمد بن ملكشاه إلى أمرائه وقواده أن يقفوا على أهبة الاستعداد للجهاد ضد الصليبيين للالتحاق بالحملة السلطانية التي سيقودها شرف الدولة مودود أتابك الموصل، أما بخصوص إمارة دمشق فقد أمر السلطان محمد طغتكين بالبقاء في دمشق حتى تسير الحملة السلطانية لينضم لها، إلا أن تأخر الحملة السلطانية عن المسير للجهاد اضطرت طغتكين أن يقرر زيارة السلطان محمد في بغداد لحثه على سرعة تسيير الحملة، ويبدو أن هذه هي المرة الأولى التي يعزم بها طغتكين زيارة بغداد شخصيا لمقابلة السلطان محمد الذي عرف عنه تشككه في صدق ولاء طغتكين للخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، كما عرف بعلاقاته الخاصة مع الفاطميين والتي كانت سبب هذا التشكك، واصطحب طغتكين في هذه الزيارة أمير طرابلس السابق فخر الملك بن عمار، كما حمل نفسه كعادته بهدايا ثمينة للسلطان محمد والخليفة العباسي المستظهر بالله، وأناب طغتكين في تسيير أمر الإمارة ابنه الأكبر تاج الملوك بوري، وأمره بألا ينقض الصلح مع مملكة بيت المقدس الصليبية حتى يعود هو من بغداد (٦١). وربما كان طغتكين حتى ذلك الحين لا يثق بقدرة ابنه بوري في مواجهة صليبيي بيت المقدس بزعامة ملك قوي كبلدوين الأول.

وبينما كان الوفدان في طريقهما الى بغداد، أتت إشاعات مفادها أن السلطان سوف يقبض على طغتكين عندما يصل إلى بغداد، وسوف يحل مكانه أميرا جديدا لدمشق، وصدق طغتكين تلك الإشاعات، وقطع زيارته تلك إلى بغداد، إلا أن ابن عمار أتم رحلته وإستقبل بالترحاب عند السلطان محمد، وعبر السلطان محمد عن

أسفه وخيبة أمله من تصديق طغتكين لتلك الإشاعات المغرضة، وأكد السلطان لابن عمار بأن الحملة السلطانية ستخرج قريبا للجهاد. (٦٢)

وانشغل طغتكين في شعبان ٥٠٣هـ/ ٢٥ فبراير ١١١٥م في حل مشاكل داخلية هددت سيادته على إمارة دمشق، فعلم طغتكين أن واليه على بعلبك المعروف بكمشتكين قد أقام تحالفا مع الصليبيين وأغراهم بشن غارات سلب ونهب على حدود إمارة دمشق، كما قام كمشتكين بإرسال أخيه بايتكين للسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه لإفساد العلاقة الطيبة التي تربط السلطان بطغتكين. وحاول طغتكين بالطرق السلمية إقناع كمشتكين بالعدول عن تصرفاته الشائنة تلك، إلا أن هذا المتمرد أصر على فعله وتحالفه المريب مع الصليبيين، والملاحظ أن هذه هي المرة الثانية التي يعصى فيها كمشتكين سيده طغتكين، فقد كانت الأولى ـ كما سبق ذكره ـ قبل خمس سنوات في شعبان سنة ٤٩٨هـ/ أواخر ابريل ١١٠٥م، وقد نجح طغتكين في تلك المرة من إخضاع كلٍ من كمشتكين ـ صاحب بصري ـ وحليفه الملك أرتاش بن تاج الدولة تتش، وعموما زحف طغتكين بقواته هذه المرة نحو بعلبك في سهل البقاع لإخضاع كمشتكين، وفرض عليها الحصار، وأثناء حصاره للمدينة أتته مجموعات من جماعة أحداث بعلبك ـ وهم جماعات عسكرية شعبية ـ انضمت إليه للقتال ضد واليهم الثائر على طغتكين، وأكرم طغتكين كعادته هؤلاء وخلع عليهم وشكرهم على تعاونهم معه، ثم شن طغتكين هجوماً على بعلبك، التي أسرع واليها ـ بعد أن رأى صدق عسكر دمشق في الحرب ـ لطلب الأمان وتسليم المدينة لطغتكين، وعرض على سيده طغتكين أن يعوضه بإقطاع بدلا من بعلبك وأن يعفو عنه، وكعادته مع المتمردين عليه، قبل طغتكين هذا العرض، ومنح كمشتكين حصن صرخد في إقليم حوران الواقع جنوبي مدينة دمشق ـ كإقطاع. (٦٣)

واستولى صليبيو بيت المقدس وطرابلس في ٢١ شوال من السنة نفسها/ الموافق ١٣ مايو ١١١٠م على ميناء بيروت التابع للفاطميين صلحا بعد حصار شديد من البر والبحر. (٦٤) ولا شك أن سقوط بيروت بيد الصليبيين عزز موقفهم على ساحل بلاد

الشام وأضعف موقف المسلمين في بلاد الشام بما فيهم الدماشقة الذين يستخدمون ميناء بيروت كشريان رئيس لنقل تجارتهم البحرية مع مصر.

واخيرا بعد انتظار طويل سارت في أواخر سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م أول حملة سلطانية بقيادة شرف الدولة مودود - أتابك الموصل - للجهاد ضد الصليبيين. ويذكر ابن القلانسي أن هذه الحملة كانت كبيرة بحيث لو اجتمع كل إفرنج المشرق (الصليبيون) لما استطاعوا التغلب عليها إلا أنه لم يعط كعادته تقديرا لأعداد هذه الحملة، وربما لأسباب أمنية حتى لا يفشى أسرار قوة المسلمين للأعداء الصليبيين. وعلى أية حال، فرضت الحملة السلطانية الحصار على مدينة الرها الصليبية الواقعة في الجزيرة الفراتية والتي يمكن اعتبارها مخفراً أماميا للقوات الصليبية في المشرق. وجاءت الأخبار لطغتكين في تلك الأثناء بأن قوات صليبيي بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس في طريقهم لعبور الفرات لنجدة الرها، كما انسحبت القوات السلطانية انسحابا تكتيكيا نحو ضواحي مدينة حران الاسلامية لإغراء الصليبيين لملاقاة المسلمين في تلك المنطقة الفسيحة والتي لا يعرف الصليبيون جغرافيتها جيدا مما سيسبب لهم حرجا كبيرا لو قاتلوا فيها المسلمين خاصة في حالة هزيمتهم، وعند حران انضم عسكر دمشق للحملة السلطانية، أما بالنسبة للقوات الصليبية فقد تمكنت من دخول الرها وأمدتها بالامدادات اللازمة ثم عبرت الفرات منسحبة الى بلادها حتى أن بلدوين - كونت الرها - ترك عاصمته لمصيرها وذهب مع القوات الصليبية واستبقى الأرمن وحدهم ليدافعوا عن مدينتهم، ورغم هذا التخاذل من جانب الصليبيين نحو إخوانهم الأرمن لا زلنا نجد الأرمن متمسكين بولائهم للصليبيين، حتى إن مؤرخهم المعاصر المعروف بمتى الرهوي يعطي تبريرا غريبا لا يقبله إنسان راجح العقل لهروب الصليبيين إلى بلادهم، فهو يرى أن تنكريد - أمير أنطاكية الصليبي - اكتشف مؤامرة دبرها الصليبيون ضده في إمارته ولهذا أسرع إلى إمارته ثم لحقه باقي الصليبيين، إلا أن متى الرهوي لا يعطي تفصيلات لتلك المؤامرة (٦٥)، ويبدو أن القوات الصليبية لم تكن تتوقع حملة سلطانية بهذه الأعداد الكبيرة ،ولهذا آثرت العافية والانسحاب حتى لو أدى ذلك إلى فقد كونتية الرها التي كان

غالبية سكانها أرمن، وعندما أتت الأخبار بانسحاب الصليبيين واتجاههم لعبور الفرات لبلادهم، أرسل مودود قوات لمنع الصليبيين من العبور إلا أن غالبية الصليبيين عبروا قبل وصول القوات الاسلامية ولم يلحقوا إلا بمؤخرتهم الذين كان معهم الأحمال و أكثرهم من الأرمن، فقتلوا وأسروا بعضهم ثم عادوا للقوات السلطانية الرئيسة التي فرضت حصاراً جديداً على الرها.

وعندما علم طغتكين بعبور الصليبيين إلي بلادهم تخوف من انتقامهم وشنهم غارات تخريبية على أراضي إمارته أثناء غيابه عنها، ولهذا إنسحب بقواته نحو دمشق للدفاع عنها (٦٦)، وليس من المستبعد أن طغتكين أخذ إذنا من مودود بمغادرة الحملة السلطانية والعودة للدفاع عن إمارته، وهكذا فشلت الحملة السلطانية رغم ضخامة عددها من استعادة الرها، بل إن التركمان وهم العنصر الرئيس في هذه الحملة تركوا الحملة بعد أن طال الحصار، وذلك أن التركمان لم يتعودوا الحرب الطويلة فهم قد تعودوا على حروب خاطفة يعودون بعدها مباشرة الى أهليهم محملين بالغنائم. ولذلك اضطر مودود إلى فك الحصار عن الرُها ، وأذن للقوات الاسلامية معه بالعودة إلى بلادهم، وهكذا فشلت الحملة السلطانية الأولى، إلا أنها أفادت إمارة دمشق، ذلك أن طغتكين كسب لجانبه حليفا جديداً وهو مودود أتابك الموصل، وسوف تتوطد هذه العلاقة بينهما وتحقق انتصارات للاسلام ضد الصليبيين في المستقبل (٦٧)، كما أن هذه الحملة كشفت لطغتكين مدى الحسد الذي كان متفشيا بين قيادات الحملة السلطانية وكيف أن هؤلاء القواد كانوا يفكرون بمصالحهم الخاصة قبل المصلحة العامة وقضية الجهاد في سبيل اللّه.

وبعد فشل الحملة السلطانية بدأ الملك بلدوين الأول بالانتقام من إمارة دمشق التي شاركت في تلك الحملة، ويبدو أن طغتكين شارك في تلك الحملة على أساس أن اتفاقية الصلح بين إمارة دمشق ومملكة بيت المقدس الصليبية لا تتضمن بندا يفيد عدم جواز مساعدة إمارة دمشق لقوات إسلامية ضد أي قوة صليبية عدا مملكة بيت المقدس، ولهذا رأينا مشاركة دمشق ضد الرُها الصليبية في هذه الحملة في الحدود الجغرافية للرُها نفسها وليس داخل حدود مملكة بيت المقدس، إلا أنه يظهر أن الملك

بلْدوين الأول رأى في مشاركة دمشق في تلك الحملة خطراً يهدد مصالح مملكته، ولهذا كتب لبرترام - كونت طرابلس - يدعوه للانضمام لقوات بيت المقدس في طبرية في ذي الحجة ٥٠٤هـ/ أوائل يوليو ١١١١م، ثم المسير لنهب إقليم حوران الزراعي التابع لإمارة دمشق والواقع جنوب مدينة دمشق، وقد سبق طغتكين بقوات دمشق القوات الصليبية هناك، ونزل عند حصن الصَنَمين على بعد عشرين ميلا جنوب مدينة دمشق، وعندما اقتربت القوات الصليبية من قوات دمشق عند حصن الصَنَمَين قام طغتكين بتقسيم عسكره إلى مفارز صغيرة ليقطع خطوط التموين على القوات الصليبية، خاصة أن قوات دمشق لم تكن تتوقع عقد مصاف (قتال بارض مكشوفة) في تلك المنطقة مع قوات تفوقها عددا وعدة، وفعلا نجحت مناورة طغتكين تلك واضطر الملك بلدوين إلى وقف حملته تلك، وعقد صلحا جديدا مع إمارة دمشق، وقد تعهد طغتكين في هذا الصلح بأن يعطي صليبيي بيت المقدس نصف محصول إقليم السَوّاد وجبل عَوْف وإقليم الحَبَابية الواقع شرقي جبل عوف - والمنطقة التي تقطنها قبيلة بنوجراح هناك. ويبدو أن هذا الصلح أكد تفوق الجانب الصليبي عسكريا وضعف موقف إمارة دمشق خاصة بعد فشل الحملة السلطانية التي قامت في السنة الماضية (٦٨).

إلا أن فشل حملة السلطان محمد سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م لم تفت في عضده وتسلمه لليأس، ولهذا نراه يرسل حملة جديدة في السنة التالية أي أواخر ٥٠٤هـ/ ١١١١م يقودها نفس القائد السابق وهو شرف الدولة مَوْدُود أتابك الموصل ومعه قوات سُقْمَان القُطْبي - صاحب خَلاَط وأرمينية وميّافارقين - وأحمديَلْ - صاحب مَرَاغة - وغيرهم من القواد المسلمين، ويبدو أن سبب محافظة مودود على زعامة الحملة، لقناعة السلطان محمد لأهليه مودود لتلك المهمة، ومرة أخرى تجمعت قوات تلك الحملة في حرّان على بعد خمسة عشر ميلا شمال شرق مدينة الرُها الصليبية، وبينما كانت القوات الاسلامية في حرّان، أتتهم رسالة من ابن مُنْقذ - أمير شيزر على بعد عشرة أميال شمال غرب حماة - طالبا مساعدة مستعجلة ضد صاحب أنطاكية تنكريد الذي بنى قلعة مقابل شيزر عند تل ابن مَعْشَر حتى تكون

مقراً دائماً للقوات الصليبية المحاصرة لشيزر. ويذكرنا هذا العمل بما فعله القائد الصليبي ريموند صاحب سانْت جَيْل الذي حاصر مدينة طرابلس عندما شيّد حصن عَرْقة قرب طرابلس قبل عدة سنين. على أية حال تقدمت القوات الاسلامية وعبرت الفرات وفرضت الحصار على حصن تل باشَر التابع لكونتية الرُها الصليبية، وكان في تل باشَر حاكم الرُها نفسه جَوْسلين الأول وهو ابن صاحب كورتني الذي نجح في رشوة أحد قواد المسلمين وهو أحمد يل ـ صاحب مراغة ـ لفك الحصار عن حصن تل باشر، وعندما ترك أحمديل وقواته التي كانت تشكل غالبية عسكر الحملة السلطانية حصارهم لتل باشر اضْطر مَوْدود إلى فك ذاك الحصار الذي دام خمسة وأربعين يوما، وزحفت قوات الحملة السلطانية جميعا بما فيها قوات مَرَاغة نحو مدينة حلب التابعة للملك رضوان صاحب حلب، ورفض رضوان فتح أبواب المدينة للحملة السلطانية، خوفا من أن يعزله السلطان محمد ويقيم حاكما جديدا لملكة حلب التي كانت في حالة يُرثى لها خاصة بعد إزدياد التهديد الصليبي لها، وبينما كانت القوات الإسلامية عند مدينة حلب، قامت قوات أحمد يَلْ ـ صاحب مَرَاغة ـ بنهب قرى حلب، وألحقوا بحلب أضرارا فاقت ما عانته من المعتدين الصليبيين، وفي تلك الأثناء زحفت قوات إمارة دمشق بقيادة طغتكين للانضمام للحملة السلطانية عند حلب، بعد أن أتى الأمر من السلطان محمد لطغتكين بالتعاون مع الحملة.

وكان طغتكين متردداً هذه المرة في الانضمام للحملة خاصة أن بعض قواد الحملة كانوا قد شاركوا في الحملة السابقة ولم يثبتوا صدق عزيمة في الجهاد ضد الصليبيين كاحمد يَلْ صاحب مَرَاغة، ورغم الاستقبال الحار الذي تلقاه طغتكين من قواد الحملة السلطانية هذه ـ وربما لتوقعهم الحصول على هدايا ثمينة من طغتكين الذي عرف بكرمه في تلك المواقف ـ إلا أنه تأكد من عدم إخلاصهم في الجهاد ضد الصليبيين، وحاول إقناع وإغراء هؤلاء القادة بالمال للبقاء في بلاد الشام وعدم الرجوع دون تحقيق نصر ضد الصليبيين كما حدث في الحملة السابقة، ويبدو أن الملك رضوان قرر أخيرا التعاون مع الحملة السلطانية خصوصا عندما قدمت قوات

دمشق للانضمام لها وربما أراد أن يُفشل الحملة السلطانية وليس إنجاحها، ولهذا كتب رضوان إلى بعض قواد الحملة متآمرا على طغتكين منافسه التقليدي في بلاد الشام، بينما عرض طغتكين على قواد الحملة التقدم لفرض الحصار على مدينة طرابلس التي تمكن الصليبيون من احتلالها قبل سنتين وتعهد لهم بتقديم كل ما يحتاجونه أثناء الحصار، كما اقترح عليهم عند اشتداد البرد شتاء الإقامة في دمشق في ضيافته، إلا أن أكثر قواد الحملة رفضوا هذا الاقتراح. ويبدو أن هذا الرفض أكد لطغتكين عدم صدق هؤلاء القادة في قضية الجهاد ضد الصليبيين. وفي تلك الأثناء رجع سُقْمان القطبي بقواته بسبب اشتداد مرضه وتبعته قوات احمد يَلْ الذي كان يطمع أن يمنحه السلطان محمد ممتلكات سُقْمان القُطْبي حال وفاته، ثم تبعهم قوات همذان بقيادة بُرْسُق بن بُرْسُق، ولم يتبق سوى عسكر الموصل بقيادة مَوْدود وعسكر دمشق بزعامة طغتكين، ثم سارت قوات الموصل ودمشق وعبرت نهر العاصي لإنقاذ شيزر، وعندما علم الصليبيون برجوع أكثر قوات الحملة السلطانية، قرروا التحالف ضد قوات الموصل ودمشق.(٦٩) وتقدمت قوات بيت المقدس بقيادة الملك بلدوين الأول وقوات أنطاكية بزعامة تنكريد صاحب أنطاكية، وقوات طرابلس بقيادة برترام نحو تل ابن معشر مقابل شيزر، وقد تمكنت القوات الإسلامية من دخول شيزر واستقبلت بحفاوة من قبل ابن منقذ صاحبها، وتمكنت تلك القوات من قطع خطوط إمدادات الصليبيين المحاصرين لشيزر مما اضطرهم لفك حصارها وبهذا نجحت الحملة السلطانية في تحقيق إنجاز ثانوي ضد الصليبيين رغم تخاذل أكثر قوادها، وحققت إمارة دمشق كسبا كبيراً بتعاونها مع الحملة السلطانية وتوطد الحلف بين طغتكين أمير دمشق ومودود أتابك الموصل (٧٠).

وكتب أهالي مدينة صور الساحلية التابعة للفاطميين في السنة التالية أي ٥٠٥هـ/ ١٢ يوليو ١١١١م إلى طغتكين يعرضون عليه تسليمها له قبل أن يتمكن الملك الصليبي بلدوين الأول من أخذها، وقد جاء هذا العرض بعد أن يئسوا من مساعدة الخلافة الفاطمية صاحبة السيادة عليهم وكانوا قد طالبوها بالمساعدة العاجلة، وقد حذر أهالي صور طغتكين بأنه إذا لم يتعجل القدوم لتسلم مدينتهم

فإنهم سيسلموها للملك بلدوين الأول صاحب بيت المقدس الصليبي، وهذا يوضح لنا الى أي مدى تردي الوضع في تلك المدينة الاستراتيجية وأرسل طغتكين في تلك الأثناء على وجه السرعة مائتي فارس لتعزيز دفاعات صور كما أرسل تمويلا لهم، ووعدهم بمساعدات مستعجلة. وعندما وصلت أنباء التعزيزات الدمشقية إلى صور، قام الملك بلدوين الأول الصليبي بإحكام الحصار على صور براً وبحراً (٧١). وتقدم طغتكين نفسه مع قوات دمشق لقطع إمدادت الصليبين لإجبارهم على رفع الحصار عن صور، وقد نجح طغتكين في تدمير الجسر. الواقع علي نهر العاص على الطريق الذي يربط بين صور وصيدا، ولهذا اضطر الصليبيون الى جلب المؤن عن طريق البحر من صيدا وليس عن طريق البر. وعندما علم طغتكين بأن الإمدادات الصليبية تأتي عن طريق ميناء صيدا قام بالإغارة على هذا الميناء بغتة وتمكن من تحطيم عشرين سفينة وتكبيد القوات الصليبية بعض القتلى من ملاحيهم، ثم زحف نحو حصن حابس جالديك التابع للصليبيين فاستولى عليه ثم تقدم نحو صور(٧٢)

ثم شرع الصليبيون ببناء برجين خشبيين عاليين يفوق ارتفاعهما ارتفاع أبراج مدينة صور نفسها، ولا شك أن البرجين لو استخدم بكفاءة لأوقعا من دون ريب خطرا كبيرا على المدينة المحاصرة لأن ارتفاعهما يفوق ابراج المدينة، ولهذا قرر طغتكين تدمير هذين البرجين بالتعاون مع المدافعين عن المدينة، وقام بغارات على القوات الصليبية المحاصرة للمدينة لإلهائها عن أمر ألبرجين فتسنح الفرصة للمدافعين عن المدينة لاحراق هذين البرجين، وقد اكتشف الصليبيون خطة طغتكين تلك ولذلك حفروا خندقا عميقا حول البرجين لمنع أهالي صور من حرقها.(٧٣) ووفقا للرواية التاريخية الصليبية التي يذكرها فولشر صاحب شارتر ووليم بطريك صور المعروف عند المؤرخين العرب بوليم الصوري، قام أهل صور ببناء برجين يفوق ارتفاعهما البرجين الصليبيين في نفس الليلة التي أنهى الصليبيون فيها بناء برجيهما، وتؤكد تلك الرواية انه بسبب تفوق البرجين الإسلاميين على البرجين الصليبيين في الارتفاع تمكن المسلمون من حرق البرجين الصليبيين، الا ان الرواية الاسلامية التي يرويها ا بن القلانسي تؤكد بأن الأبراج

الاسلامية كانت مساوية لارتفاع الأبراج الصليبية ولا شك أن الاختلاف في الرواية يرجع إلى كون الصليبيين يريدون التقليل من النجاح الإسلامي في حرق برجي الصليبيين، كما أن الرواية الاسلامية تؤكد أن البطولة الإسلامية وليست التجهيزات العسكرية هي التي حققت هذا النجاح. على أية حال، اضطرت القوات الصليبية الى فك حصار صور والانسحاب إلى عكا بعد حصار طويل امتد أربعة أشهر ونصف، ووفقا لرواية ابن القلانسي تكبدت القوات الصليبية الف قتيل بينما كانت خسائر قوات دمشق عشرين مقاتلا فقط وفقد أهل صور مائتين، وبعد اكتمال انسحاب القوات الصليبية دخلت قوات دمشق مدينة صور، وقد استقبل أهلها تلك القوات بالحفاوة. ويبدو أن طغتكين رغم مساعدته لأهل صور وطلبهم إليه ضمها لإمارته، وجد أنه من الحكمة عدم استفزاز الدولة الفاطمية بهذا الاجراء، ولذلك ترك مدينة صور على وضعها السابق ،وتعهد لأهلها بالمساعدة في حالة مواجهتها أي تهديد جديد من قبل الصليبيين(٧٤)، إلا أن الوضع في صور ازداد سوءا في السنة التالية أي سنة ٥٠٦هـ / ٢٨ يونيو ١١١٢م، ولهذا اضطر طغتكين الى ضمها رسميا لامارته، إلا أنه أبقى على السيادة الاسمية الفاطمية على تلك المدينة(٧٥). وفي تلك الاثناء كتب طغتكين الى الوزير الفاطمي الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي يحيطه علما بالظروف التي أجبرته على ضم صور لإمارته، ويحثه على إرسال نجدة مستعجلة مع وال يعول عليه للدفاع عن هذه المدينة المهمة، وفي حالة تحقق ذلك فسوف يسحب القوات الدمشقية من المدينة ويسلمها رسميا للفاطميين، الا أن الأفضل قد أغضبه فيما يبدوتصرف طغتكين تجاه صور الذي إن دل فإنما يدل على تشكك طغتكين في كفاءة الدولة الفاطمية في المحافظة على رعاياها وممتلكاتها في بلاد الشام، ويبدو أن الافضل لم يرسل ردا على رسالة طغتكين تلك(٧٦).

واشتد التهديد الصليبي في تلك السنة أي ٥٠٦هـ / ٢٨ يونيو ١١١٢م لمملكة حلب، ولهذا اضطر رضوان- ملك حلب - الى طلب المساعدة من منافسه وخصمه التقليدي طغتكين لمواجهة هذا الخطر الداهم القادم من إمارة انطاكية وصاحبها تنكريد، وتعهد رضوان بدفع عشرين ألف دينار لطغتكين مع وعد بمساعدات عينية

في حالة كبح أطماع تنكريد أمير أنطاكية الصليبي الذي كان في تلك الأثناء يحاصر قلعة أعزاز، إحدى أهم القلاع الاستراتيجية في ضواحي مدينة حلب، وقد رحب طغتكين بهذا العرض من الملك رضوان، ويمكن تبرير قبول طغتكين هذا الغرض بأن سقوط حلب بيد الصليبيين ـ التي تعتبر ثاني أهم مدن بلاد الشام بعد مدينة دمشق ـ سوف يعزز موقف الصليبيين في بلاد الشام ويزيد التهديد الصليبي لدمشق نفسها، وهذا الموقف الحكيم من طغتكين يؤكد مدى اتساع أفقه وتغليبه المصلحة العامة أولا فهو لم يتخل عن نصرة خصمه المعتاد الملك رضوان رغم العداء القديم المستحكم بينهما والذي سبق الحديث عنه، وهذا يؤكد أن منافسة القادة وخصوماتهم يجب أن لا تقدم على قضية الجهاد وصيانة حرمة الدولة الاسلامية التي يتربص بها الأعداء من كل جانب.

وعزف تنكريد عن حصار أعزاز وتهديد حلب عندما علم بزحف جيش دمشق بزعامة طغتكين نحو حلب، وتعهد الطرفان الدمشقي والحلبي على مواصلة التعاون والتحالف ضد الفرنجة في حالة تهديدهم لأحد طرفي هذا التحالف، كما قرر طغتكين الدعاء للملك رضوان على منابر مساجد إمارة دمشق اعترافا بسيادته على الامارة. ويبدو أن هذا الإجراء من قبل طغتكين لم يكن سوى اعتراف اسمى وليس اعترافا حقيقيا بسيادة الملك رضوان، على أية حال، سوف يُخل الملك رضوان بتعهده هذا مع طغتكين في نفس السنة عندما يقدم مائة فارس فقط لمساعدة طغتكين والحملة السلطانية بزعامة مودود النوكتين -صاحب الموصل- للجهاد ضد الصليبيين، ولهذا ألغى طغتكين هذا التحالف مع رضوان الذي ثبت أنه لازال يرهب مواجهة الصليبيين ولازال يهادنهم رغم تهديدهم المتواصل لمملكته المترنحة(٧٧)

وتعرضت إمارة دمشق تلك السنة خاصة أرياف وضواحي مدينة دمشق لغارات مملكة بيت المقدس الصليبية بزعامة الملك بلدوين الأول، مما دفع طغتكين الى الكتابة لمودود -صاحب الموصل- لطلب المساعدة(٧٨)، إلا أن تشكك السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، الحاكم الحقيقي للدولة العباسية أنذاك في العلاقات الودية بين طغتكين ومودود وظهور إشاعات تفيد أن هذين القائدين يتأمران على سيدهما

السلطان محمد- قد أخرت إرسال هذه الحملة، وكما أسلفنا فقد تعهد طغتكين في ذلك العام بالدعاء للملك رضوان على منابر إمارته، ويعزو أحد المورخين المحدثين وهو عماد الدين خليل صاحب كتاب «**المقاومة الاسلامية للغزو الصليبي**» ريبة السلطان محمد من مودود وطغتكين لاتفاقهما على الدعاء للملك رضوان صاحب حلب وإلغاء الدعوة للسلطان محمد، ويبرر عماد الدين خليل هذا التحالف بين طغتكين ومودود لاستغلال اسم الملك رضوان لتوحيد بلاد الشام والجزيرة الفراتية لمواجهة الخطر الصليبي دون الحاجة لانتظار أوامر السلطان محمد الذي عرف بتهاونه في قضية جهاد الصليبيين، إلا أن تواني رضوان في مساعدتهما في الحملة السلطانية العام القادم سيفشل مشروع هذا التحالف.

على أية حال، استغل طغتكين دهاءه وماله في كسب رضاء السلطان محمد وأظهر ولاءه له بارسال ابنه الاكبر تاج الملوك بوري، كما نجح مودود في تبديد مخاوف سيده السلطان محمد، ولهذا أذن له بالمسير مع قواته وقوات أخرى تحت قيادته لنصرة إمارة دمشق التي كان يتهددها الخطر الصليبي(٧٩). وعندما وصلت أخبار زحف قوات مودود جهة دمشق الى جوسلين -صاحب تل باشر التابع لمملكة بيت المقدس الصليبية - أرسل عرضا سخيا لطغتكين يقترح عليه استلام حصن الثمانين وجبل عاملة منه ويعوضه طغتكين بحصن حابس جالديك الواقع في السواد، كما عرض على طغتكين مناصفته واردات منطقة السواد التابعة لإمارة دمشق بدلا من الثلث كما سبق الحديث عن اتفاقية الصلح تلك الموقعة بين دمشق و مملكة بيت المقدس الصليبية سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٩م، ومنطقة السواد هذه منطقة زراعية خصبة تمتد بين شرق غور الأردن ومنطقة البلقاء، كما تعهد جوسلين بأن لا يتعدى على أقاليم إمارة دمشق ويحفظ المعاهدات المعقودة بينهما، الا أن طغتكين رفض هذا العرض السخي وزحف بقوات دمشق نحو سلمية الواقعة على بعد عشر كيلومترات شرق مدينة حماة للاجتماع بعسكر مودود(٨٠). وباغت العسكر الإسلامي جيش بيت المقدس الصليبي في الحادي عشر من محرم ٥٠٧هـ / الموافق ٢٩ يوليو ١١١٣م عند الاقحوانة على بعد ثلاثة أميال من مدينة طبرية على الطريق

المؤدي لدمشق، فقد هاجم جزء من العسكر المسلم- دون استعداد كاف- جيش بيت المقدس الصليبي وأوقعوا بهم هزيمة كبيرة قتلوا فيها ألفين من الاعداء حتى أن قائد الجيش الصليبي وهو الملك بلدوين الأول وقع في الأسر في تلك المعركة، إلا أنه أُطلق سراحه لأن الجندي المسلم الذي أسره لم يتمكن من التعرف عليه(٨١). ويعزو المؤرخ الصليبي المعاصر فولشر صاحب شارتر هزيمة الجيش الصليبي إلى وقوعه في كمين دبره الجيش المسلم حيث أغرى جزء من الجيش المسلم يقدر بخمسمائة رجل الجيش الصليبي بالهجوم عليه، ثم قام الجزء الرئيس وأوقعوا هزيمة كبيرة بالأعداء(٨٢)، ويحمل المؤرخ الصليبي وليم الصوري الملك بلدوين مسؤولية هذه الكارثة التي حلّت بالجيش الصليبي عند الأقحوانة ،فهو يرى أن بلدوين استعجل ملاقاة العسكر الاسلامي ليكسب نصرا يسجل باسمه وحده دون غيره فيحوز بذلك مجدا شخصيا له دون منافسة الزعماء الصليبيين كروجر أمير انطاكية وبونس كونت طرابلس(٨٣). وبعد هذه الهزيمة لجيش بيت المقدس، حوصرت القوات الصليبية بما فيها قوات انطاكية وطرابس التي أتت لنجدة قوات بيت المقدس، في جبال حول مدينة طبرية، وأثناء فترة الحصار ولصعوبة توفير الماء للعسكر الاسلامي طلب طغتكين من القبائل العربية المقيمة في المنطقة كقبائل طيء وكلاب وخفاجة، طلب منهم تزويد العسكر المسلم بالماء(٨٤). وواجه الفرنجة صعوبات جمة خلال فترة الحصار تلك التي امتدت لشهرين(٨٥) ومن جهة أخرى واجه الفرنجة في مدنهم التابعة لمملكة بيت المقدس خطرا شديدا، لأن أغلب جيشهم كان محاصرا آنذاك مع ملكهم قرب طبرية، ووفقا لرواية المؤرخ الفرنجي فولشر صاحب شارتر لم يجرأ الفرنجة على مغادرة مدنهم تلك ولو حتى لجمع المحاصيل الزراعية من أريافهم القريبة(٨٦) كما يؤكد وليم الصوري أن المسلمين الذين كانوا تحت السيادة الصليبية في مملكة بيت المقدس أخذوا يتعاملوا مع الصليبيين في مملكة بيت المقدس وكأنهم اصبحوا احرارا وكأن المنطقة كلها عادت للسيادة الاسلامية(٨٧) بل إن ابن القلانسي يذكر أن المسلمين الذين تحت السيادة الصليبية في فلسطين كتبوا لطغتكين صاحب دمشق يعرضون عليه قبولهم تحت سيادة إمارته كما طلبوا الامان لهم(٨٨) ومع أن الصليبيين المُحاصرين من قبلَ العساكر الاسلامية واجهوا مخاطر كبيرة إلا أن

المسلمين وجدوا أنه من المتعذر عليهم القتال والاستمرار في الحصار في تلك المنطقة الجبلية الوعرة غير الملائمه سواء لحركة الفرسان أو المشاة، كما أن أغلب عسكر مودود من التركمان الذين لم يعتادوا القتال لفترة طويلة اشتاقوا للعودة لأهليهم، بالإضافة إلى أن خطوط الإمداد للقوات الاسلامية أصبحت متعذرة، ولهذه الأسباب جميعا أعطى مودود لقواته التركمانية الاذن لفك الحصار والعودة لبلادهم على أن يعاودوا التجمع في الربيع القادم(٨٩). إلا أن كلا المؤرخين الصليبيين وليم الصوري وفولشر صاحب شارتر يعزوان فك هذا الحصار لقدوم حجاج صليبيين جدد «مقاتلين جدد» لنجدة أصحابهم المحاصرين في الجبال(٩٠) ولاشك أن ما حققته الحملة السلطانية بقيادة مودود صاحب الموصل وطغتكين أمير دمشق فاقت الحملتين السابقتين سنتي ٥٠٣هـ، ٥٠٥هـ / ١١١٠م، ١١١٢م، إلا أن هذا التحالف بين مودود وطغتكين سيتعرض لإخفاق كبير، عندما سيتهم السلطان محمد في هذه السنة طغتكين بتدبير مؤامرة اغتيال مودود صاحب الموصل عند الجامع الأموي بدمشق أثناء خروجه من صلاة الجمعة، ويبدو أن هذا الاتهام لم يبن على بينة بل هو نوع من الظن، ويرى بعض المؤرخين أن طغتكين كان متخوفا من أن تكون إقامة مودود في دمشق فرصة للسلطان محمد السلجوقي ليفرض سيادته الفعلية وليست الاسمية على إمارة دمشق، وفعلا أرسل السلطان محمد بُرْسُق بن بُرْسُق صاحب همذان لقيادة حملة سلطانية لفرض سيادته على بلاد الشام وخاصة امارة دمشق، وإنضم لعسكر همذان عسكر الموصل بقيادة جيوش بك وغيره من القواد، وقد أمرهم السلطان بقتل طغتكين وحليفه ونسيبه آيل غازي بن أُرتُق صاحب ماردين بديار بكر، ثم امرهم بعد تمكنهم من إخضاع هذين المتمردين على سلطانه بأن يستعيدوا ما أخذه الفرنجة من بلاد الشام والجزيرة(٩١). والجدير بالذكر أن آيل غازي هذا عُرف عنه تمرده وعصيانه للسلطان محمد، فأرسل له السلطان جيشا لتأديبه بقيادة آق سنقر البرسقي والي الموصل السابق في أواخر سنة ٥٠٨هـ، إلا أن آيل غازي هزم هذا الجيش قرب حصن كِيْفا بديار بكر، وفي أعقاب ذلك حذر السلطان محمد آيل غازي من مغبة عصيانه مما حدى بآيل غازي للسفر لبلاد الشام لطلب

النجدة من طغتكين أمير دمشق الذي ساءت علاقته مع السلطان محمد بسبب اتهامه بقتل مودود كما سبق ذكره.

وقبل زحف الحملة السلطانية بقيادة برسق في رمضان ٥٠٨هـ / ٣٠ يناير ١١١٣م، أرسل لؤلؤ الخادم- الوصي على الملك ألب أرسلان بن رضوان ـ صاحب حلب للسلطان محمد يدعوه لاستلام حلب قبل سقوطها بيد الفرنجة، ولكن عندما تقدمت القوات السلطانية بقيادة برسق بن برسق لاستلام حلب بناء على رغبة لؤلؤ الخادم هذا، تغيرت نية هذا الخادم، فكتب لطغتكين يطلب منه المساعدة لمواجهة الحملة السلطانية واستلام حلب وضمها لامارة دمشق، و يطلب تعويضه عن حلب بإقطاع يأخذه من دمشق، ويظهر أن طغتكين الذي لم يكن يتوقع هذه الفرصة السانحة لضم حلب لامارته أسرع بقواته وقوات حليفة آيل غازي التي كانت تقدر بألفين فارس نحو حلب واستلمها قبل وصول الحملة السلطانية(٩٢). وعندما وصل برسق لاستلام حلب، علم بمؤامرة لؤلؤ وتسليمه حلب لطغتكين، فحاول الاستيلاء عليها إلا أنه وجد تحصيناتها منيعة فعدل عن أخذها واتجه جنوبا للاستيلاء على مدينة حماة وهي من مدن الشام الرئيسه التي كانت تحت سيادة طغتكين أمير دمشق. وبعد أن تمكن برسق من أخذ حماة سلّم مدينة حماة لخيرخان بن قراجة صاحب حمص، والجدير بالذكر أن خير خان صاحب حمص وابن منقذ -صاحب إمارة شيزر ـ هما الوحيدان في ذلك الحين في بلاد الشام اللذان لازالا على ولائهما للدولة السلجوقية.

وعندما علم طغتكين بسقوط حماة بيد الحملة السلطانية في محرم ٥٠٩هـ /٢٧ مايو ١١١٥م ، أسرع بإرسال رسل لروجر أمير أنطاكية الصليبي مع هدايا ثمينة يدعوه لإقامة تحالف ضد الحملة السلطانية، كما قدم طغتكين رهائن للصليبيين لضمان هذا التحالف. ويبدو أن وصول أخبار أوامر السلطان لقادة الحملة السلطانية بقتل طغتكين وآيل غازي قد تأكدت باستيلاء الحملة السلطانية تلك على حماه، كما يضيف المؤرخ الصليبي وليم الصوري ان طغتكين أقام تحالفا مشابها لهذا التحالف مع ملك بيت المقدس بلدوين الاول(٩٣). ويعد هذا التحالف الغريب بين

إمارة دمشق مع الفرنجة حدثاً فريداً من نوعه، فلم يسبق لإمارة دمشق أن تورطت به، ويبرر فولشر صاحب شارتر هذا التحالف بتخوف طغتكين من خسارة إمارته(٩٤). كما أسلفنا سابقا فإن السلطان محمد أمر بقتل طغتكين وآيل غازي قبل أن تشرع الحملة بالجهاد ضد الصليبيين، فإنه يمكن الزعم بأن هدف هذا التحالف من قبل طغتكين ليس فقط لحفظ سلطته وحكمه في الدمشق، بل لحفظ حياته التي كانت مهددة من قبل السلطان نفسه(٩٥). ويؤكد المؤرخ الحلبي ابن العديم أن طغتكين بذل جهدا كبيراً لتجنيب الفرنجة مواجهة الحملة السلطانية، فقد تخوف طغتكين أنه في حالة هزيمة الحملة السلطانية فإن الصليبيين سوف يشرعون في الاستيلاء على ما تبقى من بلاد الشام بما فيه إمارة دمشق نفسها، كما أنه في حالة انتصار الحملة السلطانية على الفرنج فإن إستيلاء الحملة السلطانية على إمارة دمشق نفسها سيكون أمراً حتميا.(٩٦). واجتمعت جيوش الصليبيين مع حلفائهم المسلمين في أفامية الصليبية لانتظار الحملة السلطانية التي كانت في مدينة شيزر لمدة ثلاثة أشهر، إلا أنهم قرروا العودة إلى بلادهم(٩٧). ومن المحتمل أن الحملة السلطانية بقيادة برسق استغلت عودة الحلفاء لبلادهم لتفرض حصاراً على حصن كفر طاب التابع لإمارة أنطاكية الصليبية، مما حدا بروجر أمير أنطاكية للإسراع نحو كفر طاب وملاقاة الحملة السلطانية بعسكر أنطاكية فقط. وكانت المفاجأة في دانيث على بعد ثلاثين ميلا جنوب غرب مدينة حلب حيث انتصر جيش أنطاكية بمفرده بسهولة على الحملة السلطانية في ربيع ثاني ٥٠٩هـ / ٢٦ أغسطس ١١١٥م، وفقد العسكر الاسلامي حوالي ثلاثة آلاف رجل، وهذا الانتصار الكبير الذي حققته أنطاكية وحدها دون مساعدة الحلفاء جعلت المؤرخ الصليبي المعاصر فولشر صاحب شارتر يطعن في مصداقية وجدية هذا التحالف الذي عقده طغتكين - أمير دمشق - وآيل غازي - صاحب ماردين - مع كل من مملكة بيت المقدس وإمارة انطاكية الصليبيتين، ويعزز رأي فولشر هذا الفرضية الآنفة الذكر والتي تقول بأن طغتكين لم يكن جادا في تحالفه مع الصليبيين، ولهذا أقنعهم بالعودة إلى بلادهم حتى يتجنب ملاقاة الحملة السلطانية، والتي ستوقعه في حرج كبير بتحالفه مع أعداء الاسلام من الصليبيين، وستكون عقباها غير محمودة لو اشترك هو شخصيا في القتال إلى

جانب القوات الصليبية الغازية لبلاد الاسلام ضد إخوانه في الاسلام وعلى رأسهم السلطان محمد السلجوقي صاحب الكلمة الأولى في الدولة العباسية، وهكذا فشلت الحملة السلطانية في تحقيق أهدافها، ونجت إمارة دمشق من خطر كبير .(٩٨).

ونعود الآن من جديد إلى الحديث عن علاقة إمارة دمشق بالفاطميين في مصر والذين لازالت لهم حتى ذلك الحين بعض المواقع الساحلية التابعة لهم في بلاد الشام مثل صور وعسقلان الاستراتيجيتين، وأهمية التعاون بين دمشق ومصر للوقوف في وجه التوسع الصليبي في بلاد الشام، فكما ذكرنا سابقا استلم طغتكين صور في سنة ٥٠٦هـ / ٢٨ يونيو ١١١٢م من أهلها وعيّن لها واليا من قبله يُدعى مسعود ليحمي تلك المدينة المهمة من السقوط بيد قوات صليبيي بيت المقدس الذين كانوا يبذلون قصارى جهدهم لاتمام الاستيلاء على كل ساحل فلسطين، ففي ذي الحجة ٥٠٦هـ/ ١٨ مايو ١١١٣م، أرسل طغتكين برسول للأفضل وزير الخليفة الفاطمي ليظهر له مدى جهوده المضنية التي يبذلها للدفاع عن صور ويؤكد على أهمية عدم إغفال أمر صور وضرورة إرسال مساعدة عاجلة لها(٩٩). وقد وعد الأفضل طغتكين بالمساعدة، كما تضمن رد الأفضل ما يفيد رضاءه عن مبررات ضم طغتكين مدينة صور لإمارته في تلك الظروف الصعبة حتى يأتي من يعوّل عليه من قبل الفاطميين للدفاع عن المدينة حتى تعود للسيادة الفاطمية كما كانت سابقاً، كما أرسل الأفضل بخلعه لطغتكين وابنه الأكبر تاج الملوك بوري يظهر فيها استحسانه ورضاءه عن جهود إمارة دمشق في خدمة قضية الجهاد ضد الصليبيين والدفاع عن ما تبقى من أملاك الفاطميين في بلاد الشام. وفعلا وصلت مساعدة من قبل الأفضل الى صور مما دعّم وقوّى دفاعاتها، ويبدو أن هذه المساعدة اضطرت ملك بيت المقدس بلدوين الأول الى الكتابة في ربيع الآخر ٥٠٧هـ / ١٥ سبتمبر ١١١٣م لوالي صور المدعو مسعود مقترحا عليه عقد صلح بينهما، وقبل مسعود هذه الهدنة التي كان لها أهمية في انتعاش تجارة صور التي تضررت كثيرا خلال السنوات الماضية بسبب تعدي مملكة بيت المقدس عليها(١٠٠).

وهاجم طغتكين بعسكر دمشق في جمادى الاخرة من هذا العام/٢١ أكتوبر

١١١٥م مدينة رفانية الواقعة على بعد خمسة عشر ميلا شمال غرب مدينة حمص والتي كان الصليبيون قد استولوا عليها في هذه السنة، ونجح طغتكين في استعادتها من صليبيي إمارة أنطاكية، وأسر جميع حراس المدينة الصليبيين، ثم سلّم المدينة لأحد قواد جيشة يُدعى شمس الخواص، والذي كان سابقا قائد عسكر مملكة حلب، ثم عاد طغتكين بعسكره إلى مدينة دمشق، ومن المرجح أن استئناف طغتكين لعملياته العسكرية ضد الصليبيين كان لتبييض صفحة علاقته مع السلطان محمد السلجوقي التي اسودت بتحالفه مع هؤلاء الأعداء ضد الحملة السلطانية بقيادة برسق بن برسق - صاحب همذان - التي سبق ذكرها بداية تلك السنة. و لتأكيد ولائه للسلطان محمد وإلغاء تحالفه مع صليبيي بيت المقدس وأنطاكية. ويتضح لنا بجلاء تحيز المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي عند ذكره أسباب سوء العلاقة بين طغتكين والسلطان محمد، فهو لم يذكر مسألة تحالف طغتكين مع الصليبيين لا من قريب ولا من بعيد، بل يُبرر الجفوة التي حدثت بين السلطان محمد وطغتكين صاحب دمشق بالدسائس التي ضلع بها بعض بطانة السلطان محمد الذين أرادوا إفساد علاقته مع طغتكين، وقام طغتكين بمبادرة جريئة لتحسين علاقته بالسلطان وذلك بالسفر شخصيا إلى السلطان، وإظهار طاعته وولائه له، ورغم تحذير أكثر أصحاب طغتكين المقربين له من مغبة هذه الزيارة خوفا من بطش السلطان وغدره به، إلا أنه أصر هذه المرة على الذهاب شخصيا لمقابلة السلطان والخليفة العباسي محملا بهدايا ثمينة معبرا بها عن طاعته وولائه لهما، وقبل السلطان اعتذار طغتكين، وأصدر له مرسوما مطولا جديدا بولاية إمارة دمشق وكل منطقة يحررها من الأعداء الصليبيين، وبهذا حقق طغتكين له ولأسرته من بعده كسبا كبيرا بحصوله على اعتراف رسمي من السلطان السلجوقي بحكم إمارة دمشق التي استبد في حكمها منذ وفاة الملك أرتاش بن دقاق الابن الوحيد للملك دقاق، في صفر ٤٩٨هـ / ٢٢ أكتوبر ١١٠٤م(١٠١).

وترى المؤرخة الانجليزية المحدثة كارول هيلينبراند - في مقالتها المنشورة بعنوان «شخصية نجم الدين آيل غازي» في Der Islam المجلد ٥٨ سنة ١٩٨١م أن

السلطان محمد لم يطلب من طغتكين قطع علاقته وتحالفه مع آيل غازي صاحب ماردين ،بل تضيف أن طغتكين حاول التوسط عند السلطان محمد لحليفه أيل غازي ولكنه لم ينجح(١٠٢).

وقام ملك بيت المقدس الصليبي بلدوين الأول في هذه السنة اي ٥٠٩هـ / ٢٧ مايو ١١١٥م بهجوم مباغت على مدينة الفرما الواقعة على الساحل الشرقي لمصر، ويعتبر هذا الهجوم الأول من نوعه الذي يقوم به الصليبيون على أراضي داخل مصر نفسها منذ بداية الغزو الصليبي، ويبدو أن حملة الملك بلدوين الأول هذه كانت تهدف فقط الى الإستطلاع واختبار دفاعات الفاطميين بمصر وليس لهدف الاحتلال، والدليل على ذلك هو صغر حجم تلك الحملة فلم يتجاوز عدد المشاركين فيها سوي عدة مئات. وكان لتلك الحملة وقع عظيم على الفاطميين ووزيرهم الأفضل، كما يظهر أن الفاطميين لم يتوقعوا هذه الحملة والدليل على ذلك أن الصليبيين لم يُواجهوا بقوات فاطمية نظامية، بل إن المقريزي المؤرخ المصري المعاصر والمعروف بتعاطفه للفاطميين، يذكر أن البدو هم الذين واجهوا الصليبيين وليست القوات الفاطمية النظامية، ويضيف أن الملك بلدوين قُتل في هذه الحملة ولكن قواته لم تفش خبر مقلته إلا بعد أن عادت لبلادها(١٠٣). وكان لهذه الحملة الصليبية أثر سلبي على العلاقات الدمشقية الفاطمية فقد بعث الوزير الأفضل برسالة شديدة اللهجة الى طغتكين يوبخه بشدة لإهماله مراقبة القوات الصليبية التي اجتازت حدود إمارته في طريقها نحو الفرما بمصر وعدم إبلاغه بتحرك قواتهم المعتدية، ويبدو أن طغتكين أجاب على هذه الرسالة بإجراء عملي وذلك بزحفه بقوات دمشق نحو مدينة عسقلان التابعة للفاطميين وتقديم الدعم اللازم لها ثم عاد لدمشق(١٠٤)، ولا يستبعد بأن هذا الاجراء كان له وقعٌ طيب على الوزير الفاطمي الأفضل صاحب القرار في الدولة الفاطمية وخفف من حنقه على طغتكين وإمارة دمشق.

وتمكن طغتكين في السنة التالية أي ٥١٠هـ / ١٥ مايو ١١١٦م من كسب حليف جديد لصفه كحليفه السابق القوي مودود ـ صاحب الموصل ـ الذي قُتل قبل ثلاثة

أعوام في مدينة دمشق، هذا الحليف الجديد هو آق سنقر البرسقي صاحب الرحبة الذي كان قد عُزل منذ سنة من ولاية الموصل واستُبدل بجيوش بك كحاكم للموصل وعوض عنها بالرحبة، وسيكون لهذا التحالف الجديد بين طغتكين والبرسقي نتائج طيبة على حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزاة الصليبيين الجاثمين على بلاد الشام والجزيرة. ففي هذه السنة أي ٥١٠هـ، قام بترام صاحب كونتيه طرابلس الصليبية بتأسيس حصن منيع في بارين شرق جبال النصيرية حتى يتمكن من التحكم في مدخل سهل البقاع التابع لإمارة دمشق، وعندما وصلت أخبار نهب بترام كونت طرابلس لسهل البقاع إلى مسامع طغتكين، اجتمعت كل من قوات طغتكين وقوات آق سنقر البرسقي، وزحفت تجاه قوات طرابلس الصليبية، وتمكنت القوات الإسلامية المتحالفة من مباغتة قوات طرابلس ودمرتها وشتت شملها عند منطقة عين الجر على بعد حوالي خمسة عشر ميلا شمال غرب مدينة دمشق، وقد تمكن بترام مع بعض قواته من النجاة من الكارثة بجهد كبير، ووفقا لرواية ابن القلانسي خسر بترام في هذه المعركة حوالي ثلاثة آلاف رجل وأسر أكثر كبار قواد جيشه(١٠٥). وكان هذا النصر الكبير ثمرة لهذا التحالف الإسلامي المبارك بين قوات دمشق بقيادة طغتكين وقوات الرحبة بقيادة آق سنقر البرسقي وسوف نرى كيف سيتعزز هذا التحالف مستقبلا لصالح قضية الجهاد ضد الغزاة الصليبيين كما سيعزز هذا النصر موقف إمارة دمشق وستتخذ موافقاً أكثر شدة وحزما تجاه الصليبيين، وفعلا تحقق ذلك سنة ٥١٢هـ /٢٤ ابريل ١١١٨م فعندما كانت قوات دمشق بقيادة طغتكين زاحفة داخل أراضي مملكة بيت المقدس الصليبية عبر نهر اليرموك تلقى طغتكين رسولا من ملك بيت المقدس الجديد بلدوين الثاني - وهو ابن اخ الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس السابق الذي توفي سنة ٥١٠هـ / ١٥ مايو ١١١٦م - طالبا منه توقيع معاهدة جديدة بينهما، وأظهر طغتكين في هذا العرض قوته مستغلا النصر الذي حققه بتحالفه مع آق سنقر البرسقي ضد كونتيه طرابلس الصليبية قبل سنتين، كما طالب بإلغاء المعاهدة السابقة التي عقدت سنة ٥٠٣هـ / ٣١ يوليو ١١٠٩م، الخاصة بمناصفة مملكة بيت المقدس وإمارة دمشق لجبل عوف، الحبابيةَ ومدينة السَّلطَ - الواقعة على بعد حوالي سبعة عشر ميلا شمال غرب

مدينة عمان ـ وكذلك منطقة غور الأردن، وحاول الرسول الصليبي إظهار قوة موقف مملكة بيت المقدس فرفض عرضّ طغتكين، فما كان من طغتكين إلا أن رد عليه ردا عمليا بنهب مدينة طبرية التابعة لمملكة بيت المقدس الصليبية، ثم تقدم لمدينة عسقلان الفاطمية حيث تلقى عرضا من الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله أبي علي المنصور بقيادة حملة فاطمية يقودها طغتكين تقدر بسبعة آلاف فارس قادمين حديثا من مصر للثأر من مملكة بيت المقدس التي غزت قبل ثلاث سنوات مصر الفاطمية واعتدت على منطقة الفرما كما سلف ذكره، ويبدو أن هذا العرض لاقى استحسانا من طغتكين إلا أنه لم يستفد منه الاستفادة المثلى فلم يقم خلال فترة إقامته في عسقلان التي امتدت شهرين من القيام بأي إجراء عسكري ضد صليبيي بيت المقدس وعاد قافلا لمدينة دمشق. وفي الوقت الذي لم يغتنم طغتكين تلك الفرصة السانحة، جاءته نكسة لم يتوقعها أضعفت من موقفه التفاوضي مع مملكة بيت المقدس فحدث ذلك الحين أن استسلمت قوات حصن «حابس جالدك» الإسلامية لصليبيي بيت المقدس، كما قامت قوات بيت المقدس الصليبية بنهب مدينة أذرعات (درعا الحالية) الواقعة على بعد خمسة عشر ميلا شمال غرب مدينة بصرى والتي كانت تحت سيادة امارة دمشق، وفي الحال طلب أهالي المناطق التي نهبت من قبل الصليبيين وهما حصن حابس جالدك وأذرعات النجدة من طغتكين، فقد تعرضت هاتين المنطقتين للنهب من قبل قوات صليبية من بيت المقدس تقدر بحوالي مائة وثلاثين رجلا، ودون تودد أرسل طغتكين ابنه الأكبر تاج الملوك بوري لتعقب القوات الصليبية المعتدية، وتمكنت القوات الصليبية من الفرار من قوات بوري والاحتماء بأحد الجبال القريبة من المنطقة، وقد نصح طغتكين ابنه بوري قبل إرساله لتعقب القوات الصليبية بعدم تعقب هؤلاء إذا لجأوا لمنطقة جبلية فقد علمته خبرته الطويلة في قتال الصليبيين أن هؤلاء إذا اضطروا إلى القتال في مثل هذه الظروف الصعبة - أي عندما يكون العدو خلفهم والجبال أمامهم فإنهم يستميتون في القتال للنجاة من الموت المحققّ، إلا أن بوري لم يستمع لنصيحة والده المجرب. وتعقب الصليبيين عندما فروا للاحتماء بأحد الجبال، فانقلبوا لقتاله بشراسة وهزموا جيشه شر هزيمة، وفر هو بالناجين الى دمشق. (١٠٦)

بعد هذه الهزيمة لعسكر دمشق بقيادة بوري بن طغتكين، ذهب طغتكين لزيارة نسيبه حاكم حلب الجديد آيل غازي بن أرتق لطلب النصرة ضد الصليبيين الذين كانوا يهددون إمارة دمشق. ولن نجافي الحقيقة إذا قلنا إن تعزيز سلطة آيل غازي في حلب سيؤثر إيجابيا ليس فقط على إمارة دمشق، بل على قضية الجهاد الاسلامي ضد الغزاة الصليبيين في الفترة الممتدة بين سنتي ٥١١ هـ الى ٥١٦ هـ / ١١١٧ - ١١٢٣م، وهي الفترة التي حكم فيها آيل غازي هذه المدينة المهمة في شمال بلاد الشام وحفظها بحفظ الله من السقوط بيد الصليبيين، الذين كانوا يناضلون آنذاك للاستيلاء عليها لإضعاف بقية القوى الإسلامية في بلاد الشام وخاصة إمارة دمشق الواقعة جنوب بلاد الشام والتي كانت شوكة في حلوقهم ووقفت حجر عثرة أمام مشروعهم التوسعي الكبير، الذي كان يهدد بالاستيلاء الكامل على كل بلاد الشام وليس الاكتفاء بالمناطق الساحلية كما كان حاصلا بالفعل، إن استلام آيل غازي بن أرتق صاحب ماردين وميافارقين لمدينة حلب سنة ٥١١ هـ / ٥ مايو ١١١٧م ، بدأ عندما واجهت هذه المدينة الإسلامية الاستراتيجية تلك السنة تهديداً خطيراً من جيرانها صليبيي إمارة انطاكية وكونتيه الرها، وقد ساءت حالة مملكة حلب وتفاقمت خاصة بعد مقتل الخادم لؤلؤ الوصي على ملك حلب القاصر المدعو سلطان شاه بن ألب أرسلان بن رضوان بن سلطان تتش، واضطر أهل حلب - وهم شيعة إمامية - إلى طلب النجدة من حاكم سني المذهب من أصل تركماني - هو آيل غازي صاحب ماردين وميافارقين بديار بكر، وعرضوا تسليم مدينتهم له لإنقاذها من الخطر الصليبي الوشيك عليها، وفعلا وافق آيل غازي على هذا الطلب واستلم حلب في سنة ٥١١ هـ / في ٥ مايو ١١١٧م، وعلى الرغم من أن آيل غازي احتفظ بقاعديته الرئيستين في ديار بكر وهي ماردين وميافارقين واستمر في الإقامة في هاتين المدينتين رغم أنهما أقل حجما وأهمية من مدينة حلب التي استناب فيها ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبدالجبار بن أرتق، ورغم إقامة آيل غازي في ديار بكر بعيدا عن بلاد الشام، إلا أنه سيكرس جهده لجهاد الصليبيين في بلاد الشام.

(١٠٧)

وليس من المستبعد أنه كان لطغتكين - أمير دمشق - دور مهم في إقناع نسيبه آيل غازي لاستلام حلب وما ترتب على ذلك من إقامة تحالف بينهما أي بين إمارتي حلب ودمشق لمواجهة التهديد الصليبي المشترك الذي يتهدد امارتيهما، فبينما كان خطر صليبيي أنطاكية والرها يهدد إمارة حلب، كان خطر صليبيي بيت المقدس وطرابلس يهدد إمارة دمشق.

وكما أسلفنا فقد قام طغتكين في ذي الحجة ٥١٢ هـ / ١١ مارس ١١١٩م بزيارة لحلب لمقابلة آيل غازي حاكم حلب الجديد، وقد آتت الزيارة ثمارها وتعاهد الطرفان لتشكيل حلف ضد الغزاة الصليبيين وبخاصة صليبيي إمارة انطاكية الذين كانوا لا ينفكون عن تهديد حلب حتى يضموها لاماراتهم، وأثناء زيارة طغتكين تلك قام صليبيو بيت المقدس بنهب إقليم حوران التابع لإمارة دمشق والواقع جنوب مدينة دمشق، وقد تمكن الصليبيون من قتل بعض أهالي هذا الاقليم وأسر البعض الآخر، وفي الحال غادر طغتكين حلب بعسكره نحو عاصمة إمارته للدفاع عنها من تهديد صليبيي مملكة بيت المقدس، وفي تلك الأثناء عقد آيل غازي هدنة مع صليبيي أنطاكية، ويبدو أنه أراد أن يستغل فترة الهدنة تلك حتى يتمكن من زيارة ماردين مقره الرئيس في ديار بكر؛ ليحشد أكبر عدد ممكن من متطوعي التركمان هناك (١٠٨).

واستطاع آيل غازي حشد عدد كبير من التركمان قدره ابن الأثير بعشرين ألف، بينما قدره ابن العديم بضعف تقدير ابن الأثير، ويبدو أن تقدير ابن الأثير هو الأقرب للواقع. ووصلت الأنباء في الخامس عشر من ربيع اول سنة ٥١٣ هـ / الموافق ٢٦ يونيو ١١١٩م لطغتكين وآيل غازي اللذين حشدا أكثر من عشرين ألف مقاتل أن روجر أمير أنطاكية الصليبي تقدم بقوات أنطاكية التي تقدر بثلاثمائة فارس وتسعة آلاف رجل جهة وادي عفرين قرب حصن الأثارب ونجح الجيش الإسلامي في مباغتة القوات الصليبية المعتدية وإبادتها في موقعة البلاط، على بعد عدة أميال شمال حصن الأثارب، ووفقا لرواية مؤرخ حلب ابن العديم خسر المسلمون في هذه المعركة المظفرة عشرين رجلا فقط بينما لم ينجوا من جيش أنطاكية سوى

عشرين شخصا لم يكن من ضمنهم أميرهم. وهذا أول نصر كبير يكتبه الله للمسلمين على الصليبيين يتحقق على يد آيل غازي صاحب حلب وماردين بتحالفه مع حاكم دمشق طغتكين، وهذه المرة الأولى التي يُقضى فيها على جيش صليبي كامل بهذه الصورة وتخسر أنطاكية - وهي ثاني قوة عسكرية صليبية بعد مملكة بيت المقدس في المشرق - أغلب قواتها ورجالها الشجعان. وبعد هذه الكارثة التي حلّت لصليبيي أنطاكية في معركة البلاط - والتي يسميها المؤرخون الصليبيون «ساحة الدم» لكثرة من قُتل من أتباعهم فيها - لم يزحف آيل غازي بقواته المنتصرة لتحرير مدينة أنطاكية التي لم يكن هناك من يستطيع الدفاع عنها بعد خسارتها لخيرة رجالها وقواتها في تلك المعركة، ويعزو ابن القلانسي عدم قيام آيل غازي باستعادة مدينة أنطاكية لرجوع كثير من قواته التركمانية التي كانت شديدة الفرح بما كسبته من غنائم كثيرة في تلك المعركة والذين كانوا مستعجلين العودة إلى أهليهم في ديار بكر بعد فراقهم الطويل لهم، ويبدو أن التركمان حتى ذلك الحين لم يتعودوا الدخول في حروب طويلة كحروب حصار المدن التي قد تستغرق أشهرا، وهذا من دون شك يعتبر عيبا من عيوب تكتيك المسلمين في جهادهم للصليبيين في ذلك الحين. وذلك أن الانتصارات الاسلامية السريعة كانتصارهم في معركة البلاط لن تُجني ثمارها اذا لم يتبعها تحرير المدن والحصون المهمة من الصليبيين والتي يتطلب حصارها فترة طويلة لم يتعود التركمان حتى ذلك الحين على هذا النوع من القتال، فقد اعتادوا الحروب الخاطفة التي تحسم بسرعة، ومن جهة أخرى يرى ابن القلانسي أن عدم حضور طغتكين المعركة شخصيا، أفقد آيل غازي مشورة قائد خبير بقتال الصليبيين كطغتكين والذي يعتقد ابن القلانسي أنه كان سينصحه بأخذ مدينة أنطاكية. ويورد ابن العديم رواية تؤكد أن التركمان دفعوا آيل غازي لقتال الصليبيين بقواته دون الانتظار لقوات دمشق التي كان يقودها طغتكين. بينما تفيد الروايات الأخرى أن جيش دمشق شارك في القتال بينما طغتكين نفسه لم يشارك شخصيا. ويلوم المؤرخون المسلمون المعاصرون آيل غازي لعدم استغلاله الفرصة السانحة لتحرير أنطاكية بعد نصر معركة البلاط تلك (١٠٩)

ويبدو أن ابن القلانسي كان مخطئاً في لوم آيل غازي في عدم استيلائه على أنطاكية، ويبدو أن المسلمين في ذلك الوقت لم يحصلوا على أي فائدة من الاستيلاء على عواصم الامارات الصليبية لانهم لو إستولوا على تلك البلاد الهامة، فسوف يرسل الصليبيون في أوروبا الغربية حملة كبيرة كما سوف يحدث في الواقع في ٥٤٢ هـ / ٢ يونيو ١١٤٧م بعد سقوط الرها في يد زنكي حاكم الموصل وحلب، في ٢٦ جمادى الآخرة ٥٣٩ هـ / الموافق ٢٣ ديسمبر ١١٤٤م ، وهذا يعني أن المسلمين كانوا يخططون لاستنزاف الصليبيين في بلاد الشام، وسُيجبر الصليبيون نتيجة لهذا النوع من الحرب على مغادرة بلاد الشام للمسلمين فيما بعد، وكذلك في الأعوام الأولى من تولي نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب،حيث سيفعل نور الدين نفس ما فعله آيل غازي من قبل مع أنطاكية عندما سيبيد جيشها في صفر ٥٤٤ هـ / ١١ يونيو ١١٤٩م في إنَّب التي تقع على بعد خمسة وثلاثين ميلاً جنوب غرب حلب. وقبل هزيمته في ساحة الدم «بلاط» طلب روجر أمير أنطاكية المساعدة من الملك بلدوين الثاني الذي كان مشغولا في محاربة رجال دمشق بالقرب من نهر الاردن، وبعد نجاحه في ابعادهم عن مقاطعاته، أسرع الى مساعدة أهالي أنطاكية الذين فقدوا جيشهم في ساحة الدم، ويبدو أن طغتكين قد أرسل قواته ليشغل بلدوين الثاني بهدف منعه من مساعدة أنطاكية، ثم تقدم الملك بلدوين الثاني مع جيش مملكته وجيش الرُها التي كانت تحت وصايته إلى زَرْدَنا التي تقع على بعد خمسة عشر ميلا جنوب غرب حلب، وعندما سمع أهالي القدس عن تقدم آيل غازي، جادل بعضهم بعضا عما إذا كانوا سيتقدمون لمحاربة آيل غازي أو يظلوا في القدس، (١١٠) وطبقا لرواية فولشر صاحب شارتر، تقدم بلدوين الثاني نحو أنطاكية التي سلبها التركمان والتي ولم يجرؤ أهلها على الخروج خارج مدينتهم ولو ميلا واحدا، وعندما علم التركمان بقرب بلدوين الثاني منهم، انسحبوا في اتجاه حلب، ومن ثم تقدم آيل غازي في اتجاه أرتاح حيث انضم جيش الدمشقيين بقيادة طغتكين إلى جيشه، ثم نجحوا في إعادة الأثارب وزردنا التي تركها قائدها الصليبي وتوجه نحو أنطاكية، وقد رجع غالبية تركمان آيل غازي في تلك الأثناء إلى وطنهم

بعد استرداد زردنا، ومن ثم تقدم آيل غازي وطغتكين ناحية دانيث وقابل روبرت المفلس الوالي الصليبي السابق لزردنا والذي كان في أنطاكية مع أربعمائة فارس بالإضافة للمشاة، وتمكن الصليبيون أولا من هزيمة القوات الاسلامية ولكن نجح المسلمون فيما بعد على إجبار الصليبيين على الانسحاب إلى حصن هاب التابع اليهم. وبعد ذلك قابل الصليبيون بما فيهم صليبيو بيت المقدس، طرابلس، وحصن زردنا، المسلمين بالقرب من دانيث، وطبقا لرواية لفولشر صاحب شارتر فقد قُتل أو جُرح العديد من الفرنجة والتركمان في تلك المعركة غير الحاسمة التي استمرت ثلاثة أيام بالقرب من معرة مصرين الواقعة على بعد عشرة أميال شمال شرق دانيث، ويضيف فولشر قائلا أن بلدوين تراجع إلى أنطاكية ورجع الجزء الأكبر من جيش آيل غاري إلى بلادهم (١١١) ويذكر ابن الاثير أن جيوش آيل غازي وطغتكين حاصرت جيش الفرنجة لمدة ثلاثة أيام، ولكنهم رفعوا الحصار لأن طغتكين خاف أن يحارب الفرنجة بيأس فيستبسلوا في القتال، كما كان لدى طغتكين شكوك في فاعلية وكفاءة خيول التركمان التي اعتادت الفرار بسرعة عند اشتداد القتال وليست كخيول الفرنجة التي كانت مدربة بصورة أفضل على القتال من خيول التركمان. وبالإضافة إلى ذلك لم يكن لدى آيل غازي مال كاف ليغري التركمان بالاستمرار معه لمدة أطول (١١٢).

وفقد طغتكين عام ٥١٥هـ/ ٢٢ مارس ١١٢١م، واحدا من أهم حلفائه ألا وهو الأفضل وزير مصر، فقد حكم هذا الوزير ووالده بدر الجمالي مصر لمدة خمسين عاماً. وتمكنوا من الاستئثار بكل السلطات في أيديهما، وقد دبر الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام اللّه نفسه اغتيال وزيره. (١١٣)

وخسر المسلمون في الثالث والعشرين من جمادى الاولى ٥١٨هـ / الموافق ٧ يوليو ١١٢٤م خسارة كبيرة عندما احتل الصليبيون مدينة صور الاستراتيجية، فمنذ ثمانية أعوام أي في ١٠ هـ/ ١٦ مايو ١١١٦م، أصبحت صور المدينة الساحلية الثانية بعد عسقلان التي لم تحتل حتى ذاك الحين بواسطة الفرنجة. وقد أسس الملك بلدوين الثاني حصنا يدعى سكاندليون - الواقع بين عكا وصور - ليسهل عملية

الاستيلاء على صور. وأنشأ هذا الحصن ملجأ للفرنجة في حالة هزيمتهم على يد أهالي صور أو قوات مناصرة لهم. (١١٤) وقد حاول بلدوين الأول - كما ذكر - في ٥٠٥ هـ / ١١١٢ / م الاستيلاء على المدينة، ولكنه فشل، وقد لعب طغتكين - أمير دمشق - دورا هاما في إفشال تلك المحاولة. ويعتقد وليم الصوري أن مدينة صور قبل احتلالها من قبل الفرنجة في ٥١٨ هـ / الموافق ١٩ فبراير ١١٢٤ م كانت مقسمة إلى ثلاثة أجزاء، فكان ثلثا المدينة خاضعا للخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله، أما الثلث المتبقي فقد منحه الخليفة الفاطمي لطغتكين ليحميه من الفرنجة، وكان هذا الجزء الثالث تابعا اسميا للخلافة الفاطمية (١١٥)، ومن ناحية أخرى أمدنا ابن القلانسي بتفاصيل أكثر عن وضع صور قبل احتلالها، فذكر أنه في ٥١٦ هـ/ ١٢ مارس ١١٢٢م، استعاد فاطميوا مصر مدينة صور من إمارة دمشق عندما تآمروا ضد حاكمها المدعو مسعود، وهكذا أصبحت صور تحت سلطة المصريين المباشرة، ولكن عندما اكتشف الوالي الجديد أنه لا قبل له بالصليبيين لحماية المدينة من دون معاونة طغتكين، كتب لطغتكين يناشده المساعدة، فأجاب طغتكين ساخرا منه ومؤكدا له أنه يجب عليه طلب المساعدة من الخليفة الفاطمي وليس منه شخصيا، وعندما علم الفرنجة بطرد مسعود وتعيين وال جديد تابع للفاطميين، أعدو أنفسهم بهدف الاستيلاء على المدينة، وعلى أية حال، فقد أقنع الوالي الجديد الخليفة الفاطمي أن يعيد المدينة إلى طغتكين الذي وافق على عودتها، وعين واليا جديدا أرسله مع مجموعة من القادة لحماية المدينة، واعتقد طغتكين أن أهالي صور وواليهم الجديد يمكن الاعتماد عليهم في الدفاع عن بلدهم، ولكن خاب ظنه بهم جميعا (١١٦).

ومدينة صور واحدة من أعظم المدن الحصينة في ذلك الوقت، وكانت شبه جزيرة محاطة ببحر هائج، وكان الدخول الى المدينة من البحر محفوفا بالمخاطر لوجود صخور مخيفة فيه تسبب ضررا بالغ الخطورة للسفن إذا لم يكن بحارة هذه السفن على علم بالساحل وقادرين على تجنب هذه المخاطر المخيفة وبصورها المؤرخ الصليبي المعاصر وليم الصوري بما يلي:

«على جانب البحر كانت تقف مدينة صور محاطة بسور مزدوج من أبراج ذات

ارتفاع لا بأس به على مسافات منفصلة ،ومتساوية. وفي الشرق حيث ممر مائي يمتد بالقرب من اليابسة، ولها أسوار ثلاثية، وأبراج ضخمة هائلة الارتفاع وقريبة من بعضها بعضا حتى ليكاد يلمس بعضها بعضا، وكان هناك أيضا رصيف عريض حيث يمكن للمواطنين من خلاله أن يصلوا إلى البحر من كلا البرجين، وفي الشمال حيث يحرس مدخلها برجان اثنان، وكان في الداخل الميناء الذي يمتد بين أسوار المدينة، وكان الشاطىء الخارجي يستقبل الامواج العنيفة ويضعف من خطورتها، وهكذا فقد بُني الميناء بصورة جيدة ليوفر الأمن لإبحار السفن بين اليابسة والجزيرة، وليمثل حماية للمدينة من أنواع الرياح المختلفة ماعدا تلك الرياح الآتية من الشمال» (١١٧).

وحاصر الفرنجة عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤م مدينة صور من البحر واليابسة، ووفقا لما أورده وليم الصوري فان الفرنجة أ وقفوا سفنهم على أرض جافة بالقرب من الميناء باستثناء سفية شراعية مسطحة واحدة تركت لاي غرض طاريء، ثم قاموا بعد ذلك بحفر قناة عميقة من البحر الى الداخل مطوقين في ذلك كل جيوشهم وذلك لحمايتهم من المدافعين عن المدينة. (١١٨) كما بنى الصليبيون برجا أعلى من أبراج المدينة لكي يطلوا منه على أرجاء المدينة كلها، وصنعوا منجنيقات لرمي الصخور الكبيرة لتدمير الأسوار والأبراج في المدينة، ولقد أُنهك أهالي صور من جراء الهجمات والمناوشات الحربية المستمرة، ولكنهم نجحوا بامكاناتهم القليلة في تقليل مخاطر الآلات التي صنعها الفرنجة (١١٩)، وخلال فترة الحصار انضم بونز كونت طرابلس بقواته إلى الجيش الصليبي، وقد سبب وصوله زيادة مخاوف أهالي صور وقوى معنويات الفرنجة من جهة اخرى (١٢٠)، ولعب الفرسان الدمشقيون في مدينة صور الدين بلغ تعدادهم حوالي سبعمائة دورا بارزا في الدفاع عن المدينة وكذلك في تشجيع أهالي صور الذين كان معظمهم غير محترفين لفنون القتال، وخلال فترة فرض الحصار على مدينة صور حاول أهالي عسقلان ـ التابعين للخلافة الفاطمية ـ أن يخففوا الضغط على أهالي مدينة صور بغزوهم أراضي مملكة بيت المقدس الصليبية، ولكنهم أجبروا على الانسحاب، وأُصيب أهالي صور بخيبة أمل لتباطىء

الخلافة الفاطمية في إنجادهم. وتقدم طغتكين بجيش كبير، وعسكر بجوار مدينة صور على بعد أربعة أميال من المدينة (١٢١)، وقد سمع الفرنجة إشاعة مفادها أن أسطولاً مصريا كبيراً سوف يأتي لمساعدة أهالي صور، كما وصلت أخبار تفيد أن طغتكين سوف يناوش القوات الصليبية ليشغلها وليعطي للأسطول المصري فرصة للدخول إلى ميناء المدينة.

وعندما وصلت أنباء وصول طغتكين إلى الفرنجة، قرروا أن يقسموا جيشهم إلى ثلاثة أقسام، فكان واجب جميع قوات الخيالة «وجند المشاة» المرتزقة بقيادة كونت طرابلس ووليم دي بوري ـ نائب ملك بيت المقدس بلدوين الثاني، الذي كان سجينا بيد المسلمين في ذلك الحين ـ إيقاف جيش طغتكين من التقدم باتجاه مدينة صور، أما القسم الثاني الذي يقوده دوق مدينة البندقية دومنيكو ميتشيل ـ فقد أُوكل إليه منع الأسطول المصري من دخول ميناء صور. أما القسم الأخير فكرّس لإحكام الحصار على المدينة، وخطط طغتكين لعبور نهر اللّيطاني نحو مدينة صور، ولكنه عندما علم بتقدم الفرنجة نحوه انسحب راجعا إلى دمشق، وبما أن الاسطول المصري لم يصل لنجدة صور فقد أوقف الاسطول البندقي سفنه الشراعية مرة أخرى على اليابسة أما الجيوش الصليبية فعادت إلى حصار المدينة . (١٢٢) ولما علم طغتكين أن أهالي صور سوف يستسلموا للفرنجة بعدما أنهكوا، تقدم مرة ثانية باتجاه مدينة صور، وعسكر بالقرب من النهر على بعد بضعة أميال من المدينة، ثم إن الفرنجة أرسلوا جزءا من جيشهم مرة أخرى لإيقاف جيش طغتكين، فأرسل طغتكين مبعوثين من طرفه إلى القادة الصليبيين للوصول الى تسوية، وفي الثالث والعشرين من جمادى الأولى عام ٥١٨ هـ / السابع من يونيو عام ١١٢٤م - وبعد جدال طويل - توصل الطرفان فيما بينهما إلى اتفاق، وتضمن هذا الاتفاق البنود التالية:

اولا: أن يتسلم الصليبيون مدينة صور.

ثانيا: يُسمح لإهالي صور بمغادرة مدينتهم ومعهم أموالهم.

أخيرا: يمنح من رغب في البقاء في المدينة من أهالي صور حق الاحتفاظ بممتلكاته.

ومع ذلك فان معظم أهالي مدينة صور غادروا المدينة عدا قلة منهم من المسنين الكبار الذين لم يستطيعوا المغادرة (١٢٣). وبهذا سقطت صور التي صمدت طويلا وكان سقوطها ضعفا لامارة دمشق.

ونعود مرة أخرى للحديث عن حلب وما استجد عليها من أمور، فقد عانت مدينة حلب كثيرا من غارات الصليبيين قبل سنتين من سقوط مدينة صور، ففي السادس من رمضان عام ٥١٦ هـ / ٨ من نوفمبر عام ١١٢٢م خسر طغتكين حليفه الذي كان يعتمد عليه ويدعى آيل غازي الذي توفي في الفحول، وهي قرية تقع بالقرب من مدينة ميافارقين، وبعد موت آيل غازي خلفه ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبدالجبار بن أُرتق في حكم حلب، والذي كان نائبا عن عمه آيل غازي في مدينة حلب.

أقام بدر الد ولة سليمان في العام التالي هدنة مع صليبيي أنطاكية سلمهم بها الأثارب الذي يبعد مسافة عشرين ميلا غربيّ حلب، ودفع ذلك الامير بَلْك بن بَهْرام بن أرتق في ربيع أول عام ٥١٧ هـ/ ٢٨ ابريل عام ١١٢٣م وهوابن أخي آيل غازي للاستيلاء على مدينة حلب من ابن عمه سليمان بن عبد الجبار، وتمكن من تهدئة الوضع في المدينة، ووفقا لما أورده ابن الأثير فإن تسليم الأثارب للصليبيين هو الذي حدى ببلك للاستيلاء على حلب من ابن عمه سليمان بن عبد الجبار، وأسر الأمير بلك خلال حكمه لحلب الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس في صفر عام ٥١٧هـ/ ابريل عام ١١٢٣م بالقرب من حصن كَرْكَرْ (جَرْجَرْ)، كما أسر بلك كونت الرها جوسلين في رجب عام ٥١٦هـ/ ٥ سبتمبر عام ١١٢٣م بالقرب من سروج، إلا أن بلك قُتل في ربيع أول عام ٥١٨هـ/ ١٨ ابريل عام ١١١٤م، بينما كان محاصرا مَنْبِجْ التابعة لحسان البعلبكي. وبعد مقتل بَلَك تسلم حسام الدين تيمرتاش بن آيل غازي مدينة حلب في ٢٠ رجب عام ٥١٨هـ/ الثامن من مايو ١١٢٤م، ثم أطلق تيمرتاش الملك بلدوين الثاني بعد أن دفع الأخير فدية كبيرة، وكادت مدينة حلب أن يُستولي عليها من قبل الفرنجة أثناء فترة حكم حسام الدين في حلب، ووفقا لما أورده ابن الأثير فإن سقوط مدينة صور في ٢٣ جمادى الأولى عام ٥١٨هـ/ ٧ مايو

١١٢٤م، دفع الصليبيون لمحاولة احتلال مدينة حلب، وقال: إن دُبَيْس بن صَدَقة بن مزيد، وهو على مذهب الشيعة الأثنى عشرية والحاكم المتمرد على السلاجقة الذي إستبد في حكم منطقة الحلة التي تقع في جنوب العراق، حث الصليبيين وحرضهم لاحتلال مدينة حلب، وقد فعل ذلك أملا في أن يصبح حاكما لحلب وتابعا للصليبيين في حال نجاحهم في الاستيلاء على حلب. كما أقنع دُبَيْس بن صَدَقة بن مزيد الصليبيين بأن أهالي حلب - الذين كان معظمهم من الشيعة الأثنى عشرية - سوف يساعدونه في تسليم المدينة له. ومن جهة أخرى فقد كتب أهالي مدينة حلب الى آق سُنْقُر البُرسقي - حاكم الموصل الذي أُعيد تعيينه حاكما على الموصل في صفر عام ٥١٥هـ/ ٢٢ ابريل ١١٢١م - ليسرع لاستلام مدينتهم قبل وصول الصليبيين وحليفهم ابن مزيد. وعندما استلم آقْ سُنْقُر البرسقي مدينة حلب، انسحب الصليبيون من معسكرهم بالقرب من حلب عائدين الى أراضيهم. وهكذا نجت حلب من السقوط بيد الغزاة الصليبيين (١٢٤). ونجح طغتكين للمرة الثانية في هذا العام في عقد تحالف مع آق سنقر البرسقي الذي عوضه تحالفه هذا عن خسارة حليفه السابق أيل غازي الذي توفي في ٥١٦هـ/١١٢٣م (١٢٥)

وانضم جيش طغتكين في عام ٥١٩هـ/ فبراير عام ١١٢٥م الى جيش البرسقي في مدينة حماة، وتقدم الجيشان معا للاستيلاء على كَفَرْطَاب التي كانت تابعة للفرنجة، وفعلا نجحا في استعادة كفرطاب في الثالث من رجب عام ٥١٩ هـ/ العاشر من مايو عام ١١٢٥ (١٢٦)، ثم قاما بعد ذلك بالتقدم لحصار قلعة زردنا التابعة للصليبين، ولكنهما أقلعا عن فكرة حصار زَرْدَنا بسبب تحصيناتها القوية (١٢٧). ووفقا لما أورده فولشر صاحب شارتر فإن طغتكين انضم إلى جيش البرسقي فقط عندما تقدم لحصار أعزاز وليس بعد الاستيلاء على كفرطاب. وتقدم في تلك الأثناء الملك بلدوين الثاني مع جيوش أنطاكية وطر ابلس والرها لنجدة أعزاز، وكاد جيشا طغتكين والبرسقي أن يهزما من قبل الفرنجة في السادس عشر من ربيع الآخر عام ٥١٩هـ/٢٣ مايو ١١٢٥م، وقُتل ألفان من المسلمين وفقا لما ذكره فولشر صاحب شارتر ثم انسحب طغتكين بعسكر دمشق وذلك لحماية دمشق من انتقام الصليبيين لها (١٢٨)

على أية حال، فإن مدينة دمشق سوف تكون الهدف الرئيس للأطماع الصليبية في ذلك العام أي ٥١٩هـ/ ٧ فبراير عام ١١٢٥م، فقد أرسل بلدوين الثاني العديد من مبعوثيه إلى اوروبا الغربية (اللاتينية) لمساعدته في الاستيلاء على مدينة دمشق، كما قَدم كثير من الجنود (الحجاج) من الغرب وذلك للمشاركة في هذه الحرب الصليبية ضد دمشق، كما أن أمراء الفرنجة في الشرق وافقوا على الانضمام لهذه العملية الحَربية (١٢٩). وعندما وصلت هذه الأنباء إلى طغتكين كتب الى التركمان في ديار بكر يطلب منهم المساعدة، وقدم لهم عروضا سخيّة في حالة استجابتهم له، وفعلا انضم ألفان من الخيالة التركمان الى جيش دمشق بالقرب من مَرْج الصُفَّر، ووفقا لما أورده ابن القلانسي، فإنه عندما وصل الى الفرنجة أنباء اجتماع جيش طغتكين بالقرب من مَرْج الصُفَّر تقدموا لمواجهته، ولكن وفقا لما أورده كل من ابن الأثير ووليم الصوري فإن طغتكين تقدم نحو فرقة صليبية - يبلغ تعدادها حوالي ألف رجل قدمت الى أرض مَرْج الصُفَّر الخصيبة ونجح طغتكين في إبادة أغلب هذه الفرقة الصليبية، ونجا منها القلة القليلة فاستولى على غنائم كثيرة منهم وحصل على الأغراض المقدسة المشهورة التي كانت لديهم في المعسكر (١٣٠) فوصلت أنباء هذه الكارثة الى الجيش الصليبي الرئيس الذي كان محاصرا مدينة دمشق، وبسبب حلول هذه الكارثة تخلى الفرنجة عن حصارهم لمدينة دمشق (١٣١) ووفقا لما أورده ابن القلانسي فإنه كاد أن يُهزم عسكر دمشق في هجوم صليبي مضاد مباشرة بعد هذا الانتصار. وأُجبر طغتكين على العودة بعسكره الى دمشق، ثم تقدم طغتكين في اليوم التالي لمقابلة الفرنجة ولكنه اكتشف أنهم قد غادروا معسكرهم في طريقهم الى بلادهم. (١٣٢)

ولسوء الحظ خسر طغتكين في الثامن من ذي الحجة عام ٥٢٠هـ/ ٢٦ ديسمبر ١١٢٦م حليفه البرسقي الذي استشهد على أيدي جماعة الباطنية في الموصل، أما عز الدين مسعود بن البرسقي - الذي تولى حلب والموصل بعد موت أبيه فقد حاول في العام التالي أن يستولي على مدينة دمشق نفسها، وجهز طغتكين نفسه استعادا لمواجهته، ووفقا لما أورده ابن العديم فإن عز الدين مسعود ظن بأن الذين قتلوا أباه

كانوا من مدينة حماة التابعة لإمارة دمشق، ولذلك فقد نقم على أهالي بلاد الشام وخاصة أهالي إمارة دمشق. وجهز طغتكين نفسه استعداداً لمواجهته، إلا أن مسعوداً توفي بعد استيلائه على الرحبة، وهو في طريقه إلى دمشق، ويعتقد ابن العديم بأن مسعود سُقي نوعا من السموم بينما يعتقد كل من الأثير وابن القلانسي بأن موته كان نتيجة لمرض خطير (١٣٣). وهكذا تخلصت إمارة دمشق من خطر جديد غير متوقع جاءها هذه المرة من الموصل.

اشتد في عام ٥٢٢هـ/ ٨ يناير عام ١١٢٨م ـ المرض بطغتكين على نحو خطير، وقبيل موته اشترط على إبنه الأكبر تاج الملوك بوري بأن يتبع سياسته في جهاده ضد الفرنجة وحماية سيادة إمارة دمشق من أي خطر، وبعد أن قَبل بوري هذا الشرط، أصدر طغتكين أوامره لقواد جيشه ولأعيان دمشق بالسمع والطاعة لبوري.

ومات طغتكين في الثامن من صفر من العام ذاته/١١ فبراير ١١٢٧م، وليست هناك أيَة اشارة في المصادر التاريخية عما إذا كان عمره معروفا ولكن من المرجح أنه ناهز الخمسين من عمره، لأنه أصبح جَدّاً قبل حوالي اثنى عشر من وفاته، ووفقا لما جاء به ابن القلانسي فإن طغتكين قد أرسل في الثاني من ربيع الآخرعام ٥٢٠هـ/٨ مايو ١١٢٦م حفيده محمود بن بوري إلى تدْمُر مع أحد قادته الجديرين بالثقة كأتابك له (١٣٤) وهكذا توفي ظهير الدين طغتكين أمير دمشق بعد أن وطد حكم أسرته في تلك الإمارة التي كانت تهددها الأخطار من كل جانب، فتارة يأتي الخطر من منافستها مملكة حلب وتارة من سلاطين السلاجقة وتارة من الموصل وتارة من عدو غازي وهو العدو الصليبي. ولإن نجح طغتكين في توطيد حكمه في إمارة دمشق، فإنه حقق نجاحاً أكبر وهو في صالح قضية جهاد الأعداء الصليبيين، لقد قاوم، وأخر، وأحبط في أحيان أخرى مشاريعهم التوسعية للسيطرة على بلاد الشام جميعا. وقد مهد الحكم لاسرته في إمارة دمشق التي كانت لها اليد الطولي في الدفاع عن بلاد الشام من الخطر الصليبي، اذا ما قورنت بالامارات الإسلامية المعاصرة لها كإمارة حلب وإمارة شيزر وغيرهما من الإمارات المستقلة، وسوف تبقى أسرة طغتكين تحكم هذه الإمارات رغم اشتداد الأخطار عليها حتى سقوطها في عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م.

الهوامش

(١) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**. الناشر هـ. ف. أمدروز (ليدن ١٩٠٨م) صفحة ١٣١.
(٢) نفس المصدر المذكور آنفا. صفحة ١٣١.
(٣) ابن القلانسي، صفحة ١٣١؛ ابن الازرق. **تاريخ الفارقي**. الناشر ب. أ. ل. عوض. مراجعة م. س. غربال (القاهرة - ١٩٥٩م) صفحة ٢٣٧.
(٤) ابن القلانسي. صفحة ١٣١.
(٥) ابن العديم. **زبدة الحلب من تاريخ حلب**. الناشر. سامي دهان (دمشق - ١٩٥٤م) صفحة ١١٩؛ حسين امين. **تاريخ العراق في العصر السلجوقي** (بغداد - ١٩٦٥م) صفحة ٢٠٥.
(٦) ابن العديم. الصفحات ١١٩ - ١٢٠؛ ابن القلانسي. صفحة ١٣٠؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (القاهرة - ١٩٢٩م) المجلد الثامن الصفحة ١٧٦.
(٧) ابن الأثير. **الكامل في التاريخ**، ص: ١٧٥.
(٨) ابن العديم. المجلد الثاني. الصفحات ١٢٠ - ١٢١؛ ابن القلانسي. صفحة ١٣٠.
(٩) ابن القلانسي. صفحة ١٣١؛ ابن الأثير. المجلد الثامن. صفحة ١٧٦.
(١٠) ابن العديم. المجلد الثاني، صفحة ١٢٥.
(١١) نفس المصدر المذكور آنفا. الصفحات ١٢٥ - ١٢٦.
(١٢) نفس المصدر المذكور آنفا. صفحة ١٢٥.
(١٣) ابن الأثير. صفحة ١٨٤.
(١٤) ابن العديم. الصفحات ١٢٧ - ١٢٩؛ ابن الأثير ١٨٤؛ ابن القلانسي، صفحة ١٣٣.
(١٥) ابن العديم. الصفحات ١٢٩ - ١٣٠.
(١٦) ابن الأثير، صفحة ١٨٦.
(١٧) ابن القلانسي، ١٣٤؛ صفي الدين عبد المؤمن البغدادي. **مراصد الاطلاع**، الناشر على البجاوي، دار احياء الكتب العربية. ن. ب ١٩٥٤م، ص ٦٣٧.
(١٨) متي الرهوي. **تاريخ متى الرهوي**. تيراس. ادموند دوستورين (ميتشيجان - ١٩٧٢م) المجلد الثاني صفحة ٣٠٠.
(١٩) ابن العديم، صفحة ١٣٦.
(٢٠) علية الجنزوري. **إمارة الرها الصليبية**. (القاهرة - ١٩٧٥م) صفحة ٦٥.
(٢١) ابن الأثير صفحات ١٨٦ - ١٨٧؛ ابن القلانسي، ١٣٤ - ١٣٦.
(٢٢) ابن القلانسي، صفحة ١٣٥.
(٢٣) ابو المحاسن يوسف بن تغري بردي. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. المجلد الخامس، صفحة ١٥٩.

(٢٤) البغدادي، **مراصد الاطلاع**. المجلد الثالث. صفحة ١٢٨٨، ابن القلانسي. ١٣٦ - ١٣٧، صفحة ١٥٩.
(٢٥) ابن القلانسي، الصفحات ١٣٦ - ١٣٧.
(٢٦) ابن القلانسي، صفحة ١٣٧؛ ابن الازرق، صفحة ٢٦٩.
(٢٧) ابن الأثير، صفحة ١٩٩؛ ابن القلانسي، صفحة ١٣٩.
(٢٨) ابن الأثير، الصفحات ١٩٩ - ٢٠٠؛ ابن القلانسي، الصفحات ١٣٩ - ١٤٠.
(٢٩) عمر تدمري. **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور**. المجلد الأول، الطبعة الثانية (بيروت - ١٩٨٤م)، صفحة ٤٠٤؛ ابن الأثير، صفحة ٢٠٠.
(٣٠) ابن الأثير، صفحة ٢١٠؛ ابن القلانسي، ١٤١.
(٣١) ابن العديم، الصفحات ١٤٦ - ١٤٧؛ ابن القلانسي، صفحة ١٤٢.
(٣٢) ابن القلانسي، صفحة ١٤٢.
(٣٣) ابن الأثير، صفحة ٢١٨؛ ابن القلانسي صفحة ١٤٢؛ سهيل زكار **مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية**، صفحة ٧٥.
(٣٤) ابن الأثير صفحة ٢٢١؛ ابن القلانسي صفحة ١٤٤.
(٣٥) ابن الأثير، صفحة ٢٢٢؛ ابن القلانسي صفحة ١٤٤.
(٣٦) ابن القلانسي، صفحة ١٤٤.
(٣٧) ابن الأثير، صفحة ٢٢٢؛ ابن القلانسي صفحة ١٤٥.
(٣٨) ابن الأثير، صفحة ٢٢٢؛ ابن القلانسي صفحة ١٤٥.
(٣٩) ابن القلانسي، صفحة ١٤٥.
(٤٠) نفس المصدر المذكور آنفا، صفحة ١٤٥.
(٤١) ابن الأثير، الصفحات ٢٢٨ - ٢٢٩؛ ابن القلانسي، الصفحات ١٤٨ - ١٤٩.
(٤٢) فولشر صاحب شارتر، **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس**، الناشر هارولد فنك (تينيسي ١٩٦٩م)، الصفحات ١٨٥ - ١٨٧؛ ابن الأثير الصفحات ٢٢٨ - ٢٢٩؛ ابن القلانسي الصفحات ١٤٨ - ١٤٩.
(٤٣) ابن الأثير، صفحة ٢٢٧؛ ابن القلانسي، صفحة ١١٢ و ١٤٦.
(٤٤) ابن الأثير، صفحة ١٢٧؛ ابن القلانسي، الصفحات ١٤٦ - ١٤٧.
(٤٥) ابن القلانسي، صفحة ١٤٨.
(٤٦) م. يوسف «**التاريخ الاقتصادي لسوريا خلال القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة/ القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي**». اطروحة دكتوراة فلسفة، (جامعة برنستون ١٩٨٢م)، صفحة ١٥٤.
(٤٧) ابن القلانسي، صفحة ١٤٨.
(٤٨) ياقوت الحموي: **معجم البلدان** (بيروت ١٩٥٥م) المجلد الأول، صفحة ٤٤١؛ ابن القلانسي، الصفحات ١٤٨ - ١٤٩.

(٤٩) ابن القلانسي، صفحة ١٤٩.

(٥٠) البغدادي. **مراصد الاطلاع**. المجلد الثاني، صفحة ١؛ ابن القلانسي صفحة ١٥١؛ عز الدين ابن شداد **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، المجلد الأول، الناشر سامي دهان، (دمشق ١٩٦٣م) الصفحات ٨٦ ـ ٨٨؛ وليم الصوري رئيس اساقفة صور، **تاريخ الأعمال المنجزة تحققت فيما وراء البحر**. الناشر اي. اية. بابكوك واية. بي. كري (نيويورك ١٩٧٦م)، المجلد الأول، الصفحات ٤٦٩ـ ٤٧٠.

(٥١) ابن الأثير. الصفحات ٢٥٠ ـ ٢٥١؛ ابن القلانسي الصفحات ١٦٠ ـ ١٦١؛ تدمري، **تاريخ طرابلس**، صفحة ٤٣٨.

(٥٢) ابن الأثير، صفحة ٢٥١؛ ابن القلانسي الصفحات ١٦٠ ـ ١٦١.

(٥٣) ابن القلانسي، صفحة ١٦٣.

(٥٤) ابن الأثير، الصفحات ٢٥٥ ـ ٢٥٦؛ ابن القلانسي الصفحات ١٦١ ـ ١٦٢، اس. رانسيمان. **تاريخ الحروب الصليبية**. المجلد الثاني، (كامبردج ١٩٥٢م)، صفحة ٩٦.

(٥٥) ابن الأثير، صفحة ٢٥١؛ ابن القلانسي، صفحة ١٦٢.

(٥٦) ابن القلانسي، صفحة ١٦٣؛ تدمري: **تاريخ طرابلس**، صفحة ٤٣٨.

(٥٧) ابن الأثير، صفحة ٢٥٦؛ ابن القلانسي، صفحة ١٦٢.

(٥٨) ابن القلانسي، صفحة ١٦٤؛ الحافظ الذهبي ـ **العبر في خبر من غبر**. الناشر صلاح الدين المنجد. المجلد الرابع (الكويت ١٩٦٣م)، صفحة ٣؛ رانسيمان، صفحة ٩٦.

(٥٩) ابن القلانسي، صفحة ١٦٥.

(٦٠) ابن الأثير، صفحة ٢٥٩.

(٦١) ابن القلانسي، الصفحات ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٦٢) نفس المصدر المذكور آنفا، صفحة ١٦٦.

(٦٣) نفس المصدر المذكور آنفا، الصفحات ١٦٦ ـ ١٦٩.

(٦٤) نفس المصدر المذكور آنفا، صفحة ١٦٨.

(٦٥) متى الرهوي، صفحة ٣٧٠.

(٦٦) فولشر صاحب شارتر، ١٩٨؛ ابن القلانسي، الصفحات ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٦٧) ابن القلانسي، صفحة ١٧٠.

(٦٨) ابن القلانسي، صفحة ١٧٤؛ ابن شداد، صفحة ٨٨. يبدو ان محقق كتاب «**ذيل تاريخ دمشق**» نسخ اسم الحبابية بالخطأ فكتبها الجبانية.

(٦٩) ابن القلانسي، ١٧٤ ـ ١٧٨؛ رانسيمان، ٣٨.

(٧٠) ابن القلانسي، ١٧٩.

(٧١) فولشر صاحب شارتر، ٢٠٣؛ ابن القلانسي ١٧٨؛ وليم الصوري،٤٩١.

(٧٢) ابن القلانسي، ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٧٣) نفس المصدر المذكور آنفا، صفحة ١٧٩.

(٧٤) فولشر صاحب شارتر، ٢٠٣؛ ابن القلانسي ١٨١؛ وليم الصوري ٤٩١.

(٧٥) ابن القلانسي ١٨٢؛ اتش. ايه. ار. جيب، **سجل أحداث دمشق خلال الحروب الصليبية.** (لندن: ١٩٣٢م)، ١٢٩.

(٧٦) ابن القلانسي، ١٨٢.

(٧٧) ابن العديم، ١٦٣.

(٧٨) ابن الأثير، ٢٦٦؛ ابن القلانسي ١٨٤.

(٧٩) ابن القلانسي، ١٨٤؛ عماد الدين خليل، «**المقاومة الاسلامية للغزو الصليبيي**» الرياض، ١٩٨١م، ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٨٠) ابن القلانسي، ١٨٤. لم استطع معرفة موقع حصن الثمانين.

(٨١) ابن القلانسي ١٨٥؛ اتش ايه آر، جيب، **سجل أحداث دمشق خلال الحروب الصليبية** ترجم عن «**ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي**» (لندن، ١٩٣٢م)، ١٣٤.

(٨٢) فولشر صاحب شارتر، ص ٢٠١.

(٨٣) وليم الصوري، ٤٩٤.

(٨٤) ابن القلانسي، ١٨٥.

(٨٥) فولشر صاحب شارتر، ٢٠٩؛ ابن الأثير ٢٦٤؛ متى الرهوي، ٣٩٨.

(٨٦) فولشر صاحب شارتر، ٢٠٩.

(٨٧) وليم الصوري، ٤٩٤.

(٨٨) ابن القلانسي، ١٨٥.

(٨٩) ابن الأثير، ٢٦٦؛ ابن القلانسي، ١٨٥.

(٩٠) فولشر صاحب شارتر، ٢٠٩؛ وليم الصوري، ٤٩٤.

(٩١) ابن الأثير ٢٧١؛ متى الرهوي ٣١١.

(٩٢) ابن العديم، ١٦٣؛ ابن الأثير، ٢٦٩.

(٩٣) ابن الأثير ٢٧٢؛ وليم الصوري، ٥٠١؛ عماد الدين خليل «**المقاومة الاسلامية للغزو الصليبيي**»، الرياض، ١٩٨١م، صفحة ١١٣.

(٩٤) فولشر صاحب شارتر، ٢١١.

(٩٥) ابن الأثير، ٢٧١.

(٩٦) ابن العديم، ١٧٥.

(٩٧) فولشر صاحب شارتر، ٢١٢.

(٩٨) نفس المصدر المذكور آنفا، ٢١٤.

(٩٩) تقي الدين احمد المقريزي، **اتعاظ الحنفاء**، الناشر م. هـ. م، احمد، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٥١.

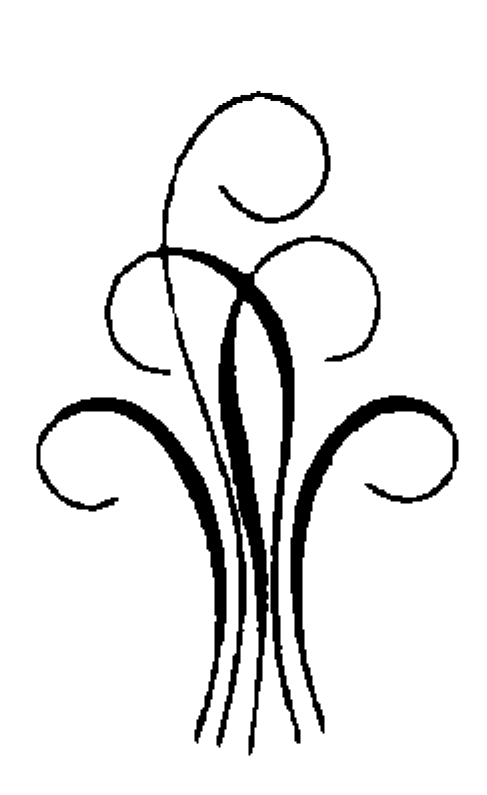
(١٠٠) ابن القلانسي، ٨٨ ـ ٨٩.

(١٠١) ابن القلانسي ١٩٢ ـ ١٩٧؛ ابن العديم، ص ١٧٤ ـ ١٧٧.

(١٠٢) كارول هيلينبراند «**حياة واعمال نجم الدين آيل غازي**» دار اسلام، المجلد الثامن والخمسون، ١٩٨١م، ص ٢٦٣.

(١٠٣) تقي الدين احمد المقريزي، **اتعاظ الحنفاء** (القاهرة ١٩٧٣م) المجلد الثالث، ٥٣ ـ ٥٤.
(١٠٤) نفس المصدر المذكور آنفا، ٥٤.
(١٠٥) ابن القلانسي، ص ١٩٧ ـ ١٩٨؛ الذهبي، ٢٠. ملاحظة: يدعو ابن القلانسي بالخطأ آق سنقر البرسقي آنذاك «صاحب الموصل» راجع ابن الأثير، **الكامل**، ٢٧٣.
(١٠٦) ابن الأثير، ٢٨٤؛ وليم الصوري ٥١٤ ـ ٥١٥.
(١٠٧) ك. هيلينبراند، ٢٦٧ ـ ٢٦٩.
(١٠٨) ابن الأثير، ٢٨٤.
(١٠٩) ابن الأثير، ٢٨٨ ـ ٢٨٩؛ ابن القلانسي ٢٠٠ ـ ٢٠١؛ ابن العديم ١٨٧ ـ ١٩٠، الذهبي، ص ٢٨. يقدر الذهبي عدد جيش أنطاكية بعشرين ألف رجل.
(١١٠) فولشر صاحب شارتر ٢٢٨ ـ ٢٣٣؛ اسامة بن منقذ «**كتاب الاعتبار**» الناشر فيليب ك. حتى. برينستون، ١٩٣٠م، ١٥٣.
(١١١) فولشر صاحب شارتر ٢٣٣ ـ ٢٣٤؛ ابن العديم ١٩١ ـ ١٩٢.
(١١٢) ابن الأثير، ٢٨٨ ـ ٢٨٩.
(١١٣) ابن القلانسي ٢٠٣؛ الذهبي ٣٤ ـ ٣٥ ملاحظة: يشير الذهبي ان الأفضل ترك بعد مقتله ثروة كبيرة من المال، وهذه الاشارة تبين الى اي حد كان الأفضل مولعا بجمع ثروته ولم يوظف هذا المال لقضية القتال ضد الصليبيين.
(١١٤) رانسيمان ٩٩؛ وليم، الصوري ٥١٤ ـ ٥١٥.
(١١٥) وليم الصوري، المجلد الثاني ١٢ ـ ١٣.
(١١٦) ابن القلانسي، ٢١١.
(١١٧) وليم الصوري، ٨ ـ ٩.
(١١٨) نفس المصدر المذكور آنفا، ١٠.
(١١٩) نفس المصدر المذكور آنفا، ١٠.
(١٢٠) نفس المصدر المذكور آنفا، ١٠.
(١٢١) نفس المصدر المذكور آنفا، ١١. ١٣.
(١٢٢) نفس المصدر المذكور آنفا، ١٤. ١٥.
(١٢٣) ابن القلانسي، ص ٢١١؛ وليم الصوري، المجلد الثاني ١٩.
(١٢٤) ابن الأثير، ٣٠٢، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٣، ٣١٥ ـ ٣١٦؛ ابن القلانسي، ص ٢١١ ـ ٢١٢؛ رانسيمان، ص ١٧١؛ الذهبي، ص ٤٢؛ ابن العمراني «**الأنباء في تاريخ الخلفاء**»، الناشر قاسم السمرائي، الرياض، ١٩٨٢م، ص ٢١٤.
(١٢٥) وليم الصوري، ٢٤.
(١٢٦) فولشر صاحب شارتر، ٢٧٩ ـ ٢٨١؛ ابن العديم، ص ٢٣١.
(١٢٧) فولشر صاحب شارتر، ص ٢٧٩.
(١٢٨) فولشر صاحب شارتر، ص ٢٧٩ ـ ٢٨١؛ ابن العديم، ص ٢٣١.
(١٢٩) وليم الصوري، ص ٤٠.

(١٣٠) ابن الأثير ٣٢٢؛ ابن القلانسي ٢١٣ ـ ٢١٤؛ وليم الصوري، ص ٤١.
(١٣١) وليم الصوري، ٤١ ـ ٤٢.
(١٣٢) ابن القلانسي، ٢١٤.
(١٣٣) ابن الأثير، ٣٢٠ ـ ٣٢١؛ ابن العديم، ٢٣٦ ـ ٢٣٧؛ ابن القلانسي، ٢١٦ ـ ٢١٧.
(١٣٤) ابن القلانسي، ص ٢١٤ ـ ٢١٥، ٢١٨ ـ ٢١٩.



الفصل الثالث

عهد تاج الملوك بُورِي بن ظهير الدين طُغْتكِين

٥٢٢هـ - ٥٢٦هـ/١١٢٨ - ١١٣٢م

إن تقديم خلفية تاريخية موجزة عن طائفة الباطنية في بلاد الشام تعد عنصراً أساسيا لفهم عهد تاج الملوك بوري، ولتاريخ تلك الطائفة في دمشق أهمية خاصة لاتصاله بموضوع بحثنا، فالحركة الباطنية كانت العقبة الأساسية التي واجهت بوري خلال فترة حكمه التي استمرت أربعة أعوام ونصف من ٨ صفر ٥٢٢هـ/١١ فبراير ١١٢٨م وحتى ٢١ رجب ٥٢٦هـ/٦ يونيو ١١٣٢م، فلم تكن الحركة الباطنية سوى ملة انشقت عن الإ سماعيلية في مصر بعد موت الخليفة الفاطمي المستنصر في ١٨ ذي الحجة ٤٨٧هـ/٣٠ ديسمبر ١٠٩٤م، وتعرف هذه الطائفة باسم النزارية (١)، ولم تعترف هذه الطائفة بإمامية المستعلي الذي خلف أباه المستنصر في ٤٨٧هـ/ ٢١ يناير ١٠٩٤م فهم يؤمنون بإمامية نزار الابن الأكبر للمستنصر، والحسن الصباح هو الذي أسس وتزعم هذه الطائفة منذ سنة ٤٨٧هـ حتى ٥١٨هـ/ من ١٠٩٤ حتى ١١٢٤م (٢)، فوطد نفسه في قلعة ألموت قبل ثلاثة أعوام من هذا التاريخ، ووفقا لما أورده ابن الأثير فإن الحسن الصباح استولى على هذه القلعة الحصينة في سنة ٤٨٤هـ/ ٢٣ فبراير ١٠٩١م (٣)، وتعرف هذه الطائفة عند المؤرخين المسلمين باسم الباطنية أو النزارية، بينما تعرف هذه الحركة عند المؤرخين المحدثين وخاصة في الغرب الأوروبي بحركة (القتلة). وتاريخ هذه الحركة في بلاد الشام ذو إشكاليات كما هي الحال مع معظم الطوائف السرية وربما يعود السبب لهذه الإشكاليات الى أن المصادر التاريخية للباطنية أتلفت من قبل خصومها أو أن مؤرخي الباطنية المعاصرين أنفسهم لم يهتموا بكتابة تاريخهم الخاص (٤).

وقد ساعد الاضطراب السياسي في بلاد الشام في مستهل القرن الثاني عشر الميلادي على نشر وتأسيس الدعوة الباطنية هناك في فترة زمنية قصيرة، فالتنافس الذي كان بين كل من الملك رضوان صاحب حلب - وأخيه الملك دقاق - صاحب دمشق - أعطى فرصة كبيرة للباطنية لكسب حماية رضوان لهم مقابل تحالفهم معه في صراعه ضد أخيه دقاق، كما أن غياب حكم موحد يجمع القوى المتنافسة في

بلاد الشام ساعد الباطنية على تأسيس دعوتهم هناك، فكل الإمارات المستقلة في بلاد الشام كدمشق وحلب وطرابلس وشيزر كانت تتوق لضم مناطق جديدة لسيادتها على حساب جيرانها.

إن هذا الوضع جعل التعاون مستحيلا بين تلك الدول في وقوفها ضد الحركة الباطنية، وعلاوة على ذلك فإن قدوم الغزاة الصليبيين الذين نجحوا في توطيد أنفسهم في الساحل الشامي في فترة وجيزة أشغل الإمارات الشامية المستقلة تلك في صد الغزاة الصليبيين بدلا من محاربة الباطنية (٥)، ومن الصعوبة بمكان القضاء على هذه الطائفة الباطنية لأنها حركة سرية تعمل تحت الأرض، إذ إن طبيعة النشاطات الباطنية الماكرة غير الواضحة للعيان أدت الى صعوبة تحديد مواضع ومراكز عمل تلك الحركة السرية سواء كانت في بلاد الشام أو غيرها من البلاد.

وغدت مدينة حلب ـ خلال فترة حكم الملك رضوان في حلب من ١٧ صفر ٤٨٨هـ/٢٨ فبراير ١٠٩٥ حتى ١٨ جمادي الآخرة ٥٠٧هـ/٢٨ نوفمبر ١١١٤م ـ المركز الأساسي للباطنية في بلاد الشام، فقد منح رضوان باطنية حلب حمايته في سنة ٤٩٠هـ/ ١٩ ديسمبر ١٠٩٦م وأصبح التهديد الصليبي تلك السنة لمدينة حلب جد خطير، كما أنكر كثير من أمراء الملك رضوان القياديين سياسته المسالمة تجاه الصليبيين، وضاعف رضوان مشاكله عندما أصبح راعيا للباطنية في بلاد الشام، ويعود سبب حمايته للباطنيين لحاجته لمساعدتهم له في وقوفه ضد أخيه الملك دقاق صاحب دمشق وأتابكه طغتكين. (٦)

ووفقا لما أورده ابن العديم فإن زعيم الباطنية في حلب آنذاك ـ الحكيم المُنَّجم ـ هو الذي عرف الملك رضوان صاحب حلب بالطائفة الباطنية، ويضيف ابن العديم، أن هذا الداعي أفسد العلاقة الطيبة بين الملك رضوان وأتابكة جناح الدولة حسين صاحب حمص، (٧) أما ابن تَغْرِي بَرْدِي في دراسته **«النجوم الزاهرة»** فيذكر أن رضوان كان أول قائد مسلم في بلاد الشام في ذلك الحين أسس دارا للدعوة الباطنية في حلب، وهي مدرسة لنشر العقائد الباطنية في بلاد الشام، وعين رضوان الحكيم المنّجم كرئيس لهذه المدرسة، (٨) ولا يستبعد أن الحكيم المنجم هذا كان يعمل

مستشارا شخصيا للملك رضوان، كما أعطى رضوان منصبا مهما جدا لزعيم باطني آخر يُدعى ابراهيم العَجَمِي وهذا العجمي عيّنه رضوان متحفظا «حارسا» لقلعة حلب وهو منصب حساس في مملكة حلب (٩) وانتشرت الحركة الباطنية في سرمين والجوز ،جبل السمّاق، وبنوا عليم، بُزُاعة، البَاب، أعْزَاز وأفامية بسبب حماية رضوان للباطنية وكذلك لجهودهم الذاتية، ويذكر مصطفى غالب (وهو مؤرخ إسماعيلي محدث) في كتابه **أعلام الإسماعيلية**، أنه في عام ٤٩٦هـ/ ١٥ اكتوبر ١١٠٢م، تآمر جناح الدولة حسين ضد الباطنيين في حمص مما حدى بالحكيم المنجم إلى إرسال واحدٍ من الفداوية (الفدائيين) الذي نجح في قتل جناح الدولة (١٠) . ومات المُنَجِّم بشكل طبيعي بعد أربعة عشر يوما من مقتل جناح الدولة في حمص في ٢٢ رجب ٤٩٦هـ/٢ مايو ١١٠٣م، ويعتقد ام. جي. اس هودجسون ـ وهو مؤرخ غربي محدث ـ بأن الباطنية اغتالت جناح الدولة حتى تأخذ حمص ـ المدينة المهمة شمال بلاد الشام ـ ليجعلوها مركزا لهم وكذلك للحصول على المزيد من الدعم من رضوان الذي بذل قصارى جهده للتخلص من أتابكه السابق جناح الدولة حسين خصمه الرئيس في مملكة حلب، وبعد مقتل جناح الدولة أُرعب أهالي مدينة حمص من الباطنية والصليبيين، كما هرب معظم الأتراك من المدينة الى دمشق وطلب أهالها المساعدة من طغتكين، وتقدم طغتكين مسرعا إلى مدينة حمص واستولى على المدينة وسوى الوضع هناك، وكما ذكر في الفصل الثاني فإن الصليبيين حاولوا الأستيلاء على هذه المدينة بعد مقتل زعيمها جناح الدولة، ولكن طغتكين سبقهم في هذا ولهذا السبب فقد رجعوا الى ديارهم خائبين (١١)، وهنا نتساءل أكانت الباطنية هم الذين قاموا بقتل جناح الدولة على مسؤوليتهم الخاصة أم أنهم أخذوا الإذن من الملك رضوان الذي كان حتما يخطط للتخلص من أتابكة السابق المتمرد عليه، والمهم في الأمر أن المستفيد الوحيد من مقتل جناح الدولة كان طغتكين وإمارة دمشق، وبعد موت الحكيم المنجم ،أرسل لباطنية بلاد الشام زعيم جديد من عاصمتهم ألموت من قبل الحسن الصباح ويدعى هذا القائد الجديد أبو طاهر الصائغ وهو من فارس وهي نفس بلد الزعيم السابق الحكيم المنجم، وقد أثبتت الأيام أن هذا القائد الجديد أكثر جرأة وشجاعة من الداعي السابق (١٢). وبعد وفاة السلطان

بركياروق في ١ ربيع الاخر ٤٨٩هـ/٣١ مارسّ ١٠٩٦م، حقق أخوه محمد ـ السلطان الجديد للسلاجقة ـ انتصارات ونجاحات عظيمة ضد الباطنية في بلاد الفرس، كما أجبر السلطان محمد الملك رضوان على تغيير سياسته السلمية تجاه الباطنية في حلب، وحدث في سنة ٤٩٩هـ/١١٠٦م أن أطاح باطنية سرمين ـ بمساعدة باطنية افامية ـ بنظام الحكم في مدينة أفامية التي كانت اسميا تحت سيطرة وولاية رضوان، وعلى الرغم من أن الباطنية خسروا بعد فترة وجيزة مدينة أفامية التي استولى عليها صليبيو أنطاكية منهم فقد وجد رضوان في هذا تبريرا معقولا لينأى بنفسه عن الباطنية، فاضطهد رضوان في العام التالي بعض الباطنية في حلب ونفى آخرين منهم عن المدينة (١٣).

وقتل في ٥٠٤هـ/ ٢٠ يوليو ١١١٠م تاجر فارسي ثَري يُدعىً ابا حرب عُرف بعدائه للباطنية، وأُتهم أهالي مدينة حلب الباطنية بتدبير عملية الاغتيال هذه، فباغت أهالي حلب ـ وهم ينتمون لمذهب الشيعة الأثنى عشرية ـ الباطنية وقتلوا بعضهم ولم يستطع أحد وإيقافهم عن فعل ذلك حتى الملك رضوان نفسه (١٤).

وتوفي في ١٨ جمادى الآخرة ٥٠٧هـ/٣٠ نوفمبر ١١١٤م رضوان ملك حلب، وخلفه ابنه ألب أرسلان الذي كان يبلغ آنذاك من العمر ست عشرة سنة فقط، واستولى الباطنية على قلعة بالس الواقعة على الطريق بين حلب وبغداد من ألب أرسلان (١٥).

ونكب باطنية حلب نكبة كبيرة بضغط من السلطان محمد وأهالي حلب الشيعة الإثنى عشرية وجماعة الأحداث في حلب، وأمر ألب أرسلان مواطنيه باعتقال كل باطني في مدينة حلب، ووفقا لما أورده ابن العديم فإن أكثر من مائتي باطني اعتقلوا بما فيهم زعيمهم أبو طاهر الصائغ بينما لاذت مجموعة منهم بالفرار وكان من بين هؤلاء الذين فروا الداعي حسام الدين بن دملاج الذي هرب الى مدينة الرقة في الجزيرة الفراتية والداعي ابراهيم العجمي الذي لجأ الى شيزر، وكان هذا الداعي متحفظا على قلعة حلب كما ذكر آنفا، واستقبل إبراهيم العجمي بحفاوة من قبل

ابن منقذ حاكم شيزر، ووفقا لما ذكره ابن القلانسي فإن بعض الباطنية الذين هربوا من حلب لجئوا إلى الصليبيين (١٦).

وكافأ إبراهيم العجمي ضيافة أهالي شيزر - في نفس ا لعام - بأن تآمر عليهم ونجح في الاستيلاء على قلعة شيزر بمعاونة مائة رجل من باطنية أفامية وسرمين ومعرة النعمان ومعرة مصرين أثناء الاحتفال بعيد فصح النصارى، وقد اختار هذا الوقت لأن قادة شيزر بنى منقذ كانوا مشغولين بمشاهدة احتفالات الصليبيين بعيد الفصح خارج شيزر، إن السبب الرئيس الذي جذب الباطنية في بلاد الشام للاستيلاء على هذه المدينة، كان على الأرجح هو الموقع الاستراتيجي لقلعتها على قمة جبل عال، وكذلك نيتهم تأسيس قاعدة لهم في بلاد الشام لتثبيت دعوتهم هناك كما فعل أتباعهم في بلاد فارس عندما استولوا على قلعة ألموت، إلا أن أحلامهم تبخرت سريعا فقد استعاد أهالي شيزر قلعتهم في الحال بهجوم خاطف وقتلوا كل الباطنية فيها بما فيهم قائدهم إبراهيم العجمي (١٧). وبعد تلك المجزرة التي حلت بهم في حلب وكذلك إخفاقهم في شيزر، نقل الباطنية مركزهم إلى جنوب بلاد الشام في إمارة دمشق نفسها (١٨).

وكانت الحركة الباطنية تشغل بال قادة السلاجقة بما فيهم السلطان محمد نفسه، ففي ٥١٠هـ/١٦ مايو ١١١٦م، أرسل السلطان محمد وزيره أحمد بن نظام المُلك للقضاء على الباطنية في عاصمتهم بقلعة ألموت الحصينة، وكان الهدف واضحا وهو القضاء التام على رأس الحركة وقادتها في وكرها بألموت، ولكن هذه العملية الحربية فشلت بسبب رفض البوانديين وهم جيران ألموت، مساعدة هذا الوزير (١٩). وفي العام التالي قام السلاجقة بمحاولة أخرى ضد الباطنية قادها أمير ساوه أنوشتكين شيرجير، وفشلت هذه المحاولة بعد حصار طويل لألموت، وكادت هذه القلعة أن تستسلم ولكن أخبار موت السلطان محمد أجبر شيرجير على فك الحصار (٢٠). ويبدو أن إخفاق هذه المحاولات لقمع الباطنية في عاصمتهم في فارس قوى هذه الحركة في بلاد الشام نفسها.

ونعود للحديث عن باطنية بلاد الشام، ففي عام ٥١١هـ/٥ مايو ١١١٧م أخذ آيل

غازي صاحب ماردين مدينة حلب، وقرر أن يبني علاقات خاصة مع الباطنية في مدينة حلب. ووفقا لما ذكره ابن القلانسي، قام آيل غازي بذلك ليتجنب العواقب الوخيمة حالة معارضته للباطنية (٢١)، ودبّر آيل غازي مكيدة ماكرة ضد الباطنية في حلب، ففي تلك السنة أي ٥١٦هـ/ ١٢ مارس ١١٢٢م، فبينما كان آيل غازي في طريقه الى ماردين، استقبل رسولا من بهرام العجمي - زعيم الباطنية في بلاد الشام، المقيم في حلب طالبا تخلي آيل غازي له عن قلعة الشريف الواقعة في مدينة حلب نفسها. وأعلم آيل غازي هذا الرسول بأنه قد أمر لتوه بهدم القلعة، وزعم بأنه سوف يعطيهم القلعة اذا كانت عملية الهدم والتخريب لم تبدأ بعد، وعلى الفور، أرسل رسالة عن طريق الحمام الزاجل لقائده هناك آمرا له بتدمير القلعة في الحال، وعندما عاد مبعوث الباطنية الى حلب، وجد أن القلعة قد هدمت. ولما اكتشف الباطنية في حلب خدعة آيل غازي ندموا بفعلته وشهروا به، وحاول آيل غازي أن يلين من حنق الباطنية عليه زاعما أنه كان سعيدا للتنازل لهم عن قلعة الشريف لو أنهم طلبوا ذلك سرا لا علانية أمام الملأ. وهكذا دمر آيل غازي في جمادي الآخرة عام ٥١٥هـ/ ١٨ اغسطس ١١٢١م، هذه القلعة الاستراتيجية المحصنة في مدينة حلب وأفشل مخطط الباطنية الذي يهدف إلى توطيد أنفسهم في حلب (٢٢).

وأورد ابن العديم أن آيل غازي أمر ابنه شمس الدولة سليمان ـ نائبه في حلب ـ بتدمير قلعة الشريف في مدينة حلب وطرد جميع جنود الملك رضوان ـ الملك الأسبق لحلب ـ الى خارج المدينة (٢٣)، ويبدو أن جنود رضوان هؤلاء كانوا من الباطنية. وعندما أصبح نور الدولة بلك بن بهرام بن أُرتق ـ ابن أخي آيل غازي سيدا لحلب في ربيع الأول عام ٥١٧هـ/ ٢٨ ابريل ١١٢٣م ـ أخذ يعامل الباطنية بخشونة، وخالف سياسة عمه آيل غازي السلمية تجاههم فاعتقل بلك نائب بهرام العجمي ـ زعيم الباطنية في بلاد الشام ـ وطرد الباطنية من حلب في ٥١٨هـ (٢٤). وفي العام التالي في ١٩ ربيع الأول ٥١٨هـ/٦ مايو ١١٢٤م، قُتل بلك بسهم بينما كان يحاصر منبج. ولم يتهم أحد من المؤرخين المعاصرين الباطنية بقتل بلك، ولكن يبدو أن واحدا من الباطنية قتله لأنه طردهم من مركزهم الأصلي في حلب.

ويذكرابن الأثير أنه في نفس السنة ثار أهالي مدينة آمد ضد الباطنية في مدينتهم، والأرجح أن سبب هذه الثورة هو انتقامهم لقتل قائدهم العظيم بلك (٢٥)، والذي كان يحكم آمد بالإضافة الى حلب. كما قتل الباطنية آق سنقر البرسقي حاكم الموصل وحلب في ٨ ذي الحجة ٥٢٠هـ/١٩ ديسمبر ١١٢٦م. ويذكر ابن القلانسي أن البرسقي كان حذرا من الباطنية (٢٦) . ووفقا لما أورده الحافظ الذهبي، فقد نكل البرسقي بالباطنية في حلب أثناء فترة حكمه لحلب من ذي الحجة ٥١٨هـ/ ٩ يناير ١١٢٥إلى ٨ ذو الحجة ٥٢٠هـ/٢٥ ديسمبر ١١٢٦م، ووفقا لما ذكره ابن الأثير فإن عشرة من الباطنية قتلوا البرسقي في المسجد الجامع بالموصل أثناء صلاة الجمعة، وكشفت التحقيقات بشأن اغتيال البرسقي، فيما بعد أن هؤلاء الباطنية قدموا الموصل منذ عدة سنوات سابقة بهدف قتل البرسقي، ولكنهم أخفقوا في ذلك مرات عديدة ونجحوا بقتله في ذلك التاريخ فقط، ويضيف ابن الأثير قائلا: إن أمير أنطاكية بوهيموند الثاني أعلم مسعود بن آق سنقر البرسقي عن مقتل أبيه قبل أن يتسلم أي اتصال رسمي من قادة أبيه بشأن مقتل والده، ويرجع ابن الأثير أن هذه الأنباء وصلت أمير أنطاكية الصليبي عن طريق جواسيس الفرنجة العاملين بين صفوف المسلمين (٢٧).

ونجح بهرام العجمي زعيم الباطنية في بلاد الشام في عام ٥٢٠هـ/ ٢٧ يناير ١١٢٦م، في كسب الكثير من الأتباع في حلب ودمشق.

وحاول آيل غازي حاكم حلب مضطراً اقناع ـ حمى طغتكين حاكم دمشق ـ بالسماح لبهرام زعيم الباطنية خلال فترة حكمه ٥١١هـ ـ ٥١٦هـ/١١١٧ ـ ١١٢٢م للاقامة في دمشق، كما طلب منه أن يظهر توقيره لبهرام لكي يتجنب أذى الباطنية، ويرجع طلب بهرام هذا من آيل غازي لأنه واجه وأتباعه صعوبات عديدة من قبل أهالي حلب وخاصة الشيعة الإثنى عشرية الذين عرفوا بمعاداتهم للباطنية خاصة خلال فترة حكم رضوان حاكم حلب (٤٨٨ ـ ٥٠٧هـ/١٠٩٥ ـ ١١٢٢م). ويذكر ابن الأثير أن (بهرام) كان بامكانه احتلال دمشق ولكنه لم يفعل ذلك لأن غالبية سكان المدينة كانوا من السنة يكرهون الباطنية، ويذكر أيضا أن (بهرام) لم يثق

بأهالي دمشق لأنهم سُنة، واقترح آيل غازي على طغتكين أن يعطيه حصنا كمعقل وملجأ لأتباعه، ولا نعلم ما اذا كان آيل غازي قد تمكن من إقناع طغتكين بتسليم مدينة بانياس للباطنية أم لا، ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها أن موت آيل غازي كان قبل أربع سنوات من تسليم طغتكين المدينة للباطنية، وهذه الحقيقة تبعد إحتمال أن يكون لآيل غازي دور مهم في تسليم طغتكين مدينة بانياس للباطنية، واقترح وزير طغتكين المدعو ابو علي طاهر المزدقاني - في ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ/ ١٨ نوفمبر ١١٢٧م - الذي كان حليفا لبهرام - اقترح على طغتكين تسليم مدينة بانياس للباطنية (٢٨). ووفقا لما أورده ابو المحاسن يوسف بن تغري بردى فإن المزدقاني كان سني المذهب ولم يكن باطنيا ولكنه أُجبر على دعم الباطنية ليكسب نصرة الباطنية ضد خصمه زعيم حركة الأحداث - رئيس دمشق - ثقة الملك مفرج ابن الصوفي (٢٩) . واذا كان هذا التفسير صحيحا فإن ذلك مثال لاستغلال الباطنية المشاكل الداخلية في دمشق لصالحهم وليتمكنوا من توطيد انفسهم في المدينة، كما فعلوا ذلك سابقا في حلب عندما ساندوا الملك رضوان ضد أتابكه السابق جناح الدولة حسين في سنة ٤٩٦هـ/ ١٥ اكتوبر ١١٠٢م، كما هو مذكور آنفا، وبعد تردد سلّم طغتكين بهراما مدينة بانياس وهي واحدة من المدن الاستراتيجية في بلاد الشام، وعندما تسلم بهرام مدينة بانياس في ذي القعدة ٥٢٠هـ/ ١٨ نوفمبر ١١٢٧م، جمع كل أتباعه في هذه المدينة وأعاد تحصين قلعة بانياس. وأصبح الباطنية من ذلك الحين مصدر تهديد خطير لأهالي دمشق لأنهم كانوا يقطعون الطريق على أي شخص كان يمر بالقرب من حدودهم. ووفقا لما أورده ابن القلانسي، فإن أهالي دمشق وخصوصا العلماء والناس المتدينين والأمراء عانوا من قبل تلك الطائفة ولكن أحدا لم يجرؤ على البوح بكلمة نقد لهذه الحركة وذلك لخوفه من أتابك طغتكين وانتقام الباطنية (٣٠)، وأُزعج طغتكين كثيرا من جراء نشاطات الباطنية المؤذية تلك ولكنه مات قبل ان يتسنى له اتخاذ أي إجراء ضدهم (٣١).

وعندما خلف تاج الملوك بوري أباه طغتكين كأمير لدمشق في ٨ صفر عام

٥٢٢هـ/١١ فبراير ١١٢٣م، تابع سياسة أبيه مخفيا عداءه للباطنية، ويصف ابن القلانسي بالتفصيل قلق بوري الذي كان منزعجا بشدة من هذه الطائفة فيخبرنا بأن بوري أخفى خطته للقضاء على هذه الحركة حتىّ أنه أخفاها على أقرب وأوثق قواد عسكره (٣٢). ويبدو أن بوري لم تكن لديه آنذاك القوة اللازمة لقمع الباطنية، وخاصة بعد أن استقطبت هذه الحركة العديد من الأنصار بين صفوف أهالي مدينة دمشق ويستلزم قمع هذه الطائفة دعم أهالي دمشق من جميع الفرق والمذاهب الأخرى كالشيعة (الأثنا عشرية) والدروز والنصيرية وليس الأكتفاء فقط بدعم أهالي دمشق السنة. ولم يذكر ابن القلانسي بالتفصيل خطة بوري هذه لقمع هذه الفرقة، ولكن يمكننا أن نستدل على وجودها من سلسلة الأحداث التي وقعت فيما بعد عندما تتعاون كل هذه الفرق مع بوري لتقف صفاً واحداً ضد الباطنية (٣٣) ففي هذه السنة قتل بهرام - زعيم الباطنية - واحدا من زعماء قبيلة وادي التيم - في إقليم حاصبيا في سهل البقاع - ويدعى برق بن جندل دون مبرر واضح ولكن لحبه لسفك دماء الناس الأبرياء كما أورد ذلك ابن القلانسي، ويبدو أن بهراما قتل هذا الأمير من أجل الإستيلاء على مناطق نفوذه (٣٤) . وقد قرر الضحاك أخو هذا الأمير - الذي خلف أخاه في إمارة وادي التيم الذي كان يسكنه الدروز والنصيرية والمجوس وأخرون - قرر الثأر لدم أخيه، فهاجم الضحاك - ومعه ألف رجل - بهراما واتباعه الذين تقدموا لملاقاة قوات الضحاك في وادي التيم، فهزم وأبيد جيش بهرام في هذا الهجوم، وأخذ أحد جنود الضحاك رأس بهرام إلى مصر ليبشر الخليفة الفاطمي بمصر بمقتل زعيم الباطنية في بلاد الشام، فحصل هذا المحارب على خلعة وهدايا ثمينة من الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله (٣٥). ولا تذكر المصادر التاريخية عدد الباطنية الذين قتلوا في هذه المعركة ولكنهم أوضحوا بأن الباطنية عانوا خسائر فادحة، إلا أن الباطنية تمكنوا بعد هذه النكبة من استعادة عافيتهم وأعادوا تأسيس وتوطيد أنفسهم في مدينتي دمشق وبانياس، فقد أُرسل إسماعيل العجمي من عاصمة الباطنية بألموت ليحل محل بهرام كزعيم جديد لباطنية بلاد الشام، وقدم وزير بوري المعروف بالمزدقاني لزعيم الباطنية الجديد دعما أكثر مما قدمه لسابقه بهرام. ووفقا لما أورده ابن الأثير فإن الوزير المزدقاني عين داعيا آخرا في دمشق يدعى ابو الوفا

كخليفة لبهرام، ويبدو أن هذه المعلومة مشكوك في أمرها، ذلك أن عملية اختيار داعي الباطنية تتم في عاصمة الباطنية في قلعة ألموت. ويعتقد ابن القلانسي أن اسماعيل العجمي أصبح زعيماً لباطنية بلاد الشام ولا يذكر شيئا عن أبي الوفا، ولكن يبدو أن ابن القلانسي يذكر ابا الوفا تحت اسم آخر وهو شاذي الخادم الذي أعدم فيما بعد في مجزرة الباطنية التي ستحل بهم على أيدي أهالي دمشق في ١٧ رمضان ٥٢٣هـ/٤ سبتمبر ١١٢٩ في دمشق (٣٦). ويذكر ابن الأثير أن سلطة أبي الوفا أصبحت في دمشق أكثر من سلطة الأمير بوري نفسه بعد أن حصل على مساعدة الوزير المزدقاني، ويضيف قائلا بأن المزدقاني تآمر مع الغزاة الصليبيين لتسليمهم مدينة دمشق مقابل أن يعطوه مدينة صور، وقد وافق الصليبيون أن يباغتوا مدينة دمشق يوم الجمعة عندما يكون المسلمون جميعا منشغلين بأداء صلاة الجمعة، وفي أثناء ذلك يقف الباطنية حراسا على أبواب المساجد ليمنعوا أهالي دمشق عن قتال الصليبيين عندما يباغتون المدينة. وعندما كشفت خيوط هذه المؤامرة، قرر بوري التخلص من وزيره والباطنية في إمارة دمشق، فقتل وزيره وعلق رأسه على قلعة دمشق، ثم أمر الناس بقتل كل باطني في المدينة. وفي ١٧ رمضان ٥٢٣هـ/٤ سبتمبر ١١٢٩، أثخن أهالي دمشق الباطنية قتلا فقتلوا عشرة آلاف باطني في المدينة، وتطهرت إمارة دمشق من شرور الباطنية (٣٧).

ويقدر المؤرخ الدمشقي المعاصر ابن كثير تعداد سكان مدينة دمشق في ٥٤٣هـ/ مايو ١١٤٨م. بحوالي ١٣٠,٠٠٠ نسمة. وعلى هذا فإن الباطنية كانوا يمثلون أقلية كبيرة نوعا ما، مجتمعة في المدينة (٣٨). وقد نوه ابن القلانسي إلى دور جماعة الأحداث في قتل الباطنية في دمشق، فقد لعبت هذه الجماعة دورا كبيرا في تاريخ دمشق منذ القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي، وكان شاذي الخادم من بين الذين قتلوا من قادة الباطنية في دمشق وهو واحد من أتباع أبي طاهر الصائغ الذي ذكر آنفا على أنه أول زعيم للباطنية في بلاد الشام، وقد نشر أبو طاهر الدعوة الباطنية في بلاد الشام في فترة حكم الملك رضوان حاكم حلب (٣٩). وبعد هذه الكارثة خشى إسماعيل العجمي - حاكم بانياس - من أن تثور رعيته على أتباعه كما

فعل أهالي دمشق ذلك من قبل كما تخوف من هجوم خاطف يشنه تاج الملوك بوري على بانياس، ولهذه الأسباب ولأسباب أخرى غير معروفة قرر إسماعيل العجمي تسليم المدينة للصليبيين، وهكذا استولى الصليبيون على بانياس في أواخر ٥٢٣هـ/١١٢٩م من دون عناء، وغادر باطنية بانياس المدينة الى مناطق وأقاليم تابعة للصليبيين. وفي مستهل عام ٥٢٤هـ/١١٣٠م تُوفي إسماعيل العجمي وظلت (بلاد الشام) في منأى عن خطر الدعوة الباطنية، ويشير ابن القلانسي الى أن الباطنية تفرقوا وتشتت جمعهم بعد كارثة رمضان ٥٢٣هـ، وأن اسماعيل العجمي نفسه توفي في بانياس في بداية ٥٢٤هـ/١٥ ديسمبر ١١٢٩، عندما كانت تحت سيطرة الصليبيين وأن بعض أتباعه استوطنوا في المناطق التابعة الصليبيين. وبعد تلك الكارثة التي حلت بالباطنية في دمشق في ٥٢٣هـ/١١٢٩م وتخلي الباطنية عن بانياس للصليبيين، ثم موت زعيم الباطنية في العام التالي، كل ذلك أدى إلى خسارة الباطنية جميع مواطن نفوذهم في بلاد الشام بما في ذلك إمارة دمشق. وعلى الرغم من أن الباطنية سيتمكنون من قتل بوري نفسه في ٥ رجب ٥٢٥هـ/٥ يونيو ١١٣١ والأخذ بثأر إخوانهم إلا أن هؤلاء الباطنية لم يكونوا مقيمين ببلاد الشام ولكنهم قدموا مباشرة من مقر القيادة الباطنية في ألموت (٤٠). ولن تسنح للباطنية فرصة لكسب موطىء قدم جديد لهم في إمارة دمشق أثناء فترة حكم أسرة طغتكين، ولن يعاودوا الظهور هناك حتى نهاية حكم أسرة طغتكين عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م عندما سينجح نور الدين صاحب حلب في الاستيلاء على مدينة دمشق.

وبعد شهرين فقط من تلك الكارثة التي حلت بالباطنية في دمشق أي في ذي القعدة ٥٢٢هـ/ ١٦ اكتوبر ١١٢٩، واجهت مدينة دمشق محاولة جديدة من قبل الصليبيين لاحتلالها، ويمكن عزو محاولة الصليبيين تلك لأهمية دمشق بالنسبة للصليبيين كما أوضحت ذلك عند الحديث عن محاولتهم الفاشلة لاحتلال المدينة قبل أربع سنوات في ٥١٩هـ.١١٢٥م، وهناك عوامل عدة شجعت الصليبيين هذه المرة شجعت لمحاولة الإستيلاء على مدينة دمشق، فالكارثة التي عانت منها الباطنية في دمشق في ٥٢٣هـ/١١٢٩م، وتسلم الصليبيين مدينة بانياس من الباطنية،

وكذلك مؤامرة الوزير المزدقاني والباطنية وحلفائهم لتسليم مدينة دمشق نفسها للصليبيين، كل هذه العوامل حفزتهم لغزو مدينة دمشق في ٥٢٣هـ/١١٢٩م، وابن الأثير ـ المؤرخ الوحيد الذي يذكر مؤامرة المزدقاني مع الصليبيين لتسليم مدينة دمشق مقابل إعطائه مدينة صور كتعويض له ـ يعتقد بأن السبب الأساسي لهذه المحاولة الصليبية الجديدة هو فشل تلك المؤامرة، ومن جهة أخرى يكشف ابن القلانسي أن مقتل الوزير المزدقاني وتسلم الصليبيين لبانياس والكارثة التي عانتها الباطنية في دمشق بعد مقتل العشرة آلاف باطني الذين كانوا يمثلون نسبة مهمة من إعداد قوات إمارة دمشق كل هذه الأمور جعلت الصليبيين يعتقدون بأن فرصتهم للاستيلاء على المدينة في ٥٢٣هـ/١١٢٩م سوف تكون فرصة نجاحها أكثر من المحاولة السابقة في ٥١٩هـ/ ٧ فبراير ١١٢٥م. ولا يعطينا وليم الصوري السبب المباشر الذي يكمن وراء هذه المحاولة ولكنه يشير الى أن قضية الاستيلاء على دمشق قد تبناها هيو صاحب Payens قائد الحركة الصليبية العسكرية الجديدة التي تسمى «فرسان المعبد» ولقد تلقى هذا القائد دعما وتشجيعا كبيرين من قبل ملك بيت المقدس الصليبي بلدوين الثاني وأمراء صليبيين آخرين في المشرق لطلب النجدة والمساعدة من الصليبيين في الغرب، وتقدمت قوات صليبيي المشرق مع القادمين الجدد بقيادة الملك بلدوين الثاني لفرض الحصار على مدينة دمشق في ٥٢٣هـ/١١٢٩م (٤١).

ولا يعطينا وليم الصوري العدد التقديري للجيش الصليبي في هذه الحملة العسكرية فأغفل ذكر هذا على الأرجح ليقلل من قيمة انتصار الدمشقيين وليقلل من خيبة أمل الصليبيين وفشلهم في هذه المعركة، ومن جهة أخرى فإن المؤرخين المسلمين يبالغون في تقدير عدد الصليبيين ليعظموا من انتصارهم على أعدائهم الفرنجة، فيقدر ابن القلانسي عدد الجنود والمشاة في الجيش الصليبي بستين ألف رجل (٤٢) بينما يقدر ابن الأثير عدد الفرسان الصليبيين بألفى رجل بالإضافة الى عدد لا يحصى من الجند المشاة (٤٣). ويبدو أن عدد أفراد الجيش الصليبي كان لا يتعدى الثلاثين ألف رجل بما فيهم الفرسان الذين يبلغ عددهم الألفين، واذا كان

تقدير عدد الفرسان الصليبيين صحيحا، فإن هذا يعني أن الصليبيين أخذوا يعانون في تلك الفترة من نقص في سلاح الفرسان، وليس لدينا تقدير للجيش الدمشقي من أن أي مؤرخ هام في ذلك الوقت، ويتحدث ابن القلانسي بانضمام العديد من المتطوعة والمرتزقة لعسكر دمشق من التركمان ومن البدو «العرب» والذي يمكن تقدير عددهم بحوالي ثمانية آلاف، ويمكننا أن نضيف أيضا سبعة آلاف مقاتل تقريبا من مدينة دمشق نفسها وبهذا يمكن تعداد جيش دمشق مع المتطوعة بثلاثة عشر ألفا الى خمسة عشر ألف رجل. وتقدم الصليبيون في ذي القعدة ٥٢٣هـ/ ١٦ اكتوبر ١١٢٩م من بانياس إلى دمشق، وحطوا على جسر الخشب ـ الذي يبعد ستة أميال جنوب غرب المدينة ـ وخيموا هناك، كما تقدم الجيش الدمشقي والتركمان والعرب بقيادة مرة بن ربيعة مقسمين على شكل مفارز مختلفة حيث سيسهل عليهم هذا التكتيك مواجهة الجيش الصليبي الذي يفوقهم عددا وعدة، حيث سيقومون بإشغال الجيوش الصليبية عند هجومها عليهم. ومضت عدة أيام لم يجرؤ الصليبيون فيها على بدء هجومهم واكتشف الجيش الدمشقي أن تأجيل الفرنجة للبدء بهجومهم كان بسبب إرسالهم نخبة من جيشهم تجاه حوران ـ جنوب دمشق ـ وذلك لجمع المؤن، (٤٤) ويورد وليم الصوري بأن الجزء الرئيس من ذلك الجيش الصليبي كان من الفرسان ويقدر تعدادهم بألف فارس بقيادة وليم حاكم طبرية، ويصفهم بأنهم رجال من الرتب الدنيا (٤٥)، وعندئذ، أرسل بوري خيالته بقيادة شمس الخواص مع عسكر حماة والتركمان والعرب وذلك لمهاجمة ذلك الجزء من الجيش الصليبي عندما كان في طريق عودته في منطقة تدعى بُراق الواقعة على بعد ستة وعشرين ميلا جنوب غرب مدينة دمشق، وليس لدينا تقدير لعدد قوات شمس الخواص تلك (٤٦)، ويصف وليم الصوري جيش وليم صاحب طبرية بانه جيش غير مجهز لمواجهة الأخطار وغير حذر، واضطر هذا الجيش إلى القتال، وهزم وقتل العديد منهم بأيدي جيش شمس الخواص، ولا يذكر لنا وليم الصوري عدد الإصابات في صفوف الصليبيين (٤٧)، بينما يذكر ابن الأثير بأن وليم صاحب طبرية نفسه وتسعة وثلاثين صليبيا فقط نجوا وفروا من ميدان المعركة، بينما أسر من

الصليبيين ثلاثمائة فارس وغنم الجيش الدمشقي عشرة آلاف من رؤوس الأغنام، (٤٨) وقرر الجيش الصليبي بعد هذه الكارثة الثأر لهزيمة بُراق، ولكن لسوء الطقس ـ كما يورد وليم الصوري ـ فإنهم أجبروا على فك حصار مدينة دمشق (٤٩)، ومن جهة أخرى يعتقد كل من ابن الأثير وابن القلانسي بأن كارثة بُراق والخوف من جيش دمشق الكبير كان السببين الرئيسيين لانسحاب الصليبيين، (٥٠) ويشير ابن القلانسي إلى أن أهالي مدينة دمشق كانوا في حالة خوف شديد من الصليبيين قبل نصر بُراق، وأنهم لم تكن لديهم الجرأة على الخروج ولو قريبا عن مدينتهم، فحققوا هذا النصر في براق بإيمانهم بالله وليس بقوتهم الذاتية (٥١).

إن ظهور عماد الدين زنكي ـ حاكم الموصل ـ في ٥٢١هـ/١١٢٨م كأتابك لألب أرسلان داود بن سلطان محمود وكحاكم لحلب في ٥٢٢هـ/١١٢٨م كان له الأثر الحاسم على مجرى الأحداث في تأسيس قوة مسلمة متحدة في بلاد الشام والجزيرة الفراتية لمواجهة الغزاة ـ وستأثر هذه القوة على مستقبل الإمارات الصليبية في المشرق. كما إن عماد الدين زنكي ـ من خلال قوة شخصيته وشجاعته ـ برهن للسلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين قدرته على تأسيس قاعدة ذات نفوذ قوي في غضون بضع سنوات وعلى هز قواعد الامارات الصليبية في بلاد الشام، وسيؤثر ظهور هذه الشخصية القوية تأثيرا عميقا على مستقبل إمارة دمشق فخلال فترة حكم بوري فقدت دمشق مدينة حماة التي تعد واحدة من أهم مدنها التي استولى عليها زنكي في عام ٥٢٤هـ/ في ١٥ ديسمبر ١١٢٩م، حيث أرسل زنكي رسالة آنذاك الى بوري طالبا منه مساعدته في عملياته الحربية ضد الصليبيين، وبعد إرسال زنكي عدة مبعوثين الى بوري، لبى بوري هذا الطلب ولكنه طلب من زنكي أن يقسم بألا يتآمر ضد الجيش الذي يزمع بوري بإرساله له. وابن القلانسي الذي يذكر هذا الأمر لا يشير الى سبب عدم ثقة بوري بزنكي في ذ لك الوقت، ولكن يبدو أن بوري لا يزال يتذكر تآمر زنكي ضد الحاكم السابق لحلب بعد إستيلائه على المدينة في عام ٥٢٢هـ/ ٦ يناير ١١٢٨م ففي أثناء مرحلة تعزيز سيادته في حلب قتل زنكي خلتلغ أبه الأتابك السابق لابن مسعود بن البرسقي (٥٢) فبعد أن

أعطى زنكي لبوري العهود والأيمان المؤكدة بألا يغدر بعسكر دمشق، أرسل بوري أفضل خمسمائة فارس لديه بقيادة قائده الأمير شمس الخواص إضافة الى جيش حماة بقيادة ابنه بهاء الدين سونج. استقبل زنكي جيش دمشق استقبالا حسنا، ولكنه تآمر عليه بعد مرور بضعة أيام وسجن سونج وشمس الخواص وبعض المقدمين والجنود المتميزين وأجبر الاخرين على الفرار، ثم تقدم زنكي باتجاه مدينة حماة حيث كانت خالية من الحماة لأنهم خرجوا لمساعدة زنكي فغدر بهم فاستولى زنكي على المدينة في ٨ شوال ٥٢٤هـ/٥ اكتوبر ١١٣٠م دون قتال، ومنها زحف الى حمص التي كانت تحت سيطرة حاكمها المستقل خير خان بن قراجة الذي منحه السلاجقة مدينة حمص كإقطاع منذ عام ٥٠٩هـ/ ٢٧ مايو ١١١٥م، أثناء الحملة السلطانية السلجوقية ضد طغتكين وآيل غازي والتي سبق ذكرها، ووفقا لما أورده ابن القلانسي فإن ابن قراجة تحالف مع زنكي ضد سونج، وأغرى ابن قراجة زنكي ضد سونج، وعلى أية حال قام زنكي بإلقاء القبض على ابن قراجة وسلب متاعه وأمره بعد ذلك بأن يتخلى عن مدينة حمص فبعث ابن قراجة إلى ابنه وأتباعه في حمص طالبا منهم تسليم المدينة لزنكي، ورفض أهالي حمص أمر قائدهم هذا الذي كان في حالة إضطرار فقاوموا قوات زنكي لمدة أربعين يوما، واضطر زنكي لفك الحصار عن حمص والعودة إلى الموصل مع سجنائه سونج بن تاج الملوك بوري وبعض قادته،وأرسل بعض السجناء الأخرين إلى حلب (٥٣).

ويبدو أن زنكي لم يكن في حاجة لأي أحد ليشجعه على الاستيلاء على حماة ففي دراسة للمورخ المحدث عماد الدين خليل بعنوان **عماد الدين زنكي** يشير المؤرخ بأن زنكي كان لديه طموحات للاستيلاء على إمارة دمشق قاطبة فبدأ بأخذ حماة ثم حاول الاستيلاء على حمص وذلك لإضعاف إمارة دمشق، كما لو أنك اقتلعت جناحي طائر وبهذه الطريقة فإن الاستيلاء على عاصمة الإمارة «مدينة دمشق» سيكون سهلا بالنسبة له فيما بعد (٥٤)، وأرسل بوري العديد من المبعوثين إلى زنكي يذكره بقسمه له ويطلب منه إطلاق سراح ابنه سونج، ولكن زنكي طلب فدية كبيرة جدا بلغت حوالي خمسين ألف دينار مقابل إطلاق سراح سونج، ويبدو أن زنكي

طلب هذه الفـدية على الأرجح لكي يسـتنزف دمـشق اقـتـصـاديا ويمهـد الطريق لاستسلامها له في المستقبل.

فوافق بوري آنذاك على شروط هذه الفدية ولكنه أجل الدفع وذلك على الأرجح لأنه لم يكن يملك آنذاك هذا المقدار الكبير من المال (٥٥). وأكد تآمر زنكي ضد سونج لبوري ولأهالي دمشق أن زنكي جاد في محاولته السيطرة على إمارتهم، ولذلك أصبح كل أحد منهم حذرا من زنكي وسيدفع هذا الخوف أهالي دمشق مستقبلا لاقامة أحلاف مع الصليبيين ضد زنكي خاصة خلال فترة حكم مجير الدين أبق بين سنتي ٥٣٤ ـ ٥٤٩هـ/١١٤٠ ـ ١١٥٤م وهو الأمير الأخير في عائلة طغتكين ،فتآمر زنكي ذاك هو السبب وراء إخفاقه للاستيلاء على دمشق في مرتين اثنتين فقد ولّد ذلك التآمر شعورا بعدم الثقة بين الدمشقيين تجاه زنكي ولذلك فضل أهل دمشق حكم أسرة طغتكين على حكم زنكي لهم.

حاول بوري جاهدا بأن لا يتورط في أي نزاع مع زنكي لفقدانه أفضل فرسانه، ولذلك فهو لم يعد يمتلك القوة الكافية لتحدي سطوة زنكي في بلاد الشام، ويبدو أن بوري أدرك أن طموح زنكي لن يقف عند حد استيلائه على مدينتي حماة وحمص فحسب، بل الاستيلاء على إمارة دمشق كلها، ولكل هذه الأسباب لم يكن بوري مستعدا للمجازفة في قتال ضد زنكي صاحب أقوى قوة مسلمة في بلاد الشام في ذلك الوقت، ولهذا قبل بوري دفع الفدية المطلوبة لإعادة ابنه سونج. وعلى أية حال، تمكن بوري من إعادة ابنه والقادة الآخرين من زنكي دون دفع هذه الفدية في ٥٢٥هـ/ ٤ ديسمبر ١١٣٠م، فقد شاءت الأقدار أن ينجو سونج من أسر زنكي، ففي هذه السنة وصلت الأنباء الى دمشق من حلة مكتوم بن مسمار شرقي الغوطة بأن دبيس بن صدقة ـ والي الحلة بجنوب العراق الذي هزم مؤخرا من قبل الخليفة العباسي المسترشد بالله عبر حلة مكتوم بن مسمار، وذلك ليتسلم بصرى من إمرأة استبدت ببصرى التابعة لإمارة دمشق، وأنه قد ظل غايته بينما كان في طريقه الي حلة مري بن ربيعة في أقاليم صرخد فخسر معظم جنوده وهجره الباقون وبقى وحيدا مع بعض الحراس في حلة مكتوم بن مسمار، وفي الحال أرسل بوري

مجموعة من الفرسان ليأخذوا ابن صدقة الى قلعة دمشق في ٦ شعبان ٥٢٥هـ/٦ يوليو ١١٣١م، وسجن بوري ابن صدقة وعامله برفق وأعلم الخليفة العباسي المسترشد عن أسره للمتمرد ابن صدقة، فأمر المسترشد بوري بالاحتفاظ بابن صدقة في السجن تحت حراسة مشددة الى أن يستطيع إرسال خفراء ليأخذوا ابن صدقة إلى بغداد (٥٦)، ويبدو أن بوري فعل ذلك ليكسب سمعة طيبة عند الخليفة العباسي كما فعل ذلك أبوه طغتكين ذلك من قبل.

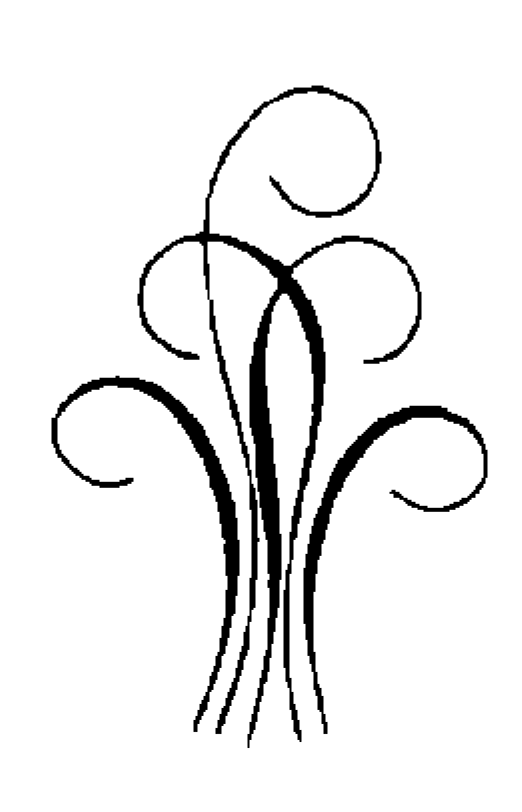
وعندما وصلت أنباء أسر ابن صدقة الى زنكي اقترح على بوري تسليم ابن صدقة مقابل اطلاق سراح سونج وقادته والغاء الفدية المحددة سابقا، ووافق بوري على هذا العرض السخي من زنكي دون تردد لإنقاذ ابنه سونج (٥٧)، ويضيف ابن الأثير بأن بوري رفض هذا العرض ولكنه كان عليه أن يقبله على مضض حيث إن زنكي قد هدده بفرض الحصار على دمشق ونهب أعمالها إذا لم يقبل بهذا العرض (٥٨)، ولم يثق بوري بزنكي الذي غدر بابنه سونج قبل عامين، ولذلك فلم يسلم ابن صدقة لزنكي حتى أطلق زنكي سراح سونج وقادته (٥٩) ووصل في تلك الأثناء دمشق مبعوث الخليفة المسترشد سديد الدولة الأنباري لمناقشة مسائل معينة مع بوري، وتبين أن الموضوع الأساسي والمهم يكمن في تسليم ابن صدقة الى الأنباري كما هو مذكور آنفا واستقبل مبعوث الخليفة استقبالا حسنا من قبل بوري، وكعادة مؤرخنا ابن القلانسي عندما يكتب عن شيء لا يحبه يكتب بإختصار وبغموض فيذكر أن بوري رد على جميع اسئلة الخليفة ولكنه لا يذكر أية تفصيلات عن هذه الأسئلة، وإضافة إلى ذلك أهدى بوري مبعوث الخليفة هدايا سخية للمبعوث نفسه وللخليفة (٦٠)، ويبدو أن بوري أعطى هذه الهدايا للمبعوث ليشجعه على كتابة تقرير مناسب لرحلته إلى دمشق ولتقديم الأسباب المقنعة الى الخليفة بشأن تسليم بوري عدوه ابن صدقة لزنكي دون استشارته أولا، وأثناء تلك الفترة التاريخية كان الخليفة يتوق لإعادة الهيبة للخلافة العباسية التي كانت تمارس من قبل الخلفاء العباسيين الأوائل كالمنصور والرشيد والمأمون، ولقد تمنى بوري حتما أن يتورط الخليفة بنزاع مع زنكي والذي سيضطر زنكي بسببه للعدول عن فكرته في الاستيلاء على مدينة

دمشق، وهذا ما حدث بالفعل عندما ذهب المسترشد مع ثلاثين ألف جندي في ٥٢٧هـ/ ١٢ نوفمبر ١١٣٢م محاولا أخذ الموصل من زنكي ولكنه أخفق في تحقيق ذلك (٦١). وبعد مقتل وزير بوري المعروف بالمزدقاني في ٥٢٣هـ/١١٢٩م حاول بوري جاهدا أن يختار وزيرا جديدا، ووفقا لما ذكره ابن القلانسي لم ينجح بوري في تعيين وزير مناسب إلا أنه في ٥٢٤هـ/١٥ ديسمبر ١١٢٩م عين بوري أبو الذؤاد ثقة الملك المفرج بن الحسن الصوفي - رئيس دمشق - كوزير جديد له، ومع أن هذا الوزير الجديد كان ضعيفا في الكتابة والفصاحة ولكنه كان رشيدا وأمينا وذا خبرة في الحسابات، وعمل ابن الصوفي ما بوسعه لتحسين الوضع في الإمارة واختار موظفين أمناء وأكفياء لمساعدته إلا أن بوري طرد هذا الوزير الجديد في ربيع الأول ٥٢٥هـ/ ١٢ فبراير ١١٣١م بسبب الشكوك التي كانت تدور حول أمانته مما أدى إلى سجنه وسجن بعض أقربائه، ثم جرده من الوزارة ورئاسة دمشق كذلك، وعين بوري أبا الفضل أحمد بن عبد الرزاق المزدقاني ابن عم الوزير السابق وزيرا له، وإثبت هذا الوزير الجديد كفاءته في ادارته لشؤون الوزارية وأثنى عليه ابن القلانسي بإدعائه أن هذا الوزير كانت لديه المعرفة الواسعة في التاريخ الاداري.

وحاول الباطنية في ٥ جمادى الآخرة ٥٢٥هـ/٧ مايو ١١٣١م، قتل بوري وذلك للثأر لمقتل أتباعهم في ٥٢٣هـ/١١٢٩م ولم يمت بوري على الفور في تلك المحاولة ولكنه أصيب إصابة بالغة في بطنه والتي ستؤدي الى وفاته متأثرا بها في السنة التالية (٦٢). وكما هو مذكور أعلاه فقد أطلق سراح سونج من قبل زنكي في ٥٢٥ هـ ٤ ديسمبر ١١٣٠م وطلب سونج من ابيه يطلق سراح ابن الصوفي الوزير السابق ورئيس دمشق، وبالرغم من أن بوري أطلق سراح ابن الصوفي وعينه في منصبه السابق كرئيس لدمشق إلا أنه لم يعده إلى منصب الوزارة لما كان عليه قبل تعيين المزدقاني، واحتفظ بوري بوزيره المزدقاني على الرغم من أنه كان متهما بأنه اشترك مع الباطنية في محاولة قتل بوري كما هو مذكور أعلاه (٦٣).

وعندما شعر بوري في رجب ٥٢٥هـ/٣ يونيو ١١٣٢م بدنو أجله بسبب إصابته من قبل الباطنية في وقت مبكر من ذلك العام، جمع كبار الموظفين والقادة والفقهاء

والوجهاء ليستشيرهم حول مسألة خلافته، اقترح عليهم اسم ابنه الأكبر (ابو الفتح اسماعيل) فوافقوا الجميع بالإجماع على هذا الترشيح، وأكد كبار الموظفين والقادة طاعتهم وولائهم لابنه اسماعيل، و دعوا الله بالشفاء العاجل لأميرهم تاج الملوك بوري، وبعد هذه الموافقة أصدر بوري مرسوما بتعيين ابنه إسماعيل خلفا له، وأمر هؤلاء الحاضرين بطاعة إسماعيل وبعد سنة واحدة فقط بعد هذا الاجتماع توفي بوري في ٢١ رجب ٥٢٦هـ/٦ يونيو ١١٣٢م وخلفه بذلك ابنه شمس الملوك أبو الفتح إسماعيل كثالث أمير لإمارة دمشق (٦٤).

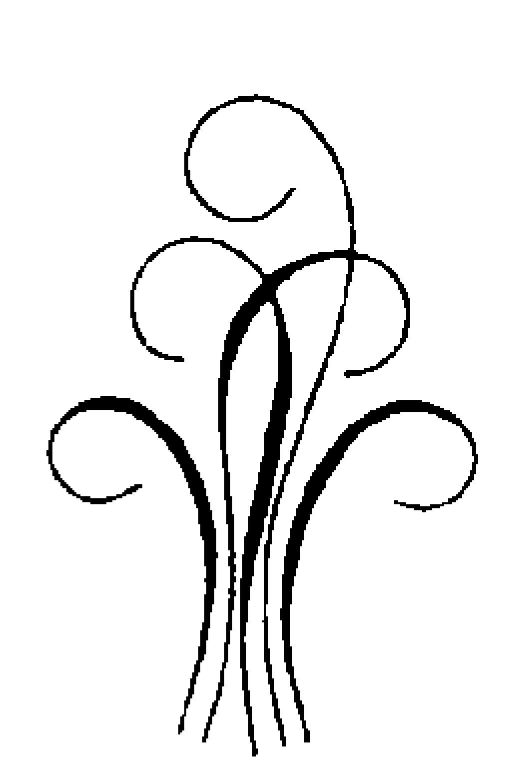


الهوامش

(١) ابن القلانسي، صفحة ١٢٨.
(٢) برنارد لويس، **القتلة طائفة متطرفة في الاسلام** (لندن، ١٩٨٥م) صفحة ٤٩.
(٣) ابن الأثير، صفحة ٢٧٨.
(٤) مصطفى غالب، **أعلام الاسماعيلية** (بيروت، ١٩٦٤)، صفحة ٢٠٣.
(٥) ام. جي. اس هودجسون، **نظام القتلة** (الهيج ١٩٥٥م)، صفحة ٨٩؛ ان. ايه. ميرزا «الاسماعيلية في سورية في عصر الحروب الصليبية»، اطروحة دكتوراة فلسفة (جامعة درم ١٩٦٣م)، صفحة ٨٩.
(٦) غالب، الصفحات ١٥٧ ـ ١٥٨؛ هودجسون صفحة ٨٩؛ ميرزا صفحة ١٤.
(٧) ابن العديم، صفحة ١٤٥.
(٨) ابن تغري بردي، المجلد الخامس، صفحة ٢٠٥.
(٩) غالب، الصفحات ٨٥ ـ ٨٦.
(١٠) نفس المصدر المذكور آنفا، صفحة ١٥٩.
(١١) هودجسون، الصفحات ٩٠ ـ ٩١، ابن القلانسي، صفحة ١٤٢.
(١٢) غالب، صفحة ١٥٨.
(١٣) هودجسون، صفحة ٩٢.
(١٤) نفس المصدر المذكور آنفا، صفحة ٩٣.
(١٥) ابن العديم، الصفحات، ١٦٧ ـ ١٦٨.
(١٦) غالب، الصفحات ٨٥ ـ ٨٦، ٢٠٤، ٤٠١؛ ابن العديم الصفحات ١٦٨ ـ ١٦٩؛ ابن القلانسي، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.
(١٧) غالب، صفحة ٨٦؛ هودجسون، الصفحات ٩٤ ـ ٩٥؛ ابن القلانسي، الصفحات ١٩٠ ـ ١٩١.
(١٨) هودجسون، صفحة ٩٤، ميرزا صفحة ٢٠.
(١٩) هودجسون، ص ٩٧.
(٢٠) نفس المصدر المذكور آنفا، الصفحات ٩٧ ـ ٩٨.
(٢١) ابن القلانسي، صفحة ٢١٥.
(٢٢) كارول. هيلينبراند، «سيرة نجم الدين آيل غازي»، صفحة ٢٨٨.
(٢٣) ابن العديم، صفحة ١٩٩.

(٢٤) ابن العديم، صفحة ٢١٩؛ ميرزا صفحة ٢٠.
(٢٥) ابن الأثير، صفحة ٣١٥.
(٢٦) ابن القلانسي؛ صفحة ٢١٤.
(٢٧) ابن الأثير، صفحة ٣٢٠ ـ ٣٢١؛ الذهبي، صفحة ٤٦.
(٢٨) ابن الأثير، صفحة ٣٢٠؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٢١؛ الذهبي، الصفحات ٥٢ ـ ٥٣، ملاحظة؛ يسمى الذهبي بهرام باسم الأسد آباذي.
(٢٩) ابن تغري بردي، المجلد الخامس، صفحة ٢٣٥.
(٣٠) ابن القلانسي، صفحة ٢١٥.
(٣١) ميرزا، صفحة، ٢٢١.
(٣٢) ابن القلانسي. صفحة ٢٢١.
(٣٣) نفس المصدر المذكور آنفا، صفحة ٢٢١.
(٣٤) ابن القلانسي، صفحة ٢٢١؛ برنارد لويس، صفحة ١٠٦.
(٣٥) ابن الأثير، صفحة ٢٢٨؛ ابن القلانسي، الصفحات ٢٢٢ ـ ٢٢٣، المقريزي، المجلد الثالث، صفحة ١٢١؛ الذهبي، صفحة ٥٢.
(٣٦) ابن الأثير، صفحة ٣٢٩، ابن القلانسي، الصفحات ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٣٧) ابن الأثير، الصفحات ٣٢٨ ـ ٣٢٩؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٢٣؛ الذهبي، الصفحات ـ ٥٢ ـ ٥٣.
(٣٨) أبو الفدا ابن كثير، **البداية والنهاية** (بيروت ١٩٦٦م)، المجلد الثاني عشر، الصفحة ٢٢٤.
(٣٩) ابن القلانسي، صفحة ٢٢٣.
(٤٠) ابن القلانسي، الصفحات ٢٢٤ ـ ٢٣٠؛ الذهبي، صفحة ٥٣، يذكر الذهبي أن بهراما هو الذي سلم بانياس للصليبيين وليس إسماعيل العجمي.
(٤١) وليم الصوري، الصفحات ٤٠ ـ ٤٢؛ ابن الأثير، صفحة ٣٢٩؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٢٥.
(٤٢) ابن القلانسي، صفحة ٢٢٥.
(٤٣) ابن الأثير، صفحة ٣٢٩.
(٤٤) ابن القلانسي، الصفحات ٢٢٤ ـ ٢٢٥؛ جيب، صفحة ١٩٦.
(٤٥) وليم الصوري، الصفحات ٤١ ـ ٤٢.
(٤٦) ابن القلانسي، صفحة ٢٢٥؛ رانسيمان، صفحة ١٨٠.
(٤٧) وليم الصوري، صفحة ٤٢.
(٤٨) ابن الأثير، صفحة ٣٢٩.
(٤٩) وليم الصوري، الصفحات ٤١ ـ ٤٢.
(٥٠) ابن الأثير، صفحة ٣٢٩؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٢٦.
(٥١) ابن القلانسي، الصفحات ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٥٢) ابن العديم، صفحة ٢٤٣؛ ابن القلانسي، الصفحات ٢٢٧ ـ ٢٢٨؛ الذهبي، صفحة ٥٠.

(٥٣) ابن القلانسي، صفحة ٢٢٨؛ ابن العديم، الصفحات ٢٤٥ ـ ٢٤٦، الذهبي، صفحة ٥٢.
(٥٤) عماد الدين خليل «عماد الدين زنكي» (بيروت ١٩٧٢م)، صفحة ١١٩.
(٥٥) ابن القلانسي، صفحة ٢٢٨؛ الذهبي، صفحة ٥٢.
(٥٦) ابن الأثير، صفحة ٣٣٣؛ ابن القلانسي، الصفحات، ٢٣٠ ـ ٢٣١.
(٥٧) ابن القلانسي، صفحة ٢٣١.
(٥٨) ابن الأثير، صفحة ٣٣٣.
(٥٩) ابن القلانسي، صفحة ٢٣١.
(٦٠) نفس المصدر المذكور آنفا، صفحة ٢٣١.
(٦١) ابن الأثير، تاريخ **الدولة الأتابكية**، الناشر، أحمد طليمات، (القاهرة ١٩٦٣م)، الصفحات، ٤٧ ـ ٤٨.
(٦٢) ابن القلانسي، الصفحات، ٢٢٧ ـ ٢٣٠، الذهبي، صفحة، ٥٥.
(٦٣) ابن القلانسي، الصفحات ٢٢٩ ـ ٢٣١. لم يكن واضحا بالضبط ما هو دور «الرئيس» في إمارة دمشق ولكن يظهر أنه كان قائد جماعة الأحداث.
(٦٤) ابن القلانسي، الصفحات، ٢٣٢ ـ ٢٣٣؛ الذهبي؛ صفحة، ٦٩.



الفصل الرابع

عهد شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بُورِي

(٥٢٦هـ - ٥٢٩هـ)/ (١١٣٢م - ١١٣٥م)

تولى شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بُوري الإمارة بعد وفاة والده وذلك في ٢١ رجب ٥٢٦هـ الموافق ٩ يونيو ١١٣٢م، واتبع شمس الملوك إسماعيل سياسة والده الداخلية وكسب كل جنوده والقادة عن طريق زيادة اعطياتهم والتي كانت تعرف بالَجامَكيات وهي رواتب سنوية أو فصلية، كما أقر لهم كافة الإقطاعيات الخاصة بهم، واحتفظ شمس الملوك بوزير والده (المَزْدقَاني) كما فعل تاج الملوك من قبل عندما احتفظ بوزير والده طغتكين أيضا. ولكن شمس الملوك سلب من وزيره معظم اختصاصات السلطة التي استخدمها ببراعة سابقا خلال عهد تاج الملوك بوري، ومنح شمس الملوك جميع صلاحيات الوزير السابقة الى شحنة دمشق يوسف بن فَيْرُوز (١). وقد لعب ابن فيروز دوراً عظيماً في قمع الباطنية داخل دمشق أيام حكم تاج الملوك بوري، كما هو مذكور سابقا في الفصل الثالث. فهو الذي أقنع سيده تاج الملوك بأهمية سحق الباطنية كليا في بلاد الشام كما هو مذكور في الفصل الثالث، ولم يكن شمس الملوك اسماعيل يتخذ أي إجراء أو قرار دون إستشارة شِحْنة دمشق أولا، ويبدو أن هذه أول وآخر مرة منذ عهد الملك دقاق ملك دمشق (٤٨٨هـ - ١٠٩٥م) - أن شحنة دمشق وليس وزير حاكم دمشق يصبح الرجل الثاني بعد أمير دمشق. ومن ناحية أخرى واجه شمس الملوك مشاكل داخلية منذ الأيام الأولى لتوليه الحكم. وابتدأت هذه المشاكل مع أخيه شمس الدولة محمد والي بعلبك، وكانت بعلبك المركز الرئيس للثورة والتمرد ضد إمارة دمشق. فقد ثار محي الدين أرتاش بن السلطان تتش ضد طغتكين في بعلبك (٤٩٧هـ الموافق ٥ اكتوبر ١١٠٣م) كما هو مشار إليه سابقا في الفصل الثاني. وكانت بعلبك أيضا مركزاً لكمشتكين - الخادم التاجي والي بعلبك - الذي ثار ضد طغتكين في عام ٥٠٣هـ/ ٣١ يوليو ١١٠٩م بمساعدة صليبيي بيت المقدس كما هو مذكور أعلاه في الفصل الثاني. وأبدى شمس الدولة عناده منذ الأيام الأولى لاعتلاء أخيه شمس الملوك العرش، حيث إنه لم يكتف برفض سلطة اخيه شمس الملوك فقط بل أخذ خطوات

أخرى لتوطيد سلطته المستقلة الخاصة به في بَعلبًك ومقاطعاتها، وعلاوة على ذلك نجح شمس الدولة في أن يستحدث الحاميات العسكرية في كل من اللبؤة - الواقعة على بعد خمسة عشر أميال شرق بعلبك وكذلك الرأس - الواقعة على بعد تسعة أميال شمال شرق بعلبك - على تسليم حصونهم له. وطلب شمس الملوك من أخيه شمس الدولة الطاعة له وخلع العصيان، ولكن عندما لم يستجب شمس الدولة لطلب أخيه وشمس الملوك، تظاهر شمس الملوك بعدم المبالاة لخيانة أخيه لفترة وجيزة من الزمن. وبناء على ذلك، تقدم شمس الملوك - في شهر ذي الحجة ٥٢٦هـ/ ١٥ اكتوبر ١١٣٢م - بجيشه المجهز تجهيزا جيدا إلى الشمال ليوهم أخاه شمس الدولة أنه سيحارب الصليبيين، ثم غير اتجاهه إلى الغرب ناحية حصن اللبؤة، حيث هاجم الحصن بعنف رهيب لدرجة أن أهل الحصن ترجوه أن يبقي على حياتهم، فقبل ذلك منهم وتسلم منهم ذلك الحصن، ثم تقدم ليفرض حصاراً على قلعة الرأس، وأبقى شمس الملوك على حياة أهل الرأس كما فعل من قبل مع أهل اللبؤة. وبعد استيلائه على كلا الحصنين تقدم شمس الملوك ليخضع أخاه شمس الدولة محمد في بعلبك نفسها. وقد حصن شمس الدولة مدينته ليقاوم أخاه وحصل على كثير من المساعدة من قبل فلاحي سهل البقاع والجبال المحيطة به. ويبدو أن أهل بعلبك وسهل البقاع، وهم شيعة إثنا عشرية، قد شجعوا شمس الدولة ليثور ضد أخيه، وبعث شمس الدولة بجنوده ليمنع تقدم جيش أخيه من فرض حصار على بعلبك، وسقط العديد من جنود شمس الدولة ما بين قتيل وجريح على يد جيش شمس الملوك وفر الباقي هاربا الى بعلبك. وبالرغم أنه ليس لدينا معلومات دقيقة عن عدد كل من الجيشين، إلا أنه يمكن تقدير قوة جيش شمس الدولة بحوالي سبعمائة رجل وقوة جيش شمس الملوك بحوالي ثلاثة آلاف رجل. وبعد ثلاثة أيام من هذه المعركة حاصر شمس الملوك بعلبك وقذف المدينة بالمنجنيقات، ولما اكتشف شمس الدولة إصرار أخيه على الاستيلاء على المدينة بالقوة أرسل لأخيه الرسل يلتمس منه العفو على كل ما بدر منه من أعمال ضده، وطلب منه الاستمرار في حكم المدينة تحت سلطته، فوافق شمس الملوك على عرض

أخيه، وفي بداية محرم ٥٢٧هـ الموافق ١٢ نوفمبر ١١٣٢م عاد شمس الملوك الى دمشق في غاية السعادة بانتصاراته السهلة تلك (٢).

وتلى نجاحه في تأسيس قوته في بعلبك بانتصار آخر أحرزه استرد به بانياس من صليبيي بيت المقدس. وأتاحت الظروف في الإمارات الصليبية الفرصة لشمس الملوك لتحقيق ذلك الانتصار دون صعوبة تذكر ودون خسائر كبيرة. وتعتبر وفاة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس قبل عامين سابقين وبالتحديد في ٢٥ رمضان ٥٢٥هـ/ الموافق ٢٣ اغسطس ١١٣١م خسارة عظيمة للصليبيين حيث فقد الصليبيون بوفاة بلدوين واحدا من أهم القادة الأكفياء في مستهل الفترة الباكرة للحروب الصليبية. فلقد ناضل بلدوين الثاني - خلال الإثنتي عشرة سنة الذي كان فيها ملكا على بيت المقدس - لتوحيد جميع الصليبيين في بلاد الشام، وأضعف موته الإمارات الصليبية في بلاد الشام (٣) ورفض الصليبيون سلطة الملك فولك حاكم بيت المقدس الجديد (كونت أنجو سابقا) وصهر بلدوين، ثم إن أليس - صاحبة أنطاكية التي كانت قبلت سلطة والدها بلدوين الثاني على غير رغبة - رفضت الآن الخضوع لصهرها الملك فولك، وادعت مرة ثانية أنها وصية على عرش ابنتها كونستانس. وقد شجع كل من كونت الرها جوسلين الثاني وبونز بن برترام - حاكم كونتية طرابلس - (أليس) في معارضتها للملك فولك، وبالرغم من أن الملك فولك نجح في إخضاع كل هذه الثورات بالقوة، إلا أنه أنهك القوات الصليبية وأضعفها في ذلك الحين لمواجهة القادة المسلمين في بلاد الشام (٤)، وعلاوة على ذلك، فسوف يواجه الملك فولك مشاكل أكثر خطورة في مملكته فيما بعد، وكانت الحرب الأهلية على وشك الحدوث بين الملك فولك من جهة ومنافسه هيو حاكم يافا وحليفه رومان حاكم لي بوي Le Puy. ومن جهة ثانية أعلن هيو صاحب بيوست Le Puiset حاكم يافا استقلاله عن الملك فولك واستولى على بعض أقاليم مملكة بيت المقدس وهدد وحده المملكة. وأثناء انشغال الملك فولك بالاضطراب الذي حدث داخل مملكته، أضاف واليه في بيروت مشكلة جديدة له، حيث سلب والي بيروت الصليبي قافلة كبيرة لدمشق بأكملها عندما كانت محملة

بأثمن وأنفس البضائع. ويعتبر هذا الحدث انتهاكا للمعاهدة المعقودة بين صليبيي بيت المقدس ودمشق بشأن حرية نقل التجارة بين كلا البلدين، فكتب شمس الملوك مرات عديدة إلى حاكم بيروت يطلب منه إعادة البضائع التي أخذت من القافلة، ولكن لم يتلق رداً من قبل والي بيروت. وكما هو مذكور سابقا، فقد أعتاد شمس الملوك على أن يحتفظ بسرية خططه المستقبلية ليفاجىء بها أعداءه وربما لإنقاذ ما يستطيع إنقاذه من الخسائر الكبيرة التي قد يجلبها على نفسه عندما تُكتشف خططه، واعتاد أن لا يخبر حتى أوثق قادته وحاشيته الخاصة، وذلك بهدف تحقيق أعلى درجة من الأمان لخططه المستقبلية.

وفي تلك الأثناء أعد شمس الملوك جيشا ليستعيد مدينة بانياس متظاهرا بهذا العمل الثأر مما فعله الصليبيون بالقافلة الدمشقية. ويبدو أن هذه الخطة قد أعد لها مقدما بشكل جيد من قبل شمس الملوك ولكن استلزم القيام بها تبريرا معقولاً،أُعطى له عندما نهبت القافلة، وكما هو مذكور في الفصل الثالث فان مدينة بانياس قد تخلى عنها طغتكين - جد شمس الملوك - إلى الباطنية في ذي القعدة ٥٢٠هـ الموافق ٢١ نوفمبر ١١٢٦م، وقد سلمها الباطنية إلى صليبيي بيت المقدس بعد المذبحة التي حلت بهم في دمشق في ١٧ رمضان ٥٢٣هـ الموافق ٤ سبتمبر ١١٢٩م. وفي أواخر محرم ٥٢٧/ أوائل ديسمبر ١١٣٢م، فُوجىء العديد من حراس بانياس الصليبيين بوصول الجيش الدمشقي. وبعد أن أغلق الصليبيون بوابات المدينة في الحال، ترجل شمس الملوك وترجل جيشه بالكامل أيضا وركزوا في قصفهم على سور المدينة نفسه، ووفقا لما يذكره ابن القلانسي لم يجرؤ أحد من الصليبيين على أن يرد على هجوم الدماشقة العنيف بالسهام والنشاب والمنجنيقات.

ونجحت القوات العسكرية الدمشقية في تدمير جزء من السور واستطاعت الدخول من خلاله، وتمكن الدمشقيون من فتح بوابة المدينة وقتلوا جميع الصليبيين الذين لم يفروا إلى القلعة أو إلى أبراج المدينة. وطبقا لرواية وليم الصوري فإن الملك فولك كان في هذا الوقت في طريقه لمحاربة منافسه هيو - صاحب يافا - ولم يسرع لإنقاذ مدينة بانياس وربما اعتبر أن إخضاعه لمنافسه هيو أكثر أهمية من إنقاذه لمدينة

واحدة في مملكته من المسلمين الدمشقيين. وأخفى الصليبيون المدافعون عن المدينة أنفسهم في القلعة وأبراج المدينة، وانتظروا نجدة ملكهم لكن الملك فولك خيب آمالهم. وبناء عليه طلبوا الأمان لأنفسهم وسلموا المدينة لشمس الملوك إسماعيل، فوافق شمس الملوك على طلبهم وأخذ الصليبيين كأسرى. ثم أقام شمس الملوك حراسا لحماية المدينة، ثم رجع مرة أخرى الى مدينة دمشق، وسر هذا الانتصار السهل أهالي دمشق إلا أنه كان بمثابة صاعقة للصليبيين الذين اعتمدوا بشكل كبير على تحصينات المدينة والحاميات العسكرية العديدة فيها، ويبدو أن الصليبيين بدأوا بعد هذه الخسارة يأخذون إجراءات أكثر حيطة لمواجهة القوة الناهضة لدمشق تحت قيادة شمس الملوك (٥). وهكذا انتهز شمس الملوك الفرصة لاستعادة مدينة بانياس، بينما كان الملك فولك مشغولا لحل مشاكله الداخلية المتفاقمة آنذاك مع هيو صاحب يافا، ويبدو أن شمس الملوك كان عالما بتفاصيل تحركات الصليبيين خاصة أولئك الذين في مملكة بيت المقدس والذين كانوا أقرب جيرانه.

وقضى المتنافسون على السلطنة السلجوقية بعد ـ وفاة السلطان محمود بن السلطان محمد في شوال ٥٢٥هـ/ ٢٨ اغسطس ١١٣١م ـ عامين في محاربة كل منهما الآخر حتى فاز واحد منهم وهو مسعود بن السلطان محمد، وذلك في صفر ٥٢٧هـ/ ١١ ديسمبر ١١٣٢م (٦) ولن نناقش التفاصيل المتعلقة بالنزاع بين تلك الأطراف لأن ذلك خارج نطاق هذه الدراسة ، والذي يهمنا هنا هو تأثير هذا الصراع الداخلي في السلطنة السلجوقية على إمارة دمشق خلال حكم شمس الملوك.وخلال مدة النزاع الداخلي في البيت السلجوقي تورط زنكي ـ حاكم الموصل وحلب ـ في ذلك الصراع. واعتاد شمس الملوك أن ينتهز الفرص كما هو مذكور أعلاه عندما انتهز فرصة النزاع بين الصليبيين فاستولى على مدينة بانياس، والآن للمرة الثانية سيستغل انشغال زنكي لاسترداد حماة من نائب زنكي سنقر غلام صلاح الدين الياغسياني أحد أشهر القادة العسكريين عند زنكي، ففي شهر شعبان ٥٢٧هـ/ ١٢ يونيو ١١٣٣م قرر الخليفة العباسي المسترشد بالله ـ أثناء انشغاله بالنزاع بين أطراف السلاجقة المتنافسة على السلطة السلجوقية ـ استرداد الموصل من زنكي، ففي

منتصف شهر شعبان ٥٢٧هـ الموافق ١٧ يونيو ١١٣٣م تقدم المسترشد ومعه ثلاثون ألف رجل ليفرض حصاراً على الموصل، وقد حصن زنكي الموصل وسار من المدينة المحاصرة مع جزء من جيشه لقطع خط إمدادات قوات الخليفة العباسي المحاصرة للموصل لإرغامه بالقوة على رفع الحصار، فنجح وكيل زنكي في الموصل نصير الدين جغر في الدفاع عن المدينة بمساعدة زنكي، واستمر حصار المدينة ثمانين يوما منذ منتصف شعبان الموافق ٢٧ يونيو ١١٣٣م حتى الخامس من ذي القعدة الموافق ٦ سبتمبر ١١٣٣م عندما انسحب المسترشد إلى بغداد دون تحقيق هدفه وهو الاستيلاء على الموصل. وفي أثناء إنشغال زنكي بالدفاع عن الموصل، فكر شمس الملوك ـ الذي اعتاد عدم إفشاء خططه حتى إلى أوثق قواد ه وحاشيته ـ في استعادة مدينة حماة، ولكن أخبار استعدادات شمس الملوك تلك وصلت لنائب زنكي في حماة وربما كانت هذه الأخبار من جواسيس زنكي، فطبقاً لرواية ابن الأثير فإنه كان لزنكي جواسيس في معظم البلاد الهامة في العالم الاسلامي، ونتيجة لذلك استعد حاكم حماة للدفاع عن مدينته ضد شمس الملوك، ووصلت في ذلك الحين أخبار استعداد حاكم مدينة حماة لمواجهة تهديد شمس الملوك، ولكن هذا لم يمنعه من محاولة استعادة هذه المدينة الهامة وضمها الى إمارته من جديد (٧).

عقد شمس الملوك العزم على أن يفاجيء أهل حماة في أواخر رمضان ٥٢٧هـ الموافق نهاية يوليو ١١٣٣م، وعلى الرغم من نصيحة قواده بعدم تنفيذ هذه الخطة خلال شهر الصيام (رمضان)، إلا أنه أصر على مهاجمة المدينة في يوم عيد الفطر عندما يكون أهالي حماة وكافة المسلمين مشغولين في الاحتفال بعيد الفطر، وفعلا شن شمس الملوك هجوماً عنيفاً في يوم العيد على المدينة وهزم جميع قوات حماة دون أن يواجه بمقاومة حقيقية منهم، ولاذت قوات حماة بالفرار الى القلعة بينما طلب غالبية أهالي حماة الأمان لإنفسهم، فمنحهم شمس الملوك الأمان وأنعم عليهم وخلع عليهم وأعاد جميع الغنائم التي غنمها منهم، ولما وجدت الحامية العسكرية في القلعة أن جيشهم انهزم، ذهب غالبيتهم لطلب السلامة كما فعل غيرهم من الأهالي، ولما رأى والي حماة استسلام شعبه، اضطر شخصيا إلى طلب السلامة

وتسليم المدينة إلى شمس الملوك وخاصة أنه فقد الأمل في الحصول على أي مساعدة من قبل سيده زنكي الذي كان مشغولا آنذاك بحماية مدينته الرئيسة الاستراتيجية (الموصل) من الخليفة العباسي، وعهد شمس الملوك بولاية مدينة حماة إلى قائد يعتمد عليه، ثم زحف تجاه مدينة شيزر فسلب أقاليمها وحاصر المدينة، ثم رفع شمس الملوك الحصار عن المدينة عندما وافق أمير شيزر سلطان بن منقذ على الخضوع لسلطة إمارة دمشق ودفع مبلغاً معقولاً لشمس الملوك (٨). وكانت هذه المرة الأولى منذ عهد السلطان تاج الدولة تتش بن السلطان ألب أرسلان تصبح فيها شيزر تحت سلطة دمشق.

بدأ شمس الملوك عامه الجديد في ٥٢٨هـ/ ٧ نوفمبر ١١٣٣م بخطة جديدة تهدف الى اضافة أرض جديدة الى إمارته ولكن ليس كما فعل عند الاستيلاء على مدينتي بانياس وحماة اللتين كانتا أصلاً تحت سيطرة دمشق، ووفقا لما أورده عز الدين أبو عبدالله محمد بن شداد مؤلف كتاب **الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، إن حصن شقيف تيرون الواقع على بعد تسعة أميال شرق صيدا الحصن تحصينا جيدا كان تحت سيطرة الخليفة الفاطمي ويضيف الكاتب قائلا إن الضحاك بن جندل التميمي (رئيس وادي التيم) استولى على الحصن من الحافظ الفاطمي حاكم مصر وذلك قبل استيلاء شمس الملوك عليه بفترة وجيزة في ٢٤ محرم ٥٢٨هـ الموافق ٢٤ نوفمبر ١١٣٣م من الضحاك بن جندل، وقد لعب ابن جندل هذا دوراً فعالاً في إخضاع قوات الباطنية في وادي التيم في ٥٢٢هـ الموافق ٦ يناير ١١٢٨م كما هو مذكور سلفا في الفصل الثالث، وطبقا لرواية ابن الأثير فقد اعتاد ابن جندل أن يدبر المؤمرات ضد الصليبيين والمسلمين على حد سواء لأن كل منهما كان يتطلع الى الفوز بمساعدته ضد الطرف الآخر (٩).

وتؤكد بعض المؤلفات استيلاء ابن جندل على حصن شقيف تيرون من الفاطميين في ٦ محرم ٥٢٨هـ/٦ نوفمبر ١١٣٣م ولكن يبدو أن هذا التاريخ ليس صحيحا لأن الفاطميين في ذلك الوقت لم يكن لديهم أي سلطة في بلاد الشام فيما عدا عسقلان التي تقع على بعد أكثر من مائة ميل من هذا الحصن، ومن المرجح أن

ابن جندل استولى على هذا الحصن خلال الأعوام الأولى للحملات الصليبية، وربما يرجع السبب الذي دفع شمس الملوك للاستيلاء على هذا الحصن هو كون ابن جندل أصبح ذلك الحين حليفا للصليبيين. وبناء عليه، يعتقد ابن الأثير أن السبب وراء سلب الصليبيين لحوران في ذي القعدة من نفس العام، كان انتقاما لاستيلاء شمس الملوك على هذا الحصن الذي يقع في المنطقة المتاخمة لساحل صيدا وبيروت (١٠).

وفشلت محاولة اغتيال شمس الملوك تلك السنة ففي أواخر ربيع الآخر/ ٦ فبراير ١١٣٤م حاول فرد من عبيد طغتكين ـ جد شمس الملوك يدعى ـ إلبا اغتيال شمس الملوك في أثناء خروجه لرحلة صيد في منطقة مجاورة لمدينة دمشق تدعى صيدنايا وعسال على بعد ١٥ ميلاً شمال دمشق، واعترف إلبا بأن أحداً لم يحثه على قتل سيده وادعى إلبا أنه فعل ذلك ليريح الفقراء أمثال الحرفيين والفلاحين من اضطهاد وظلم شمس الملوك، ومن ناحية أخرى اتهم إلبا سيده شمس الملوك بأنه قصر اهتماماته فقط على الخدمات العسكرية وأهمل الخدمات الاجتماعية ورعاية الفلاحين والحرفيين، وعلى أية حال فقد صرح إلبا أن أعضاء آخرين من الغلمان قد تآمروا معه على اغتيال قائدهم، وطبقا لرواية ابن القلانسي كان هؤلاء الغلمان أبرياء، ولكن شمس الملوك صدق هذا الاتهام دون دليل أو برهان (١١) وادعى إلبا إنما حاول اغتيال سيده لكسب رضاء الله فقط وليس لأي هدف آخر، وهنا نتساءل إذا كان هدف إلبا هو رضاء الله عزوجل فلماذا اتهم أناسا آخرين كالغلمان وسونج شقيق شمس الملوك نفسه.

ومن المحتمل أن (إلبا) كان مثل بقية الباطنية الذين اعتادوا على اتهام أناس أبرياء لخلق مشاكل أكثر لأعدائهم، وهذا بالفعل الذي حدث (لشمس الملوك) فيما بعد، فقد قتل شمس الملوك أخاه سونج والآخرين الذين ذكرهم (إلبا) في اتهامه فزاد (شمس الملوك) عن الحد في أعمال الغدر والشر ولم يوقفه شيء عن هذه التصرفات المستهجنة كما أورد ذلك ابن القلانسي (١٢). لم يتهم أي مؤرخ معاصر الباطنية بمحاولة اغتيال شمس الملوك ولكن يمكن استنتاج ذلك من سلوك البا عندما

وجه إتهامات إلى أناس أبرياء. ويبدو أنه لاأحد غير الباطنية الذين اعتادوا على النفاق واتخاذ أي إجراء يرغبوا فيه بهدف تحقيق مآربهم، فارتكبوا هذه الجريمة. وعموما قام شمس الملوك بقتل أخيه بحبسه في السجن حتى قضى نحبه جوعا (١٣).

كما هو مذكور أعلاه استرد شمس الملوك بانياس من الصليبيين في أواخر صفر ٥٢٧هـ الموافق ١١ ديسمبر ١١٣٢م، وأخذ حصن شقيف من الضحاك ابن جندل (حليف الصليبين) وأثار هذان الحدثان خوف الصليبيين من شمس الملوك الذي أظهر قوته بتحديه لهم في جنوب بلاد الشام، وبالرغم من أن والده تاج الملوك بوري نجح في إحباط محاولة الصليبيين غزو مدينة دمشق في ٥٢٣هـ/١١٢٩م، إلا أنه لم تكن لديه القدرة على منعهم من الاستيلاء على بانياس ذلك العام. فصمم الصليبيون على نقض المعاهدة مع الدمشقيين للانتقام لفقدهم بانياس وحصن شقيف تيرون وكذلك لحماية طرق عبور التجارة في مناطقهم، ففي ذي القعدة ٥٢٨هـ/ ٢٧ اغسطس ١١٣٤م، حشد الصليبيون قوتهم وتقدموا لنهب وتدمير مقاطعات دمشقية في منطقة حوران التي تقع على بعد أربعين ميلاً من الناحية الجنوبية الشرقية للمدينة نفسها، ولما وصلت أخبار زحف الصليبيين نحو منطقة حوران لشمس الملوك أرسل في طلب النجدة من التركمان في جميع أنحاء بلاد الشام. ولم يزودنا ابن القلانسي - المؤرخ المسلم الوحيد الذي أشار الى ذلك الحدث - بأي تقدير عن عدد كلا الجيشين ولكن يمكن تقدير عدد جيش الدمشقيين ما بين خمسة آلاف وستة آلاف رجل بما فيهم التركمان المتطوعون، ويمكن تقدير عدد قوات بيت المقدس بنفس عدد قوات دمشق أي حوالي خمسة آلاف مقاتل. وتقدم شمس الملوك، وعسكر في الجهة المقابلة للصليبيين في حوران فاستمرت المناوشات بين كلا الجيشين يرمي كل منهما الآخر بوابل من السهام ولم يهاجم الصليبيون قوات دمشق لأنهم لم يتوقعوا مقابلة هذا الجيش العظيم في الميدان ولم يتوقعوا أنهم سيواجهوا مقاومة تذكر، فلم يكن هدفهم الأساسي من الحملة سوى سلب ونهب حوران وليس مواجهة حملة عسكرية كبيرة فانتهز شمس الملوك تلك الفرصة التي سنحت له، فبينما كان الصليبيون منهمكين في تلك المناوشات في حوران، توجه شمس الملوك بعدد كبير

من جيشه، لشن غارات على أراضي الصليبيين في عكا والناصرة وطبرية، ونجح في نهب أعداد كبيرة من الماشية والأحمال والنساء والأطفال والرجال، ووفقا لرواية ابن القلانسي «خرب الريف بالنار والسيف». ولما وصلت أخبار نهب شمس الملوك الأراضي الصليبية تلك لقواتهم في حوران، انسحبوا مباشرة الى مناطقهم ليحموا بلادهم، فقد ظن الصليبيون أن شمس الملوك لا يقدر على نهب مقاطعاتهم. وكانت تلك المرة الأولى منذ حملة مودود عام ٥٠٧هـ / الموافق ١٨ يونيو ١١١٣م أن يهاجم المسلمون الصليبيين في عقر دارهم، وسلك شمس الملوك بعد نجاح عمليته العسكرية تلك طريقاً آخر يدعى طريق الشعراء، وانضم مرة ثانية إلى معسكره في حوران لأنه توقع هجوما انتقاميا من الجيش الصليبي عند انسحابهم، فإرتد الصليبيون على أعقابهم مدحورين إلى وطنهم وكلهم أسى وحزن على ماحدث لأراضيهم وذويهم من سلب ونهب. وبعد هذه النكسة للصليبيين طلب صليبيو بيت المقدس من شمس الملوك أن يجدد اتفاقية السلام بين كلا الطرفين، وإزدهرت تجارة دمشق نتيجة لتلك المعاهدة. وبهذا تمكن شمس الملوك بالحيلة من إحباط محاولة الصليبيين تلك. وطبقا لرواية وليم الصوري أطلق شمس الملوك سراح جميع الصليبيين - الذين تم أسرهم في العام السابق في بانياس - في ١٢ نوفمبر ١١٣٢م طبقا لمعاهدة السلام تلك (١٤).

وردت الأخبار المتتابعة من البلاد الخاضعة لزنكي في هذا العام حول استعدادات زنكي الحثيثة لفرض الحصار والسيطرة على مدينة دمشق (١٥).

فر يوسف بن فيروز - شحنة دمشق - في بداية شهر محرم لعام ٥٢٩هـ/ ٢٢ اكتوبر ١١٣٤م - من شمس الملوك، ويعزى ابن القلانسي فرار يوسف الى حصوله على معلومات موثقة من أصدقائه المقربين تشير إلى تآمر شمس الملوك عليه، ولكن ابن القلانسي لم يذكر السبب الرئيس وراء خوف ابن فيروز من شمس الملوك. ويبدو أنه بعد فشل محاولة اغتيال شمس الملوك، أصبح شمس الملوك مرتاباً من كل فرد حتى شحنته الذي كان محل الثقة عنده، وهرب ابن فيروز إلى إقطاعه في تدمر، وكما هو مذكور في الفصل الثاني فإنها أصبحت في عام ٥٢٠هـ/ ٢٧ يناير

١١٢٦م في عهد طغتكين إقطاعية لحفيده شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري، فتوسل شهاب الدين إلى والده تاج الملوك بوري أن يخلصه من عبء هذا الإقطاع، وأجاب تاج الملوك طلب ابنه. وفي أثناء ذلك انتهز ابن فيروز الفرصة وطلب منحه تدمر كإقطاع فأقنع قواد تاج الملوك أن يكون نائبا له في مدينة تدمر وعزز من تحصين المدينة، وترك بعض أصدقائه محل الثقة ليساعدوا ابنه الشاب وليزودوه بأي شيء يحتاج إليه في حالة تعرض المدينة لحصار ما، واتخذ ابن فيروز تدمر ملجأ يلجأ إليه عند تقلبات الزمان، وهو ما حدث بالفعل عندما اكتشف ابن فيروز أن شمس الملوك اسماعيل أخذ يتآمر ضده، وأخبره بذلك أصدقاؤه المقربون في حاشية شمس الملوك مع أنه لم يكن لديه أي دليل، وذكر ابن القلانسي أن فرار الحاجب ابن فيروز - شحنة دمشق - الى تدمر حدث بمجرد معرفته بمغادرة سيده شمس الملوك لمدينة دمشق، ويورد ابن القلانسي أن شمس الملوك قرر سرا مصادرة أملاك القادة والحجاب كافة في إمارته بما فيهم ابن فيروز، وإنه لمن الصعوبة بمكان أن نفهم لماذا لم يعط ابن القلانسي بعض الأمثلة على هذه المصادرات لكي يدعم بها اتهامه، ويصرح ابن القلانسي بأن شمس الملوك لم يحاسب أو يعاقب أقارب ابن فيروز عندما رفض العودة إلى دمشق وفقا لأوامر سيده، وبناء عليه، لو أن شمس الملوك كان على وشك أن يعاقب أي فرد في إمارته لكان من الأجدى أن يبدأ بعقاب أقارب ابن فيروز. وبالرغم من أن ابن فيروز رفض أوامر الملك في العودة إلى مدينة دمشق، فإنه رفض أن يعلن استقلاله وادعى أنه مقيم في ذلك المكان (تدمر) كخادم مطيع لشمس الملوك ولحماية تدمر من الأعداء (١٦). ويتفق المؤرخون المسلمون في أنه في عام ٥٢٩هـ/ ٢٢/١٠/١١٣٤م حدث تغيير في طبيعة أمير دمشق فبعد أن كان رجلاً حكيماً وشجاعاً تحول الى رجل قاس أحمق وظالم. ويصف ابن القلانسي شمس الملوك بأنه أصبح سيىء السمعة بين أعز أصدقائه وكذلك بين عامة الشعب لقسوته ووحشيته ولسلوكه الغامض الذي وصل الى حد الجنون، فأخذ شمس الملوك في مصادرة أموال شعبه بما فيهم موظفوه وحجابه محل الثقة عنده، واقترف جميع أنواع أعمال الشر والتي يدعي ابن القلانسي أنها كانت معروفة عنه بين شعبه، كما ادعى ابن القلانسي رغبة شمس الملوك واعتزامه سرا على مصادرة أموال وزرائه

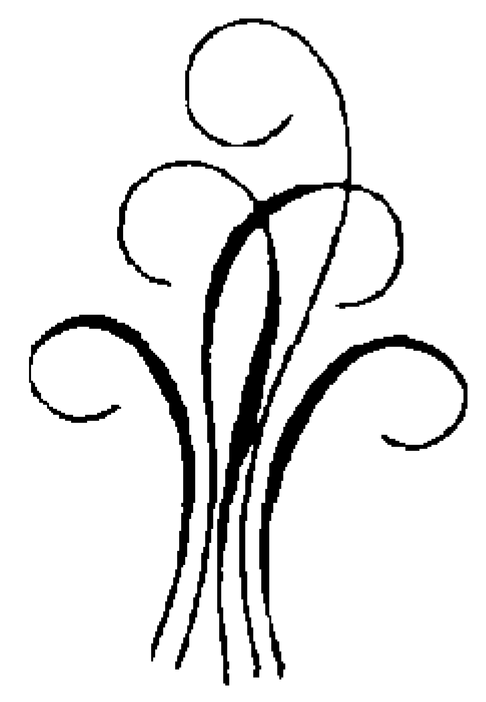
وموظفيه المحليين والمرافقين الشخصيين بما فيهم الأمراء والحجاب. وقرر شمس الملوك بدء تلك المصادرات مع حاجبه ابن فيروز، ولو كان ابن القلانسي على صواب في ادعائه، فإنه من الصعب أن نفهم كيف اكتشف القواد ورجال الدولة في دمشق بما فيهم ابن فيروز هذا السر الذي أصبح حديث الناس، ويبدو أن شمس الملوك بعد فرار شحنته إلى تدمر فقد سلطته في معظم أرجاء إمارته ولم يعد له أي قوة يسيطر بها على شحنته ابن فيروز والساخطين على حكمه، وفي تلك الظروف التي مر بها شمس الملوك، بلغه تصميم زنكي على الاستيلاء على دمشق، فقرر شمس الملوك أن يتنازل عن المدينة لزنكي ويصبح تابعا له، ،وكما هو مذكور سابقا اعتاد شمس الملوك أن لا يفشي خططه المستقبلية حتى لموظفيه وأمرائه محل الثقة، وربما دفع هذا السلوك موظفيه للريبة منه، وأصبح اسلوب شمس الملوك في التعامل مع أتباعه يتصف بالاستبداد على النقيض من أساليب أسلافه، ومن المحتمل أن فرار ابن فيروز كان مقدمة لثورة مدبرة تهدف إلى الإطاحة بحكم شمس الملوك فيما بعد، ويعتقد ابن القلانسي أن مرض شمس الملوك العقلي هو الذي دفعه إلى كتابة العديد من الخطابات بخط يده لزنكي يعرض عليه فيها التنازل عن مدينة دمشق بشرط أن يسمح له زنكي بالانتقام من موظفيه الساخطين عليه، ويوحي تفسير ابن القلانسي أن سلوك شمس الملوك في ذلك الوقت أخذ يتسم بجنون العظمة والارتياب الشديد بالأخرين (١٧).

ويبدو أن الوضع في دمشق بعد فرار ابن فيروز كان مضطربا، فلم يقدر شمس الملوك على إستعادة الاستقرار فعين شمس الملوك واحدا من الأكراد من حمص يدعى بدران وعُرف ببدران الكافر لكي يعالج هذا الموقف، ولكن بدران خيب رجاء شمس الملوك عن طريق مصادرة أموال الناس بما فيهم موظفون جديرون بالاحترام. (١٨) ويبدو أنه عندما اكتشف شمس الملوك أن بدران لم يستطع حل مشاكله، قرر تسليم مدينة دمشق لزنكي العدو التقليدي لحاكم دمشق، ولا نستطيع الحكم اذا كان فعل شمس الملوك ذلك بهدف الانتقام من موظفيه المتمردين أو لإنقاذ دمشق من السقوط في أيدي الصليبيين، وحذر شمس الملوك زنكي بأنه اذا لم يسرع لتولي

دمشق فإنه سوف يسلم المدينة الى الصليبيين وسوف تقع مسؤولية حفظ دماء سكانها في عنق زنكي (١٩). ويبدو أن ما فعله شمس الملوك ليس أكثر ولا أقل مما كان قد فعله جده طغتكين في عام ٤٩٨هـ/ ٢٣ سبتمبر ١١٠٤م عندما أرسل إلى سقمان بن أُرتق ليتولى سلطة دمشق عندما كان طغتكين طريح الفراش، وقد قرر طغتكين تسليم مدينة دمشق إلى ذلك القائد الذي ربما يحميها من تهديد الصليبيين، ولم يدن ابن القلانسي طلب طغتكين ذاك ولكنه دان بعنف طلب شمس الملوك. ولم يتناول أي مؤرخ مسلم في تلك الفترة موضوع شمس الملوك بعدالة ولكن الغالبية كررت وصف ابن القلانسي لشمس الملوك، ويبدو أن شمس الملوك لم يكن لديه أدنى شك في أن سقوط دمشق في يدي زنكي كان مجرد مسألة وقت، وبناء عليه، رغب شمس الملوك أن يجنب كلا الجانبين الدمشقيين وزنكي الخسائر المحتومة عند حدوث صدام مسلح بين الجانبين.

وعندما انتشرت أخبار عرض تسليم المدينة لزنكي، أقنع المتآمرون من الغلمان خاتون صفوت الملك والدة شمس الملوك بقتل ابنها للنجاة من العقاب الذي سوف يواجههم من قبل شهاب الدين أميرا دمشق، ويبدو أن المتمردين كانت لديهم القدرة على قتل شمس الملوك دون طلب مساعدة من والدته، ولكنهم أرادوا أن يظهروا لأهل دمشق أن مقتل شمس الملوك كان نتيجة لرغبة أهل دمشق كافة بما فيهم والدة أمير دمشق.

وهكذا قتل شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري في ١٤ ربيع الآخر عام ٥٢٩هـ الموافق الأول من فبراير ١١٣٥م على يد غلمانه، وقد سبق مقتل شمس الملوك وفاة وزيره بدران الكافر بيوم واحد بمرض خطير ومن المحتمل أن أحدا دس السم لبدران هذا (٢٠).



الهوامش

(١) ابن القلانسي، من صفحة، ٢٣٤ الي صفحة ٢٣٥.
(٢) ابن الأثير، **الكامل**، صفحة ٣٣٨؛ ابن القلانسي، صفحات من ٢٣٥ الي ٢٣٦.
(٣) رانسيمان، صفحة ١٨٥ ـ صفحة ١٨٦.
(٤) نفس المصدر، صفحة ١٨٧ ـ صفحة ١٩٠.
(٥) ابن الأثير، صفحة ٣٣٩؛ ابن القلانسي، صفحات ٢٣٦ ـ ٢٣٧؛ وليم الصوري، صفحات ٧٤ ـ ٧٧؛ الذهبي، صفحة ٧٠.
(٦) ابن الأثير، صفحة ٣٣٣ ـ ٣٣٥، ٣٣٦ ـ ٢٣٧، ٣٣٩ ـ ٣٤٠.
(٧) ابن العديم، صفحة ٢٣٥، ابن العمراني **«الأنباء في تاريخ الخلفاء»** تحقيق قاسم السمرائي، الطبعة الثانية (الرياض ـ ١٩٨٢م)، صفحات ٢١٧ ـ ٢١٨؛ الذهبي، صفحة ٧٠. قدر الذهبي عدد جيش الخليفة العباسي، اثنا عشر ألف رجل.
(٨) ابن العديم، صفحة ٢٥٣؛ ابن القلانسي، ٢٣٨ ـ ٢٣٩.
(٩) ابن شداد، صفحة ١٥٤، كنت. ام. سيتون **(تاريخ الصليبيين)**، المائة عام الأولى، تحقيق مارشال و بلدوين (وسكونسن ١٩٦٩م)، صفحة ٥٧٢؛ ابن الأثير، **الكامل**، صفحة ٣٤٢.
(١٠) ابن الأثير، **الكامل**، صفحة ٣٤٢.
(١١) ابن القلانسي، صفحة ٢٤١، اتش. ايه. آر. جيب، **تاريخ دمشق أثناء الحملة الصليبية** «لندن ١٩٣٢م» صفحة ٢٢٥. ويبدو أن جب قد أخطأ في ترجمة معني «امتهن العسكرية والرعية» وترجم ذلك بقوله «أهان الجنود وعامة الناس».
(١٢) ابن القلانسي، صفحة ٢٤٢.
(١٣) نفس المصدر، صفحة ٢٤٢.
(١٤) ابن الأثير، صفحة ٣٤٢؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٤٢ ـ ٢٤٣؛ وليم الصوري، صفحة ٧٦؛ جيب، صفحة ٢٢٧. ذكر جب أن الشعراء تقع شمال بحيرة الحولة والقنيطرة.
(١٥) ابن القلانسي، صفحة ٢٤٣.
(١٦) نفس المصدر، صفحة ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
(١٧) ابن القلانسي، صفحة ٢٤٥؛ ابن العديم، صفحة ٢٥٥ ـ ٢٥٧.
(١٨) ابن العديم، صفحة ٢٥٥؛ ابن القلانسي ٢٤٥.
(١٩) ابن القلانسي، صفحة ٢٤٥ ـ ٢٤٦؛ ابن العديم، صفحة ٢٥٥ الى صفحة ٢٥٦.
(٢٠) ابن العديم، صفحة ٢٥٦ ـ ٢٥٧؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٤٦ ـ ٢٤٧؛ الذهبي، صفحة ٧٧.

الفصل الخامس

عهد شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بُورِي

(٥٢٩هـ - ٥٣٣هـ)/ (١١٣٥م - ١١٣٩م)

بعد أن تآمرت صفوت الملك بنت جاولي سقاوة سرا على قتل ولدها شمس الملوك إسماعيل، عينت صفوت الملك ابنها الآخر شهاب الدين محمود أميرا جديدا لدمشق، وأصبحت وصية على ابنها. وبالرغم من أن ابنها لم يكن قاصرا إلا أنه خضع مضطرا لسيطرتها، وطبقا لرواية ابن القلانسي فإن وجهاء وقادة الجند في دمشق أقسموا بالسمع والطاعة لشهاب الدين محمود ولأمه ايضا (١). ولكن هذا الوضع لن يستمر لمدة طويلة فسوف تفقد صفوت الملك كثيرا من سطوتها بعد أربع سنوات من هذا التاريخ عندما سيتزوجها زنكي صاحب الموصل في (٥٣٢هـ/١١٣٨م). فقد ظن زنكي أن بزواجه من صفوت الملك سيفرض سيطرته على دمشق، ولكن عندما تم زواجه بها اكتشف أن تأثيرها قد تضاءل في دمشق (٢). ولم ترد أخبار اغتيال شمس الملوك إسماعيل (الأمير السابق لدمشق) إلى زنكي عندما كان في طريقه لاستلام زمام الأمور في المدينة عملا بالعرض الذي وافق فيه شمس الملوك على تسليم إمارته الى زنكي كما سلف ذكره. وبعد أن عبر زنكي نهر الفرات، فوجىء رسله حينذاك بأخبار اغتيال شمس الملوك فرحب قادة دمشق بممثلي زنكي ولكنهم رفضوا تسليم مدينتهم لهم، وبالإضافة إلى ذلك أكد أهالي دمشق لممثلي زنكي تصميمهم على الدفاع عن بلدهم بكل ما أتوا من قوة واستحثوا زنكي أيضا على أن يسحب جنوده دون قيد أو شرط لضمان سلامة قواته وكذلك قوات أهل دمشق على حد سواء، ورفض زنكي عرض أهل دمشق هذا ظانا أن أهل دمشق على خلاف فيما بينهم خاصة بعد مقتل شمس الملوك إسماعيل وأنهم لن يتخذوا الإجراءات اللازمة لحماية مدينتهم.

ويبدو أن زنكي ارتاب في أمر رسله حيث اعتقد أن قادة دمشق أعطوا مبعوثيه رشوة، وبناء عليه شجعوهم على تزويد زنكي بتقرير مضلل عن الموقف في المدينة ولهذا السبب استأنف زنكي تقدمه نحو المدينة.

وخيم جيش زنكي الكبير في جمادى الأولى ٥٢٩هـ/ ١٦ فبراير ١١٣٥م - في مقاطعة قرب دمشق بين عذرا والقصير الواقعة على بعد ١٠ أميال من الشمال الشرقي للمدينة(٣). وعندما زحفت قوات زنكي قريبا جدا من ضواحي دمشق هجر أهالي المناطق المجاورة المحيطة بالريف قراهم ودخلوا إلى المدينة بهدف دعم أهالي دمشق ضد تهديد زنكي الوشيك. ثم نقل زنكي معسكره إلي العقبة القبلية على بعد ١٠ أميال من المدينة في اتجاه الجنوب ليكون قادرا على ملاحظة تحركات قوات دمشق، وفوجيء زنكي بعظم استعدادات أهل دمشق للدفاع عن مدينتهم. ولعبت جماعة الأحداث في المدينة دورا فعالا بالتعاون مع جيش دمشق النظامي لحماية بلدهم. (٤)وطبقا لرواية ابن القلانسي احتشد في المسجد الجامع (الجامع الأموي) وكذلك في جميع أرجاء المدينة المتطوعون الذي أعدوا أنفسهم للدفاع عن بلدهم ضد زنكي. ويبدو أن هذا الجامع الشهير لعب دورا فاعلا للدفاع عن دمشق من الطامعين بها ليس فقط في هذه المناسبة بل في مناسبات أخرى كثيرة حيث انطلقت منه الاستغاثات إلى أهل دمشق للدفاع عن مدينتهم ضد خصومهم.ونجحت كمائن أهل دمشق خارج المدينة في قطع الإمدادات عن زنكي وفي أسر العديد من فرسانه، كما استسلم العديد من جنوده إلى الدمشقيين نتيجة لتلك الكمائن(٥)، ولما فشل زنكي في الاستيلاء على المدينة بالقوة اقترح على قواد دمشق أن يجعلوا أنفسهم تحت سلطته، وطلب من الأمير شهاب الدين محمود شخصيا الذهاب لابن السلطان السلجوقي وهو ألب أرسلان وتقديم الولاء له، في المقابل سوف يخلع عليه ألب أرسلان ويكفل له العودة آمنا إلى مدينة دمشق، وقد حكم زنكي في الموصل وحلب بالنيابة عن ألب أرسلان داود ابن السلطان محمود كأتابك لهذا السلطان، ويبدو أن زنكي كان على دراية بأن أمير دمشق سوف لن يقبل أن يكون تحت سلطته المباشرة. وبناء عليه افترض زنكي أن الأمير شهاب الدين محمود ربما يوافق أن يكون تحت سلطة السلطان ألب أرسلان اسميا وهذا يعني أن أمير دمشق سيكون مسؤولا اسميا أمام السلطان ألب أرسلان وليس أمام زنكي، وتحفظ شهاب الدين على كثير من شروط زنكي ورفض أن يقدم هو شخصيا فرض الطاعة للسلطان ألب

أرسلان وأرسل أخاه الأصغر بهرام ليفعل ذلك بدلا منه. وقبل زنكي هذا الشرط من شهاب الدين(٦). ويقدم ابن العديم وصفا مخالفا لذلك الصلح الذي تم بين الطرفين عندما ادعى أن أهل دمشق عانوا كثيراً من ندرة الطعام والمؤن أثناء ذلك الحصار ولكنه لم يوضح فيما إذا كانت تلك الظروف هي التي أرغمت أهل دمشق على قبول شروط ذاك الصلح(٧).

ومن ناحية أخرى أكد تفسير آخر لمعاهدة السلام هذه على أن أهل دمشق تعهدوا بدفع خمسين ألف دينار سنويا للخليفة العباسي المسترشد ليقنع زنكي بالكف عن محاولته تلك في الاستيلاء على مدينتهم(٨). وعندما يذكر ابن القلانسي تورط المسترشد في المعاهدة بين زنكي ودمشق لم يحدثنا بأي شيء عن المعاهدة ويذكر ابن القلانسي أن ارتباط مبعوث المسترشد بالاتفاقية التي تمت بين زنكي وأهل دمشق حدث دون سابق تخطيط ويؤكد ابن القلانسي أن المسترشد بالله أمر زنكي بالتخلي عن خطة حصار المدينة والإقلاع عن تدخله في شؤون أهل دمشق، وعلاوة على ذلك أمر المسترشد زنكي أن يخطب لألب أرسلان الذي كان تحت وصاية زنكي بدلا من السلطان مسعود. وكان السبب وراء أمر المسترشد هذا -الذي سوف يعزز مصلحة زنكي- هو رغبة المسترشد في الحصول على مساعدة زنكي أثناء نزاعه المستقبلي مع السلطان مسعود(٩). ويبدو أن المسترشد قد انتهز فرصة حصار مدينة دمشق ليحصل على مساعدات مالية من دمشق، وبتقديم تلك المساعدة إلى المسترشد كسب زنكي اعترافا رسميا بسلطنة السلطان ألب أرسلان الذي كان تحت وصايته فقد كافح زنكي ليحصل على هذا الاعتراف بسلطنة ألب أرسلان من المسترشد منذ وقت طويل وذلك منذ حصوله على أتابكية الموصل في (٥٢١هـ/١٧ يناير ٢٢١٧م). وبالرغم من حصول زنكي على هذا الاعتراف من المسترشد إلا أنه لم تكن لديه القدرة على استغلال الموقف لمدة طويلة فسوف يهزم حليفه المسترشد ثم يُقتل في أثناء نزاعه مع السلطان مسعود في ذي القعدة ٥٢٩هـ/١٤ أغسطس ١١٣٥م(١٠). وأنه لمن العدالة أن نقر بفضل هذا النزاع بين كل من الخليفة المسترشد والسلطان مسعود في نجاة إمارة دمشق من نهاية مبكرة على

يدي زنكي. وهكذا دُعي في يوم الجمعة الموافق ٢٨ جمادى الأولى ٥٢٩هـ/١٧ مارس ١١٣٥م للسلطان ألب أرسلان بن السلطان محمود في الخطبة في إمارة دمشق بدلا من اسم السلطان مسعود(١١). وأصبحت إمارة دمشق اسميا وليس فعليا تحت سلطة السلطان ألب أرسلان، وهذا الوضع الجديد لا يختلف كثيرا عما كانت عليه إمارة دمشق عندما كانت سابقا خاضعة للسلطة الاسمية للسلطان مسعود. و لم يتغير وضع إمارة دمشق من الناحية العملية. ومن المحتمل أن زنكي قبل ذلك كخطوة أولى في اتجاه السيطرة الحقيقية على مدينة دمشق في المستقبل، وفي اليوم التالي من هذا الاتفاق، انسحب زنكي إلى الشمال نحو حلب دون تحقيق هدفه الرئيس في الاستيلاء على المدينة بالقوة وبينما كان زنكي في طريقه نحو حلب قام بالقبض وسجن شمس الخواص والي حماة الذي كان يحكم المدينة بالنيابة عن الأمير شهاب الدين محمود أمير دمشق، فأبدل زنكي شمس الخواص هذا بوالي كفر طاب (صلاح الدين الياغسياني). ووفقا لما اوره ابن القلانسي طرد زنكي شمس الخواص نتيجة للعديد من الشكاوى التي وصلته من سكان مدينة حماة ضد واليهم هذا (١٢).

تذكر المصادر التاريخية لهذا العصر أن شهاب الدين أعطى حماة لزنكي كثمن تخليه عن حصار مدينة دمشق ولكن يبدو أن شمس الخواص- صاحب حماة - أظهر ضعفه لزنكي في أثناء حصاره لدمشق. ويشير ابن العديم الى أنه بينما كان زنكي في طريقه لفرض الحصار على مدينة دمشق، قابل شمس الخواص، ويضيف ابن العديم قائلا أن شمس الخواص خرج من حماة لمقابلة زنكي بعد أن أقسم له زنكي بأنه لن يتآمر عليه، وزحف زنكي بعد ذلك تجاه مدينة دمشق لكي يفرض الحصار عليها.

ولم يذكر ابن العديم أي تفصيلات عن المقابلات التي تمت بين زنكي وشمس الخواص ولكن يبدو أن شمس الخواص اضطر إلى قبول سلطة زنكي حتى قبل أن يفرض زنكي الحصار على دمشق في أوائل شهر جمادى الأولى ٥٢٩هـ/ ١٨ فبراير ١١٣٥م (١٣). وتذكر المصادر التاريخية المعاصرة أنه نتيجة لشكاوى أهالي حماة،

استبدل زنكي شمس الخواص بوالي آخر، ولكنهم لم يذكروا إن كان زنكي احتل المدينة بالقوة، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يستولي فيها زنكي على حماة دون أي مقاومة ، وكانت المرة الأولى في أواخر ٥٢٤هـ/ أواخر ١١٣٠م أثناء عهد تاج الملوك بوري كما ذكر آنفا (١٤).

ونجح زنكي في رجب ٥٢٩هـ/ ١٨ ابريل ١١٣٥م -بعد استيلائه على حماة في ـ استرداد أربعة حصون من الصليبيين دون صعوبات تذكر، وتلك الحصون هي الأثارب، تل أغدي- على بعد اثنى عشر ميلا شمال غربي حلب ـ وكذلك معرة النعمان وكفر طاب. وكانت تلك الحصون الواقعة على مقربة من حلب محل اهتمام وعناية من قبل الصليبيين لمدة عقدين من الزمان عندما كانوا يحاولون انذاك توطيد قوتهم هناك .ثم تقدم زنكي جنوبا في اتجاه حصن مونتفران (بارين)الواقع على بعد خمسة وثلاثين ميلا من الشمال الغربي لحمص ـ التابع لصليبيي طرابلس لغزوها(١٥). ولكنه إستأنف زحفه نحو مدينة حمص وفاجأ زنكي حمص في شعبان (٥٢٩هـ/ ١٨ مايو ١١٣٥م) وكانت حمص آنذاك تابعة لأبناء خير خان بن قراجة، فسلب زنكي القرى المجاورة لحمص(١٦). ثم رجع زنكي إلى مدينة قنسرين ـ الواقعة على بعد ١٥ ميلاً جنوب غرب حلب ـ لمساعدة أهلها ضد كونت طرابلس بونز بن برترام الذي كان علي وشك حصارها، وبعد نجاحه في إنقاذ قنسرين، استأنف زنكي غارته على حمص وضواحيها في العشر الأواخر من شهر شوال في ذلك العام. ثم قفل راجعا الى الموصل في الشهر التالي في ذي القعدة/١٤ أغسطس ١١٣٥م).

واستمر زنكي فيما بعد في محاولة استنزاف حمص وذلك عن طريق نهب أقاليمها وأريافها المجاورة لها ليوهنا عن تحمل حصار مرتقب لها، ولم تكن حمص رسميا تحت سلطة دمشق ولكنها كانت سابقا ولمدة حوالي ثلاث عشرة سنة تحت الحكم الرسمي لدمشق في عهد طغتكين من (٤٩٦هـ/١١٠٣م) حتى (٥٠٩هـ/١١١٥م) ولكنها مازالت آنذاك محتفظة بعلاقة خاصة معها، فقد فقدت إمارة دمشق مدينة حمص خلال الحملة السلطانية في سنة (٥٠٩هـ/١١١٥م) والتي

كـان من أهدافـها إسـقـاط حكـم أسـرة طغتكين صاحب دمشق، كـمـا ذكـر آنفا في الفصل الثاني.

ومنذ عام ٥٢٩هـ الموافق ١١٣٥م كانت مدينة حمص تحكم مستقلة من قبل أبناء خير خان بن قراجة الذين كانوا تحت وصاية خومارتاش. وعندما أدرك خومارتاش أن ليس لديه قوة لحماية المدينة من تهديد زنكي، قرر أن يسلم المدينة إلى شهاب الدين محمود حاكم دمشق في مقابل أن يمنح تعويضا عادلا له. والشخص الذي حاز على سبق المبادرة في تلك المعاهدة التي كانت بين حمص ودمشق، هو حاجب دمشق سيف الدولة يوسف بن فيروز، وكان ابن فيروز يتطلع إلى ترك منصبه كوالي تدمر وتولي أمر مدينة كبيرة كحمص بدلا منها (١٨). وكما هو مذكور أعلاه فقد فر الحاجب ابن فيروز هاربا من مدينة دمشق أثناء عهد شمس الملوك إسماعيل في (٥٢٩هـ/١١٣٥م) وناشد ابن فيروز سيده شهاب الدين محمود -الأمير الجديد لدمشق- لكي يمنحه إذنا للعودة إلى مدينة دمشق، ليبادر الى عقد اتفاقية التبادل بين خورماتاش النائب على حمص وشهاب الدين محمود حاكم دمشق.

وخول شهاب الدين ابن فيروز الصلاحية لعمل ذلك الاتفاق، وبعد مفاوضات طويلة اتفق شهاب الدين على أن يستلم هو شخصيا حمص وقلعتها وفي المقابل يعوض خومارتاش بمدينة تدمر التابعة لابن فيروز (١٩).

وكان لصفقة التبادل تلك أثر كبير في تشجيع التنافس فيما بين قادة الغلمان في جيش دمشق خاصة هؤلاء الذين مازالوا يتذكرون أن ابن فيروز أغرى الأمير السابق لدمشق شمس الملوك إسماعيل بقتل بعض أتباعهم، كما سبق ذكره في الفصل الرابع، ونتيجة لهذا السبب فقد عيّن شهاب الدين الحاجب ابن فيروز ليس كوالي حقيقي على مدينة حمص ولكن كنائب لقائده الأمير معين الدين أنر. وكان شهاب الدين موقنا أن زنكي لن يعوقه اي عائق في تنفيذ خطته للاستيلاء على حمص، رغم عودتها رسميا لسيادة إمارة دمشق، وسافر شهاب الدين إلى حمص بنفسه واستلم المدينة وكتب من حمص الى كافة قواده في أنحاء إمارته لإرسال الإمدادات الحربية ليدعم بها حمص في مواجهة تهديد زنكي لها، ورجع شهاب

الدين في ربيع الأول ٥٣٠هـ/ ٩ ديسمبر ١١٣٥م الى مدينة دمشق قادما من حمص بعد تقوية دفاعات المدينة(٢٠). ولتورط زنكي في الصراع بين الراشد - الخليفة العباسي الجديد - والسلطان مسعود بعد اغتيال الخليفة المسترشد في (٥٢٩هـ/١١٣٥م)، فقد أمر زنكي نائبه في حلب الأمير سوار ونائبه في حماة الأمير صلاح الدين الياغسياني أن يشنا الغارات ضد ضواحي حمص، إلا أنه بعد مفاوضات طويلة، عقد كل من شهاب الدين وزنكي هدنة لفترة قصيرة ومحدودة ولكن ابن القلانسي - المؤرخ الوحيد لتلك الفترة الذي أشار الى تلك الهدنة - لم يخبرنا كم مدة الهدنة تلك (٢١).

كان عام ٥٣٠هـ/ اكتوبر ١١٣٥م، عاما سعيدا لإمارة دمشق حيث كسبت فيه تلك الهدنة مع خصمها زنكي، إلا أنه من ناحية أخرى كان عام نزاع وشقاق داخلي في الإمارة، ووصل النزاع بين قادة دمشق الى قمته ذلك العام وامتد إلى أقارب الأمير شهاب الدين وتزعمه هذه المرة أخوه شمس الدولة محمد والى بعلبك. وبدأت قصة هذا الصراع عندما سمح شهاب الدين ووالدته صفوت الملك لابن فيروز أن يقيم في مدينة دمشق، وتعهد ابن فيروز في المقابل بأن لا يتدخل في شؤون دمشق، ويبدو أن شهاب الدين استدعى ابن فيروز ليشكل قوة مضادة لقوة بزواج الذي أصبح الرجل الثاني في دمشق، بعد اغتيال شمس الملوك أمير دمشق السابق. وقد لعب كل من بزواج والأمير أنر دورا بارزا في تدبير شؤون دمشق خلال فترة حصار زنكي للمدينة في نهاية العام السابق في نهاية عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م، (٢٢) وكنتيجة لجهوداتهما ذلك الحين، أصبحا أكثر القادة تفوقا بكفائه في الإمارة. ومن المحتمل أن فشل شهاب الدين في كبح قوة بزواج يرجع لوقوف الأمير أنر بجانب بزواج، ولكي يوازن شهاب الدين قوة بزواج استدعى شهاب الدين ابن فيروز الذي اعتمد على الأمير أنر لحمايته من مؤامرات محتملة تحاك ضده في دمشق (٢٣). ويظهر أن بزواج فهم الأسباب وراء عودة الحاجب بن فيروز ولذلك استغل التنافس بين شهاب الدين وأخيه شمس الدولة محمد -والي بعلبك- ليحصل على مساعدة شمس الدولة لضمان وفاء ابن فيروز بعهده بأن لا يتدخل في الشؤون السياسية

لإمارة دمشق. وعلاوة على ذلك استغل بزواج التنافس بين شهاب الدين وأخيه غير الشقيق شمس الدولة حاكم بعلبك ليحصل على نصرة شمس الدولة الذي اعتاد على الثورة ضد أخوانه حكام دمشق ـ كما سبق ذكره عند الحديث عن ثورته ضد شمس الملوك اسماعيل في ذي القعدة ٥٢٦هـ/١٣ سبتمبر ١١٣٢م. ويبدو أن اغتيال شمس الملوك بتحريض والدته، واعتلاء شهاب الدين الإمارة قد حدث دون استشارة شمس الدولة محمد، ولهذا السبب اعتبر شمس الدولة أن ما حدث لشمس الملوك مؤامرة ضد الأمير الشرعي لدمشق. والذي زاد من حدة التوتر في دمشق في عام ٥٣٠هـ/ ١١ اكتوبر ١١٣٥م هو عدم محافظة الحاجب بن فيروز لوعده بعدم التد خل في الشؤون الداخلية لدمشق، ولما اكتشف بزواج هذا أصبح قلقا بشأن حصول ابن فيروز على حرية التصرف في إدارة إمارة دمشق بموافقة الأمير شهاب الدين،كما كان قد حصل عليها من قبل في الفترة الأولى من عهد شمس الملوك كما هو مذكور سابقا.

وبما أن ابن فيروز نقض عهده المتعلق بعدم التدخل في شؤون حكم دمشق، فإن بزواج حذر سيده شهاب الدين محمود من إعطاء ابن فيروز اهتماما أكثر من اللازم، إلا أنه بدلا من أن يتخذ شهاب الدين محمود إجراء ليسترضى الأمير بزواج ليقلل من حدة التوتر في دمشق، إتخذ إجراء آخر ليضعف من قوة بزواج وأتباعه.

وعين الأمير شهاب الدين ووالدته ـ في ٢١ جمادى الأول (٥٣٠هـ الموافق ٢٧ فبراير ١١٣٦م) ـ الأمير أمين كمشتكين الأتابكي ـ والي صرخد ـ كأتابك لأمير دمشق واسفهسلار لجيش دمشق (٢٤). ويبدو أن الأمير شهاب الدين لم يعين أي فرد حتى ذلك الوقت ليتولى هذين المنصبين الهامين، وبهذه الطريقة سوف يحرم بزواج من سلطانه ونفوذه كرجل ثاني في دمشق. وعندما لاحظ بزواج تلك الإجراءات التي أُتخذت من قبل شهاب الدين، تردد قبل أن يتخذ أي خطوة حاسمة، وكلفه هذا التردد خسارة كبيرة بفقده الكثير من نفوذه في دمشق، وبعد خمسة أسابيع من تعيين الأتابك والإسفهسلار الجديد لدمشق، قتل بزواج ابن

فيروز في ٢٧ جمادى الآخرة ٥٣٠هـ الموافق ١٤ ابريل ١١٣٦م في الميدان الواقع على بعد أميال قليلة من جنوب غرب مدينة دمشق، وبرر هذا الحدث على أساس أن ابن فيروز لم يف بالعهد المذكور سابقا (٢٥).

وبعد اغتيال ابن فيروز رفض أعضاء من عسكر دمشق وخاصة الغلمان السماح لبزواج بالعودة إلى المدينة إلا إذا استدعى للمحاكمة على جريمته تلك. ولم يكتف بزواج بقتل ابن فيروز فقط بل طلب من الأمير شهاب الدين أن يجرد الأمير كمشتكين الأتابكي من رتبتيه ويعين بزواج نفسه بدلا منه. وعندما رفض شهاب الدين تنفيذ طلب بزواج ذاك، استدعى بزواج أنصاره ونهب وسلب الأراضي الزراعية حول مدينة دمشق، وجهز الأمير شهاب الدين قوات عسكرية كبيرة لمهاجمتهم ولكنها فشلت في إجبار بزواج وأتباعه على الدخول في مواجهة عسكرية حاسمة. وعندما وصل الصراع بين شهاب الدين وبزواج الى قمته، لم يورط الأمير كمشتكين نفسه في هذا الصراع، ويبدو أن كمشتكين أدرك أنه ليس باستطاعته تحدي بزواج، وبناء على ذلك ،رحل الى حصن صرخد، فتوسل شهاب الدين بكمشتكين للعودة إلى مدينة دمشق ليتحالفا ضد بزواج، إلا أن كمشتكين رفض قبول توسل شهاب الدين حتى لو أمنه شهاب الدين وضمن له العودة لمنصبه كأتابك واسفهسلار لدمشق. ورفض غالبية عسكر دمشق السماح لبزواج بالعودة الى المدينة كما لم يأذن له شهاب الدين محمود نفسه بالعودة لدمشق، ولهذا أ سرع بزواج وأتباعه في الذهاب الى مدينة بعلبك، فرحب واليها شمس الدولة محمد -الأخ غير الشقيق لشهاب الدين -بالمتمردين. ودخل الكثير من التركمان الجدد فيما بعد تحت سلطة شمس الدولة، وبدأ أتباع بزواج في قطع طرق التجارة على دمشق، ونتيجة لذلك اضطر شهاب الدين إلى قبول شروط بزواج. وبفضل معاهدة السلام تلك بين شهاب الدين وبزواج عين شهاب الدين بزواج كأتابك واسفهسلار لدمشق بدلا من كمشتكين الأتابكي، وفي المقابل تعهد بزواج نفسه على أن يعيد كل ما سلبه من دمشق بعد اغتياله لابن فيروز، وظهر للعيان ان فرار كمشتكين أضعف من عزيمة الأمير شهاب الدين محمود لإخضاع بزواج المتمرد(٢٦). وعلاوة

على ذلك لا يوجد أي دليل يبين ما إذا قام الأمير أنر بأي إجراء للإنتقام من مقتل حليفه ابن فيروز أو لمساعدة سيده شهاب الدين ضد المتمرد بزواج.

وإزداد الوضع الداخلي في دمشق سوءا عندما قتل (الأمير بزواج والحاجب سنقر) واحدا من أعظم الحلفاء المخلصين لابن فيروز يدعى محي الدين ابو الذؤاد بن الحسن بن حسين بن الصوفي رئيس دمشق. ويبدو أن الأمير شهاب الدين أُجبر على إعطائهم إذنا لقتل رئيس دمشق الذي لعب دورا فريداً في سحق الباطنية في دمشق في ١٧/رمضان ٥٢٣هـ/ الموافق ٤ سبتمبر ١١٢٩م كما سبق ذكره في الفصل الثالث. وهرب آنذاك واحدا من أقارب ابن الصوفي، يدعى الأمير شجاع الدولة الى صرخد - الواقعة على بعد ٧ أميال شرق بصرى(٢٧) ،بعد اغتيال ابن الصوفي للحصول على حماية والي صرخد الأمير كمشتكين الأتابكي خوفا من بطش بزواج والي صرخد وأتابك الأمير شهاب الدين محمود واسفهسلار جيش دمشق(٢٨).

وكان من حسن حظ إمارة دمشق ذلك العام في ٥٣٠هـ/١١ اكتوبر ١١٣٥م، أن زنكي - الخصم القديم العهد للإمارة -اشترك في الصراع الذي وقع بين الخليفة العباسي الراشد والسلطان مسعود، وأمضى زنكي شتاء عام ٥٣٠هـ/١١ اكتوبر ١١٣٥م مع الراشد بسبب تعهده السابق لوالد الراشد بالنصرة وهو المسترشد في خلال نضاله مع السلطان مسعود. وبالرغم أن زنكي لم ينجز التزامه بشكل تام لدعم المسترشد، فقد أخلص هذه المرة مساندته لابنه الراشد، ويرجع السبب في ذلك أن زنكي ربما اتهم السلطان مسعود بقتل المسترشد في نهاية ٥٢٩هـ/ نهاية ١١٣٥م. أُحل زنكي نفسه في نهاية (٥٣٠هـ نهاية ١١٣٦م) من ذلك العهد باتجاه الراشد عندما خلع الراشد من الخلافة في ١٦ ذي القعدة ٥٣٠هـ/١٧ أغسطس ١١٣٦م. واستبدل الراشد بعمه المقتفي بأمر الله. (٣٠)، ولو لم يتورط زنكي في ذلك النزاع، لكان قادرا على الاحتفاظ بطاقاته للاستيلاء على حمص وأراضي أخرى تابعة لإمارة دمشق. وعلى النقيض من ذلك كان عام (٥٣١هـ/٢٩ سبتمبر ١١٣٦م) عام هدوء وتصالح في دمشق، فبعد مفاوضات طويلة بين متمردي حصن صرخد وعلى

رأسهم كمشتكين والي صرخد وشجاع الدولة بن الصوفي من جانب، والأمير شهاب الدين وبزواج والحاجب أسد الدين أكز من جانب أخر، سمح شهاب الدين لكمشتكين- والي صرخد -وابن الصوفي بالعودة ثانية الي مدينة دمشق بالإضافة الي موافقة كل منهم على إعادة ثروات المتمردين التي صُودرت سابقا عن طريق الأمير شهاب الدين، كما منح شهاب الدين ابن الصوفي رتبة رئيس دمشق والتي تركت شاغرة منذ اغتيال محيي الدين بن الصوفي في العام الماضي. وفي أوائل رجب ٥٣١هـ/ ١٥ ابريل ١١٣٧م احتفل أهل دمشق بوصول هؤلاء القادة الى مدينة دمشق في مهرجان عظيم شكروا الله فيه جميعا على هذه النعمة العظيمة في الوصول إلى تلك المصالحة المباركة (٣١).

وبعد أن نجحت الإمارة في أن تضع نهاية للصراعات الداخلية أصبحت في أتم الاستعداد للاشتراك مرة ثانية في مقاومة الحملات الصليبية وخصوصا كونتية طرابلس التي كانت حدودها متاخمة لإمارة دمشق، فقد أوقفت دمشق نشاطاتها العسكرية ضد الصليبيين منذ عهد الأمير شمس الملوك إسماعيل الذي شن هجوما على الصليبيين في ذي القعدة ٥٢٨هـ/ ٢٤ أغسطس ١١٣٧م، ونجح به آنذاك في استرداد بانياس كما ذكر في الفصل الرابع (٣٢).

غزى بزواج - القائد الرئيس لجيش دمشق - في رجب ٥٣١هـ/٢٥ مارس ١١٣٧م - مناطق طرابلس الصليبية، فعندما أبلغ الكونت بونز بتقدم بزواج داخل كونتيه أسرع الكونت بونز لملاقاة قواته، فهزم بزواج جيش بونز بعد معركة حامية الوطيس بالقرب من قلعة سانت جيل (جبل الحجاج)، ونجح معظم جيش بونز في الفرار من الموت ولكن بونز نفسه وقع في أسر المارونيين السوريين نتيجة لمؤامرة دبرها هؤلاء والذين كانوا مقيمين في جبال لبنان. ثم قتل بونز، لم يمدنا وليم الصوري بأي تفصيلات عن كيفية اغتيال المارونيين للكونت بونز. وأرسل الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله تهانيه لأمير دمشق شهاب الدين بخصوص انتصاره ذاك على صليبيي طرابلس (٣٣).

وبعد انتصاره على الصليبيين نجح بزواج في الاستيلاء على قلعة سانت جيل،وبالرغم من أنه حقق انتصاراً عظيماً على كونتية طرابلس إلا أن جيش بزواج لم يكن مستعداً لفرض الحصار على العاصمة طرابلس، واكتفى بزواج بالتقدم الى شمال طرابلس لنهب القرى المحيطة هناك والاستيلاء على حصن يحمر المعروف لدى الصليبيين باسم حصن روج الذي يقع على بعد أحد عشر ميلا جنوبي شرق أنطرطوس .وقد أسس هذا الحصن بنو الأحمر الذين استقروا على جبل الروادف ولهذا نسب الحصن لبني الأحمر (٣٤). ويبدو أن المارونيين السوريين تمكنوا من التعرف على شخصية الكونت بونز بعد أسرهم له ثم سلموا الكونت لبزواج أو لأهل دمشق الذين قتلوه. وكعادة وليم الصوري عندما يكتب تقريراً عن هزيمة الصليبيين فيورد ان غالبية الصليبيين اللذين اشتركوا في المعركة من الطبقات الدنيا والقليل منهم كان من طبقة النبلاء، ولكنه لم يمدنا بأي تقدير عن خسائرهم البشرية، ويضيف وليم الصوري أن ريموند الذي خلف والده بونز في حكم طرابلس قام بالثأر لمقتل أبيه عن طريق الصعود لجبال لبنان مع القوات المتبقية في الكونتية وارتكبوا مذبحة ضد المارونيين هناك. ولكن لم يذكر أي مؤرخ لتلك الأحداث في ذلك الوقت شيئا عن الخطوات التي اتخذها ريموند للانتقام من أهل دمشق الذي الحقوا بوالده تلك الهزيمة الشديدة، ومن المحتمل أن ريموند لم يكن لديه قوة كافية لكي يتحدى جيش دمشق تحت قيادة قائدهم المشهور بزواج. إن هذا التعاون بين النصارى المارونيين وأهل دمشق دلالة واضحة على نجاح بزواج في المناورة للاستفادة من توتر العلاقات بين الصليبيين والمارونيين. ويبدو أنها المرة الأولى التي تستخدم فيها إمارة دمشق مارونيي جبال لبنان ضد إخوانهم في الدين الصليبيين الكاثوليك الشرقيين(٣٥).

استأنف زنكي صاحب الموصل وحلب محاولته الجديدة في أوائل شعبان ٥٣١هـ/ الأول من إبريل ١١٣٧م للاستيلاء علي مدينة حمص التابعة لإمارة دمشق، فعبر الفرات بقواته متحركا في اتجاه حمص. كماأمر واحدا من أعظم قواده ويدعى صلاح الدين الياغسياني أن يسبقه مع عسكر حماة ليفرض الحصار على

حمص، واختار زنكي هذا القائد لمحاصرة حمص لأنه يعتقد أن قائدا موهوبا كهذا سيكون له القدرة على إقناع والي حمص الأمير أنر ليسلمه حمص دون إراقة دماء، إلا أن الأمير أنر رفض عرضا للتنازل عن مدينته حمص وبرر موقفه هذا على أساس أنه يحكم المدينة كوكيل نائبا عن أمير دمشق شهاب الدين ولذلك ليس لديه الحق في تحديد مصير المدينة .

وعبأ زنكي في شوال ٥٣١هـ/ ٢٢ يونيو ١١٣٧م خمسمائة من الجنود المشاة من حماة وهاجم بهم حمص لعدة أيام ولم يكن زنكي قادرا آنذاك على كسر مقاومة المدافعين عن المدينة.

وطبقا لرواية ابن العديم أسرع الصليبيون لمساعدة حمص، مما اضطر زنكي الى رفع الحصار عن المدينة، ولكن ابن العديم لم يخبرنا فيما اذا كان أهالي حمص قد طلبوا المساعدة من الصليبيين أم لا. ومن ناحية أخرى ذكر ابن القلانسي أن السبب وراء انسحاب زنكي كان المقاومة الشديدة التي ووجه بها من قبل أهالي حمص، ولم يذكر ابن العديم أي شيء عن مساعدة الصليبيين تلك. ويبدو أن أهالي حمص لم يطلبوا مساعدة الصليبيين ولو أنهم فعلوا ذلك لكان من الصعب أن نفهم كيف تعاون أهل دمشق مع زنكي ضد الصليبيين في أوائل ذي الحجة من نفس العام ٥٣١هـ/٢٧ سبتمبر ١١٣٧م وسوف أناقش هذا لاحقا(٣٦).

بدأ الامبراطور البيزنطي جون كومنين الثاني في عام ٥٣١هـ/ سبتمبر ١١٣٧م حملة كبيرة مستهدفا استرداد أنطاكية والمناطق المجاورة لها من الصليبيين، وكانت حجة جون أن الصليبيين لم يفوا بعهدهم في ٤٩٠هـ/١٠٩٧م لأبيه الامبراطور ألكيوس كومنين الأول الذي تعهدوا بموجبه بتسليم أنطاكية اليه في حالة استردادها من المسلمين ،السبب الذي حدا بالامبراطور جون لاعداد هذه الحملة هو نجاح ريموند صاحب بويتسير (Poitiers) في سيطرته على إمارة أنطاكية الصليبية ففي عام (٥٣٠هـ/١١٣٦م) عندما تزوج أميرة أنطاكية كونستانس ابنة أليس زوجة أمير أنطاكية الصليبي السابق بوهيموند الثاني، وناضل الامبراطور جون الثاني آنذاك للسيطرة على أنطاكية بترتيب زواج أحد أبنائه للأميرة كونستانس ولكنه فشل في

تحقيق ذلك، وهكذا ضاعت منه فرصة سانحة للسيطرة على أنطاكية بطريقة سلمية، ولهذا خطط الامبراطور ليخضع أنطاكية بقوة السلاح في ذي الحجة ٥٣١هـ/ ٢٨ اغسطس ١١٣٧م، فاسترد الامبراطور جون الثاني قليقية التي كان يحكمها الملك الأرمني ليون الأول، وستكون خطوته التالية فرض الحصار على المدينة بهدف استردادها للامبراطورية البيزنطية وقد نوقش اشتراك جون كومنين الثاني مع الصليبيين وعلاقته مع إمارة دمشق أدناه. والاسلوب الذي جعله متورطا في شمال بلاد الشام كعنصر أساسي وحاسم في علاقاته التالية مع إمارة دمشق، وبينما كان جون يفرض حصاره على أنطاكية اقلع زنكي عن حصار حمص في ٢٥ شوال ٥٣١هـ/ الموافق ١١ يوليو ١١٣٧م كما هو مذكور سابقا.

ورفع زنكي هذا الحصار ليكون قادراً على فرض الحصار على حصن مونتفراند Montferrand (بارين) الاستراتيجي المحصن والذي ينتمي الى كونتية طرابلس عندما أخبر عن هزيمة جيش كونتية طرابلس على يد أهل دمشق في رجب من نفس عام ٥٣١هـ/ ٢٥ مارس ١١٣٧م كما هو مذكور أعلاه.ويؤكد تقرير وليم الصوري الدور الهام الذي لعبته إمارة دمشق في إضعاف قوى كونتية طرابلس (٣٧)

وأسرع كونت طرابلس الجديد ريموند وملك بيت المقدس فولك لنجدة بارين ونجح زنكي في هزيمة كلا الجيشين قرب بارين وقتل ألف رجل وأخذ الكونت ريموند أسيراً ونجا الملك فولك من الموت وأسرع إلى حصن بارين ليستخدمه مأوى لباقي القوى الصليبية المهزومة. وناشد الملك فولك النجدة من ريموند أمير أنطاكية وجوسلين الثاني كونت الرها. وعلى الرغم من أن مدينة أنطاكية عاصمة ريموند كانت تحت حصار الامبراطور جون الثاني البيزنطي، فقد أسرع ريموند بفرقة من قواته لإنقاذ الملك فولك، وترك ما تبقى من قواته للدفاع عن المدينة من تهديد الامبراطور البيزنطي وأسرع أيضا جوسلين- كونت الرها -مع قواته المسلحة وباقي جيش مملكة بيت المقدس بقيادة وليم (بطريك القدس) لنجدة الملك.

ولم تقف إمارة دمشق موقف المتفرج لما يحدث في بلاد الشام بين زنكي والصليبيين فبينما كانت غالبية القوات الصليبية المتحالفة مشغولة في إنقاذ ملكهم

وأتباعه في حصن بارين وكانت مملكة بيت المقدس نفسها متجردة من مدافعيها. كانت عساكر دمشق تشن حملة بغرض استنزاف قوى الصليبيين وقاد الأمير بزواج قوات دمشق آنذاك وتقدم نحو نابلس المدينة غير المحصنة في منطقة السامرة شمال فلسطين وغنم غنائم عظيمة وأخذ العديد من الأسرى، ثم أشعل النار في الريف حول مدينة نابلس وعاد فيما بعد الأمير بزواج مسرورا مع قواته التي لم تعان من أي اصابات تذكر الى مدينة دمشق.

ونجح زنكي عند حصاره لبارين في أن يمنع وصول أخبار نجدة الصليبيين الى الملك فولك في بارين (مونتفراند) ولهذا السبب اعتقد فولك أن النجدة الصليبية لن تصل له، ولهذا اضطر الى الاستسلام لزنكي بشروط وسلم حصن بارين لزنكي، وبناء عليه فقد وافق مضطرا أن يدفع لزنكي خمسة آلاف دينار كفدية (٣٨)، وفي المقابل أعطى زنكي الأمان للملك وقواده الذين كانوا محاصرين في الحصن.

ووصلت النجدة الصليبية للحصن في اليوم التالي من استسلام بارين لزنكي، ولام القواد الصليبيون مليكهم لاستعجاله تسليم الحصن، ثم عادوا إلى بلادهم دون تحقيق هدفهم من هزيمة جيش زنكي خارج بارين. وبينما كان زنكي محاصرا بارين، فاز بانتصار سهل ضد صليبي إمارة أنطاكية، ويبدو أن ذلك حدث لانشغال قوات أنطاكية في الدفاع عن عاصمتهم ضد الجيش البيزنطي، وتمكن زنكي في تلك الأثناء من تحرير كل من مدينة معرّة النعمان وكفر طاب، ويعني الاستيلاء على كل من بارين، معرة النعمان وكفر طاب بأن المنطقة بأكملها بين حلب وحماة أصبحت آمنة من خطر الغارات الصليبية (٣٩) ويظهر أن تلك الانتصارات الجديدة لزنكي على الصليبيين اسهمت في سيطرته على أراضي جديدة في الشام وستعزز مكانته كأقوى قائد مسلم في بلاد الشام.

وبعد الانتصار الحاسم لزنكي في بارين، صرف الامبراطور البيزنطي جون الثاني نظره عن الاستيلاء على مدينة أنطاكية بالقوة. ومال الى أن يشارك الصليبيين في تحالف ضد زنكي. ويظهر أن الامبراطور جون قد فعل ذلك بعد إدراكه أن قوة زنكي

المتنامية لا تمثل خطرا على الصليبيين فقط بل على مصالحه الخاصة في بلاد الشام ايضا.(٤٠).

وقد اشترط الامبراطور على ريموند أمير أنطاكية أن يقسم له يمين الولاء مقابل فك الحصار عن مدينة أنطاكية، كما تعهد الأمير ريموند على أن يسمح للامبراطور وقواته في دخول مدينة أنطاكية متى شاء. وكان أهم شرط وثيق الصلة بإمارة دمشق هو أنه في حالة نجاح الامبراطور بمساعدة الصليبيين في احتلال حلب، شيزر، وحماة، وحمص فإنه سيمنحها للصليبيين وفي مقابل ذلك سوف يسلم الأمير ريموند أنطاكية للامبراطور.(٤١).

ويبدو أنه لو حقق هذا التحالف أهدافه فسيتأثر مستقبل إمارة دمشق بشكل مباشر، ولن تفقد دمشق هذه المرة مدنها الرئيسة فقط كمدينة حمص ولكن ربما فقدت استقلالها أيضا، ويبدو واضحا أن الخطوة التالية للصليبيين فستكون دون شك مدينة دمشق نفسها ـ لو قدر أن لاقت تلك الخطة نجاحاً ـ فسوف يصبح من الصعب على إمارة دمشق أن تحمي نفسها حتى لو ساعدها زنكي بقواته من الموصل فسيصبح طريق إمدادات زنكي لنجدة دمشق طويلا جدا وليس فعالا كما لو كان قادرا على الاعتماد على نجدة قادمة عبر طريق قصير نسبيا متجه من حماة أو حلب نحو مدينة دمشق.

وفي شهر ذي الحجة ٥٣١هـ/١٨ أغسطس ١١٣٧م عبأ الامبراطور حملة ضد شمال بلاد الشام عن طريق إرسال رسل لزنكي مؤكدا له أن ليس لديه أطماع في الاستيلاء علي مناطق نفوذه أو أي أراضي مسلمة أخرى. وقد بذل رسل الامبراطور جهدهم ليؤكدوا لزنكي أن الهدف الرئيس لسيدهم هو استرداد أرمينيا من حاكمها المتمرد الملك ليو الأول، ويبدو أن جون قد قام بتطبيق نفس الخطة العسكرية كما طبقها من قبل قادة الحملة الصليبية الأولى في (٤٩٠هـ ـ ١٠٩٧م) عندما أكدوا لحكام دمشق وحلب أنهم ليس لديهم أية أطماع في الاستيلاء على أراضيهم وأن هدفهم الرئيس هو استرداد القدس كما هو مذكور أعلاه في الفصل الثاني.

وقد وثق زنكي في تعهد الامبراطور، وبناء عليه استأنف مشروعه في الاستيلاء

على حمص وأراضي أخرى لإمارة دمشق، وفي ذي الحجة ٥٣١هـ/ ١٨ أغسطس ١١٣٧م، تقدم زنكي مع قواته واستمر في نهب ريف الأراضي المحيطة لحمص ليضعف بهجماته المتكررة مقاومة المدينة. وحينئذ زحف تجاه بعلبك التي كانت تحت سيطرة شمس الدولة محمد - أخى الأمير شهاب الدين محمود - أمير دمشق،وقد أُجبر شمس الدولة على دفع أتاوة لزنكي.(٤٢). ثم تقدم زنكي بعد ذلك إلى سهل البقاع واستولى على حصن المجدل - الذي يقع على بعد ٥ أميال شمال عين الجّر على الطريق بين بعلبك ووادي التيم - من أهل دمشق وربما دون مقاومة تذكر.

وحينئذ تقدم ناحية بانياس ليفرض الحصار عليها لأول مرة، ويبدو أنه عندما لاحظ إبراهيم بن طرغت والي بانياس إذلال شمس الدولة أمير بعلبك وعدم قدرة أهل دمشق على حماية حصن المجدل، فرأى أن من الحكمة السياسية تسليم مدينته لزنكي صلحا (٤٣). وأخذ زنكي المدينة دون مقاومة، وبهذا فقدت إمارة دمشق واحدة من أعظم مدنها الاستراتيجية، المحصنة تحصينا قويا، وأصبحت مدينة بانياس أول مدينة في إمارة دمشق تستسلم عن طيب خاطر لسلطة زنكي، ، واستلم زنكي مدينة بانياس واستبقى ابن طرغت واليا عليها (٤٤) وليس من المستبعد أن قام زنكي بإقناع ابن طرغت بتسليم بانياس له مقابل أن يكافئه زنكي باستبقائه واليا عليها. وطبقا لرواية ابن العديم قضى زنكي شتاء عام ٥٣٢هـ/ ١٩ سبتمبر ١١٣٨م في أراضي إمارة دمشق ثم عاد إلى حماة، ولكن لم يزودنا ابن العديم بأية تفصيلات عن السبب وراء فعل زنكي ذلك. ويبدو أن زنكي قد قضى الشتاء ببانياس ومقاطعتها ليؤسس قوته هناك، ومن حماة أمر زنكي نائبه في حلب (الأمير سوار) مع جيشه ليجتمع مع قوته لحصار مدينة حمص، وبالرغم من أن المصادر التاريخية لذلك الوقت لم تمدنا بأية تفصيلات عن اعداد قوات زنكي المسلحة، ولكنه يبدو أنه حشد حشدا كبيرا لهذه المهمة، وبالرغم من أن زنكي نجح في هزيمة أهالي حمص في بعض المواقع حول المدينة إلا أنه لم يستطع اجتياح المدينة نفسها، وشاءت الأقدار أن تسلم حمص من السقوط مرة أخرى بيد زنكي. فقد وردت أخبار زحف الجيش البيزنطي الجرار الذي قدر بحوالي مائتي ألف رجل مع القوات الصليبية المتحالفة نحو بلاد

الشام كما وردت أنباء عن سقوط حصن بزاعة التابع لزنكي والذي يقع على بعد ثمانية عشر ميلا فقط شمال شرق حلب. هكذا اكتشف زنكي أن وعد الامبراطور بعدم عزمه غزو بلاد المسلمين في بلاد الشام كان هراء، وقبل زنكي أن يفك حصار حمص،و أمر نائبه في حلب سوار أن يسرع للدفاع عن مدينته، وعلاوة على ذلك ساعد نائبه سوار بخمسمائة جندي بما فيهم أربعة قواد بلقب اسفهسلار (٤٥).

وعندما وصلت القوات الصليبية والبيزنطية المتحالفة في ٩ شعبان ٥٣٢هـ/٢٢ ابريل ١١٣٨م مقاطعة حلب رفع زنكي الحصار عن حمص، وتحرك نحو سلمية ليقطع طرق امداداتهم (٤٦). ثم تقدمت القوات الصليبية والبيزنطية نحو مدينة شيزر لفرض الحصار عليها، ، ويبدو أنهم عدلوا عن رأيهم فيما يتعلق بفرض الحصار على حلب بهدف الاستيلاء عليها عندما واجهوا مقاومة قوية من عسكر حلب وجماعة الأحداث في المدينة، وبناء على ذلك، تركوا أراضي حلب واحتلوا الأثارب التي فر أهلها خوفا من الحشود المتحالفة الكبيرة، وتقدموا حينئذ لغزو مدينة شيزر الحصينة في شعبان من ذلك العام (٤٧) وطبقا لرواية ابن القلانسي أرغم عدد لا حصر له من قوات التركمان الذي كان على رأسهم الأمير داود بن سقمان بن أرتق صاحب آمد وحصن كيفا الذي أسرع لنجدة شيزر،أرغم القوات المتحالفة على التخلي عن فرض الحصار، ثم عادوا أدراجهم الى مدينة أنطاكية (٤٨). ويعزو وليم الصوري انسحاب الحلفاء عن شيزر الى خيانة الامبراطور البيزنطي جون الذي يبدو أنه آثر السلامة وأخذ أتاوة من سلطان بن منقذ حاكم شيزر (٤٩). ومن ناحية أخرى يخص ابن الأثير زنكي بالدور الريادي في المساهمة في إفشال مخطط الحلفاء للاستيلاء على شيزر، ويؤكد ابن الأثير أن زنكي قرر توظيف اسلوب المناورة والحيلة ليولد الشك بين صفوف الحلفاء. فأقنع الصليبيين أنه لو حقق الامبراطور البيزنطي أهدافه من هذه الحملة، بما فيها الاستيلاء على شيزر - فإن هذا سيمهد السبيل للامبراطور لتدمير صرح الصليبيين بأكمله في بلاد الشام. (٥٠)

ومن المحتمل أنه لهذا السبب يحمل وليم الصوري الصليبيين مسؤولية فشل الاستيلاء على شيزر وذلك لعدم قيامهم بالواجب المناط بهم خير القيام، وبناء عليه

يبدو أن زنكي قام بدور رئيس لإفشال هذه الحملة وخاصة بنجدته القوات المدافعة عن شيزر بالامدادات اللازمة وكذلك بقطعه طريق الإمدادات الخاص بالعدو عندما عسكر في سلمية، كما هو مذكور سابقا. ونتيجة لفشل الحملة الصليبية والبيزنطية المتحدة ترسخت مكانة زنكي في بلاد الشام لدرجة أنه أصبح قادرا على تأكيد ادعائه بأنه القائد المسلم الأول في بلاد الشام.

ويمكن رؤية هذه الحملة على أن لها إشارات هامة على مستقبل دمشق، وكما هو مذكور أعلاه فإن فشل الحملة المتحالفة تلك دعّم مكانة زنكي في بلاد الشام ودعّم موقفه كحامي لجميع المسلمين في بلاد الشام بما فيهم أهل دمشق الذين رفض زعماؤها قبول زعامته عليهم. ويبدو أنه لو بدأ الحلفاء حملتهم تلك بفرض الحصار أولا على حمص ـ التي كانت بالفعل واحدة من أهداف حملتهم كما هو مذكور سابقا ـ فسيرغم أهل دمشق على طلب العون من زنكي، ولو حدث ذلك فسوف تزداد سلطة زنكي تدريجيا داخل إمارة دمشق وعلاوة على ذلك لو نجح الحلفاء في الاستيلاء على حلب، وحماة، وحمص، ، وشيزر كما خططوا له سالفا فسوف يكون من الصعوبة بمكان على أهل دمشق أن يحموا إمارتهم من القوات المتحالفة. وحينئذ سيضطر زنكي لمساعدة مدينة دمشق بواسطة طريق مدينة الموصل، وإرسال الامدادات لمدينة دمشق بواسطة هذا الطريق الذي يعد طويلا جدا، وسيكلف زنكي جهداً كبيراً وذلك لعظم طول خطوط الامداد تلك، فبينما كان الحلفاء يحاصرون شيزر، بعث زنكي بحمله الى الرقة بعيداً عن خطر القوات المتحالفة، فقد كان يخطط لصراع طويل مع الحلفاء.

ويبدو أن إمارة دمشق أُرعبت الى حد كبير من هذه الحملة وكانت على دراية بأهداف الحلفاء. ومن المحتمل أن أهالي دمشق خافوا أن تحتل القوات المتحالفة بعض مناطق إمارة دمشق (كحمص مثلا) لتحقيق هذه الأهداف، ولهذا السبب أرسلت إمارة دمشق الحاجب حسن رسولا لها للامبراطور البيزنطي بهدف إقناع الامبراطور البيزنطي لايقاف هذه الحملة حتى قبل إستيلائه على بُزاعة في ٢٥ رجب ٥٣٢هـ/ الموافق ٩ أبريل ١,١٣٨م وقد عاد هذا الرسول المدعو الحاجب حسن وكذلك مبعوث

زنكي من الامبراطور إلى مدينة دمشق في الثاني من محرم من العام نفسه الموافق ٢٠ سبتمبر ١١٣٧م أي قبل الاستيلاء على بزاعة وبداية التهديد الحقيقي الموجه من قبل الحملة المتحالفة بحوالي سبعة شهور (٥١).

وعلاوة على ذلك لم ترغب إمارة دمشق أن تكون في موقف المتفرج على ما يحدث في بلاد الشام من أحداث، ولهذا نراها تُبادر بإرسال اعداد كبيرة من قواتها لمساعدة جيش زنكي، ويبدو أنه ضمن شروط المعاهدة التي عقدت بين زنكي ودمشق في شوال من العام السابق أي عام (٥٣١هـ/٢٢ يونيو ١١٣٧م) ما يفيد أنه على إمارة دمشق أن تساعد زنكي عسكريا في حالة الضرورة كتلك الحالة التي وُجهت من تلك الحملة المتحالفة، ولو قدر أن نجحت القوات المتحالفة في حملتها تلك لمثل ذلك دون شك تهديديا خطيرا لإمارة دمشق نفسها، وسيكون وضع قادة دمشق في حرج كبير لأنهم لن يفوا بعهودهم الدينية تجاه مساعدة إخوانهم المسلمين في شيزر المجاورين لهم، ولو أنهم لم يساعدوا زنكي فسيفقدوا مصداقيتهم بإدعائهم أنهم هم الحكام الشرعيين للإمارة (إمارة دمشق). حيث إنهم في هذه الحالة فشلوا في مساعدة جيرانهم في شيزر القريبة جدا منهم والتي تتاخم حدود إمارتهم على بعد أربعة وعشرين ميلاً فقط شمال غرب حمص،وهناك تفسيرآخر لمساعدة أهل دمشق لزنكي، فقد كان من المفترض أن ترسل دمشق مساعدتها بصورة مباشرة لأمير شيزر وليس لزنكي ، إلا أن حكام دمشق أرادوا أن يكسبوا وُدْ زنكي بالإضافة الى مساعدة جارتهم شيزر ضد الحملة الصليبية البيزنطية المتحالفة، وهذا بالتأكيد الذي حققته دمشق في الشهر التالي في رمضان عندما عرض زنكي عرضا كريما بالسلام مع شهاب الدين محمود وأتابكه الجديد أنر، ففي ١٧ رمضان ٥٣٢هـ/ الموافق ٣٠ مايو ١١٣٨م وبعد مفاوضات طويلة بين مبعوثي زنكي وشهاب الدين توصل الطرفان إلى إتفاقية وافق شهاب الدين فيها على تسليم حمص الى زنكي وتزويج شهاب الدين محمود من ابنة زنكي، وفي المقابل وافق زنكي على أن يعوض الأمير أنر- والي حمص- بثلاثة حصون هم بارين (مونتفراند)، الأكمة، والحصن الشرقي، كما وافق زنكي على ا لزواج من والدة الأمير شهاب الدين

صفوت الملك. وكما سبق ذكره استعاد زنكي في العام السابق في ذي القعدة ٥٣١هـ/ الموافق ٣ ابريل ١١٣٧م حصن بارين (مونتفراند) الذي يعد واحداً من أهم الحصون الإستراتيجية والحصنة تحصيناً كبيرا في بلاد الشام ويبدو أن الأمير أنر- الذي عُين فقط قبل شهر من هذه الاتفاقية كأتابك واسفهسلار لدمشق - اتبع سياسة جديدة في تعامله مع زنكي وذلك قبل عقد معاهدة السلام التي سبق ذكرها بين زنكي وشهاب الدين بشهر واحد فقط. وتهدف هذه السياسة باختصار الى كسب ود زنكي عن طريق التعامل معه بلباقة أكثر ولو لم ترغب دمشق في أن تقدم له أي تنازل جديد. واستغل أنر ذلك في محاولة منه في إقناع زنكي للعدول عن سياسته التي تهدف الى ضم جميع إمارة دمشق الى إمارته أو اعطاء زنكي لقادة دمشق فرصة على الأقل لحكم مدينة دمشق والمناطق المحيطة بها دون تدخل من قبله. ولا يتعبر تعيين الأمير أنر في وظائفه الجديدة حدث مفاجىء، وفي منتصف جمادى الأولى لهذا العام الموافق ٣٠ يناير ١١٣٨م فر الأمير بزواج هاربا في اتجاه إحدى المقاطعات الصليبية، بعد أن ساءت علاقته مع سيده شهاب الدين، ويرجع ابن القلانسي هذا الأمر لخيانة بزواج لعمله. ولم يزودنا ابن القلانسي - المؤرخ الوحيد الذي يذكر هذا الحدث - بأي تفاصيل عن الأسباب التي حدت ببزواج للتحالف مع المعتدين الصليبيين ضد سيده شهاب الدين. وأقام بزواج في تلك المقاطعة الصليبية لبعض الوقت، ثم عاد إلى ضواحي مدينة دمشق ومن المحتمل أن الصليبيين لم يزودوا بزواج بالمساعدة التي كان ينشدها، وبعد ذلك تقدم بزواج الى مدينة دمشق وعسكر هناك مع أتباعه. وبعد مفاوضات طويلة بين رسل بزواج وشهاب الدين وصلوا الى اتفاقية ولكن لم يمدنا ابن القلانسي للمرة الثانية بأي تفاصيل عنها. ويبدوأن شهاب الدين قد اضطر الى الموافقة على شروط بزواج جميعا بهدف انتهاز فرصة في المستقبل للتخلص من بزواج ذلك الديكتاتوري الذي اعتاد اتخاذ القرارات التي تؤثر على مصير الإمارة دون استشارة سيده شهاب الدين، وأتيحت هذه الفرصة عندما عاد بزواج الى مدينة دمشق بهدف استرداد منصبه كأتابك وإسفهسلار لدمشق، فتآمر الأمير شهاب الدين في السادس من شعبان الموافق ٢٠ ابريل ١١٣٨م مع مجموعة من أتباع ومقربي بزواج نفسه على

قتله عندما كان مقيما في قلعة دمشق، وقد أعدت الخطة اعدادا جيدا ونفذ حاشية بزواج الأرمن عملية الاغتيال. ويرجع ابن القلانسي السبب وراء اغتيال بزواج هو أن شهاب الدين كان يحمل ضده الحقد والضغينة بسبب حدث معين جعله يستنكر أعماله، أشعل ذلك قلب شهاب الدين بالكره والبغضاء تجاهه، وعلاوة على ذلك أُتهم بزواج بالتطاول على موارد الإمارة المالية وتبديدها دون وجه حق(٥٢) ويبدو أن شهاب الدين قد قرر آنذاك التصالح مع زنكي ولكنه لم يقدر على فعل ذلك دون موافقة أتابكه والإسفهسلار (بزواج). ونتيجة لرفض بزواج لشروط تلك المصالحة عزم شهاب الدين على التخلص من أتابكة بقتله، وبعد عشرة أيام من قتل بزواج خلع شهاب الدين على الأمير معين الدين أنر، وعينه أتابكه وإسفهسلار دمشق واضافة الي ذلك أعاد شهاب الدين منصب الحجابة للأمير أسد الدين أكز، ويبدو أن الأمير بزواج قد طرد الأمير أكز من منصبه كحاجب عندما كان مستبدا بأمور الإمارة. (٥٣)

ويبدو أن شهاب الدين كافأ كل من الأمير أنر والأمير أكز على الاضطهاد الذي عانياه من بزواج عندما كان مستبدا في السلطة في دمشق وعلاوة على ذلك أعطى شهاب الدين كل من أنر وأكز حرية التصرف في تدبير شؤون إمارته.

وفي ٢٣ شوال ٥٣٣هـ/ الموافق ٢٤ مايو ١١٣٩م، قُتل الأمير شهاب الدين محمود بن بوري وهو نائم في فراشه على يد ثلاثة من خدمه الخاص، ويدعى قائد هذه المؤامرة البغش الأرمني، والآخران هما يوسف الخادم، والخركاوي الفراش. ونجح البغش الأرمني في الفرار من مدينة دمشق بينما قبض على كل من يوسف الخادم والخركاوي وصلبا على بوابة الجابية بمدينة دمشق(٥٤). وهكذا قتل أمير آخر لدمشق بعد حكم امتد خمس سنوات، حاول فيها جاهدا إصلاح القوى المتصارعة داخل دمشق، كما قام بدور واضح في مواجهة وجهاد الغزاة الصليبيين. وحافظ على استقلال إمارة دمشق من التهديدات الخارجية كالتهديد الصليبي والبيزنطي وحتى الإسلامي ممثلا بتهديد زنكي صاحب حلب والموصل.

الهوامش

(١) ابن القلانسي (الصفحات ٢٤٦ ـ ٢٤٧)؛ شهاب الدين أبو شامة، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين** طبعة ام. ايه. أحمد القاهرة ١٩٥٦م، صفحة ٨٠.
(٢) ابن الأثير، **الكامل**، صفحة ٢٥٩.
(٣) جيب، صفحة ٢٤٣؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٤٧.
(٤) جيب، صفحة ١٧٧؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٤٧.
(٥) ابن القلانسي، صفحة ٢٤٧.
(٦) ابن القلانسي، صفحة ٢٤٨؛ ابن العديم، صفحة ٢٥٨؛ أسامة ابن منقذ، **«كتاب الاعتبار»** تحقيق فيليب حتى (مطبعة جامعة برنستون)، ١٩٣٠م، من صفحة ١٥٠ الى صفحة ١٥١.
(٧) ابن العديم، صفحة ٢٥٨.
(٨) عماد الدين خليل، **عماد الدين زنكي**، بيروت ١٩٧٢، صفحة ١٢٢.
(٩) ابن العديم، صفحة ٢٥٨؛ ابن الأثير، **الكامل**، صفحة ٣٤٦؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٤٨.
(١٠) الحافظ الذهبي **«العبر في خبر من غبر»** تحقيق صلاح الدين المنجد (الكويت ١٩٦٣م)، المجلد الثاني من صفحة ٤٣٣ حتى ٤٣٤؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٤٩ حتى صفحة ٢٥٠.
(١١) ابن القلانسي، صفحة ٢٤٨.
(١٢) ابن العديم؛ صفحة ٢٥٩؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٤٨.
(١٣) ابن العديم، صفحة ٢٥٧ الي صفحة ٢٥٨.
(١٤) ابن الأثير؛ **الكامل**، صفحة ٣٢٩ الي صفحة ٣٣٠.
(١٥) ابن العديم، صفحة ٢٥٩.
(١٦) المصدر السابق، صفحة ٢٥٩.
(١٧) المصدر السابق، صفحة ٢٥٩.
(١٨) ابن القلانسي، صفحة ٢٥٢.
(١٩) المصدر السابق، صفحة ٢٥٢.
(٢٠) المصدر السابق، صفحة ٢٥٢.
(٢١) المصدر السابق، صفحة ٢٥٢.
(٢٢) المصدر السابق، صفحة ٢٤٨.
(٢٣) المصدر السابق، صفحة ٢٤٥.
(٢٤) المصدر السابق، صفحة ٢٥٣.
(٢٥) المصدر السابق، صفحة ٢٥٣.
(٢٦) المصدر السابق صفحة ٢٥٣ ـ صفحة ٢٥٥.

(٢٧) شمس الدين محمود (شيخ الربوة)، كتاب **نخبة الدهر** ـ طبعة ام. مهرن، ص ٢٠٠
(٢٨) ابن القلانسي، صفحة ٢٥٧.
(٢٩) ابن القلانسي صفحة ٢٥٧؛ ابن العمراني صفحة ٢٢٢،
(٣٠) ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (المنتظم)، حيدر آباد ص؛ ابن العمراني صفحة ٢٢٢.
(٣١) ابن القلانسي، صفحة ٢٦١ الى صفحة ٢٦٢.
(٣٢) المصدر السابق ٢٤٢ ـ ٢٤٣.
(٣٣) شهاب الدين القلقشندي «**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**» طبعته محمد ابراهيم القاهرة ١٩١٣م، المجلد السادس صفحة ٤٤٩ ـ ٤٥١، وليم الصوري صفحة ٨٢ الى صفحة ٨٣.
(٣٤) عمر تدمري، **تاريخ طرابلس** صفحة ٤٩٩.
(٣٥) وليم الصوري، صفحة ٨٢ الى صفحة ٨٣.
(٣٦) ابن العديم، المجلد الثاني صفحة ٢٦١.
(٣٧) المؤرخ المجهول ترجمة ايه. اس. تريتون (**الحملة الصليبية الأولى والثانية**) من المؤرخ السرياني المجهول مع ملاحظات من أتش. أيه. أر. جب، دورية المجتمع الآسيوي الملكي، ١٩٣٣م، من صفحة ٢٧٥ الى صفحة ٢٧٦.
(٣٨) ابن الأثير، الكامل، المجلد التاسع صفحة ٣٥٧ ـ صفحة ٣٥٨؛ وليم الصوري صفحة ٨٨ ـ صفحة ٨٩؛ المؤرخ السرياني المجهول، صفحة ٢٧٤.
(٣٩) ابن الأثير ـ **الأتابكة**، صفحة ٦١.
(٤) المصدر السابق، صفحة ٦٢.
(٤١) وليم الصوري، صفحة ٨٣ ـ ٨٤.
(٤٢) ابن العديم، صفحة ٤٢٢، الى صفحة ٤٢٢.
(٤٣) ابن القلانسي، صفحة ٢٦٣.
(٤٤) المصدر السابق، صفحة ٢٦٣.
(٤٥) ابن العديم، صفحة ٢٦٤ ـ صفحة ٢٦٥؛ ابن القلانسي صفحة ٢٦٣ وصفحة ٢٦٤.
(٤٦) ابن الأثير. الكامل، صفحة ٢٥٩ الي صفحة ٢٦٠؛ ابن القلانسي صفحة ٢٦٥.
(٤٧) ابن القلانسي صفحة ٢٦٥ ـ صفحة ٢٦٦؛ اسامة ابن منقذ، «**كتاب الاعتبار**» تحقيق فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون ١٩٣٠م، ص ٢ ـ ٣.
(٤٨) ابن القلانسي، صفحة ٢٦٦.
(٤٩) وليم الصوري، صفحة ٩٦.
(٥٠) ابن الأثير، **الكامل**؛ صفحة ٣٦٠.
(٥١) ابن القلانسي؛ صفحة ٢٦٣ ـ ٢٦٤؛ وليم الصوري، صفحة ٩٥٩؛ المؤرخ السرياني المجهول صفحة ٧٩.
(٥٢) ابن القلانسي صفحة ٢٦٢، من صفحة ٢٦٦ الى صفحة ٢٦٧.
(٥٣) المصدر السابق، صفحة ٢٦٤.
(٥٤) ابن القلانسي، من صفحة ٢٦٨ الى صفحة ٢٦٩؛ الذهبي، صفحة ٩٢.

الفصل السادس

عهد جمال الدين محمد بن تاج الملوك بُوري
(٢٣ شوال، ٥٣٣هـ - ٨ شعبان ٥٣٤هـ)
(٢٤ مايو ١١٣٩م - ١٠ أبريل ١١٤٠م)

كادت جريمة الاغتيال الثانية لأحد أمراء دمشق الذي ذهب ضحيتها هذه المرة الأمير شهاب الدين محمود أن تشغل الإمارة بمشاكل عديدة وجديدة، وبعد اغتيال شهاب الدين محمود - في تلك الظروف العصيبة - رحب زنكي بالمشاكل الجديدة التي واجهتها إمارة دمشق كفرصة للتدخل في شؤون الإمارة الداخلية. واتهمت صفوت الملك (والدة شهاب الدين) الأمير جمال الدين محمد بن بوري - والأخ غير شقيق لشهاب الدين وكذلك الأمير أنر بالاشتراك في جريمة قتل ابنها شهاب الدين. (١) ودعم هذا الاتهام تلك الحقيقة المتمثلة في تسليم الأتابك أنر الأمير جمال الدين محمد بن بوري (والي بعلبك) خطاباً يدعوه ليتولى السلطة في الإمارة وذلك بعد اغتيال شهاب الدين محمود. (٢) وعلاوة على ذلك كافأ الأمير جمال الدين الأمير أنر بإعطائه بعلبك كإقطاعية كما احتفظ الأمير أنر بمنصبه كإسفهسلار لجيش دمشق بالإضافة إلى منصب الأتابكية كما كان سابقا كأتابك للأمير السابق شهاب الدين . (٣) وتزوج الأمير أنر فيما بعد بوالدة الأمير جمال الدين وذلك بعد اغتيال شهاب الدين وبناء عليه أصبح أنر الأتابك الفعلي للأمير جمال الدين محمد (٤).

ولم تذكر أي مصادر تاريخية في ذلك الوقت عن اسم والدة الأمير جمال الدين محمد. وكما هو مذكور في الفصل الخامس، تزوج زنكي والدة شهاب الدين (صفوت الملك) في ١٧ رمضان ٥٣٢هـ الموافق ٣٠ مايو ١١٣٨م بهدف الحصول على قوة حقيقية في دمشق ولكنه لم يستطع المحافظة على منصب أتابكية دمشق لأن معين الدين أنر قد حصل على الأتابكية قبل زواج زنكي من صفوت الملك بشهر واحد (٥). ويبدو أنه بقتل الأمير شهاب الدين ضعف نفوذ زنكي في دمشق لأنه لم يعد زوج صفوة الملك صاحبة النفوذ على أمير دمشق السابق. ومن الصعوبة تحديد المؤهلات الصحيحة المطلوبة لتعيين أتابك ذلك الحين، فكان يشترط سابقا أن يكون الأتابك زوج لأم الأمير.

ويبدو أن الأمير أنر هو الأتابك الثاني الفعلي في مدينة دمشق. وكما ذكر في الفصل الثاني في (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) أصبح الأمير طغتكين الأتابك الأول الحقيقي عندما تزوج من والدة الملك دُقّاق التي تدعي كذلك صفوت الملك (٦). ومن دون شك أن إحياء رتبة الأتابكية في دمشق في عهد جمال الدين محمد برهنت على عدم كفاءة الأمير جمال الدين في حكم دمشق بمفرده. و بحصوله على وظيفة الأتابك الفعلي لإمارة دمشق أعاد أنر تعزيز وضعه كأمير غير رسمي في إمارة دمشق، وقد تولى (الأتابكية) منذ شهر شعبان ٥٣٢هـ/ ١٥ ابريل ١١٣٨م.

ولم تذكر المصادر التاريخية لذلك الوقت اذا كان لدى الأمير شهاب الدين المقتول أبناء أم لا، وفي الواقع إن كان لدى الأمير أبناء بالفعل فلم ينوه عنهم ولم يطلب من أحد من هؤلاء الأبناء أن يخلف والده كأمير لدمشق، ويبدو حينئذ أنه لو كان لدى شهاب الدين ورثة بالفعل فسوف يكونون صغار السن لدرجة أنهم لا يستطيعون أن يخلفوا والدهم، ولن يكون لديهم أية سلطة على الأمور العامة. وبناء عليه، يبدو أنه في ذلك الوقت لم يجرؤ أحد على تحدي إرادة أنر، ولم يشر أي مصدر تاريخي عما اذا كان قد طلب من الأخ الأصغر للأمير شهاب الدين (الأمير بهرام) أن يرث عرش أخيه شهاب الدين محمود أو اذا كان بهرام مازال بالفعل على قيد الحياة في ذلك الوقت. وقد أكد ابن عساكر ـ المؤرخ المعاصر لإمارة دمشق ـ أنه لم يتنازع أي شخص في إمارة دمشق بخصوص خلافة شهاب الدين، وقد وافق جميع القادة والوجهاء والأعيان في دمشق أن يرث جمال الدين العرش من أخيه غير الشقيق شهاب الدين (٧). واتهمت صفوت الملك ـ كما هو مشار إليه سابقا ـ الأمير جمال الدين والأمير أنر بقتل ابنها شهاب الدين، فناشدت زوجها زنكي بالانتقام من كليهما (٨). فوافق زنكي الذي كان شغوفا لضم مدينة دمشق لممتلكاته على هذه المناشدة بهدف التدخل في شؤون دمشق خاصة وأن هذا الطلب قد جاء هذه المرة من قبل والدة الأمير السابق لدمشق والتي كانت زوجة زنكي أيضا. ويبدو منطقيا أن الأمير زنكي يتقدم لمدينة دمشق ليفرض الحصار عليها ولينتقم من جمال الدين وأتابكه الأمير أنر اللذين كانا يقيمان هناك. وعندما وصلت أخبار تقدم زنكي

من الموصل تجاه بلاد الشام بذل أهل دمشق قصارى جهدهم لتحصين المدينة وتزويدها بكل ما يلزمها لتقاوم التهديد المفروض عليهم من زنكي، ومن ناحية ثانية تجنب زنكي التوجه نحو دمشق واتجه ناحية بعلبك، ويبدو أن زنكي قد تقدم إلى بعلبك لكي ينتقم من أنر الذي كان واليا لبعلبك كما هو مذكور أعلاه (٩). وطبقا لرواية ابن الأثير كانت أحب جواري أنر اليه في دمشق، ولكن عندما تزوج أنر من والدة جمال الدين بعث بجاريته تلك إلى بعلبك، وعندما أُخبر زنكي عن هذه الجارية، أرسل العديد من الخطابات الى أنر يطلب منه تسليم مدينة دمشق له، وسوف يقدم زنكي للأمير أنر التعويض الذي يرغب به مقابل تسليم مدينة دمشق، وعندما رفض أنر ذلك الاقتراح، شرع زنكي في محاولة إهانة الأمير أنر عن طريق السيطرة على بعلبك ووضع تلك الجارية الأثيرة لأنر في الأسر (١٠).

ونزل زنكي مع جيشه الكبير على بعلبك في ٢٠ ذي الحجة ٥٣٣هـ الموافق السابع عشر من اغسطس ١١٣٩م، وفرض الحصار على المدينة، وأعد أربعة عشر منجنيقاً لقذف المدينة ليلاً ونهاراً (١١). ولما أدرك التركمان المدافعون عن المدينة - والذين يقدرون بسبعين رجلاً - عدم قدرتهم على حماية المدينة من زنكي لجأوا الى السلام، ووافق زنكي على نداءاتهم تلك، ولكنه تآمر ضدهم وقتل كافة هؤلاء الحراس وأسر العديد من الأهالي بما فيهم جارية أنر تلك، ويبدو أن زنكي استحوذ على هذه الجارية ليستخدمها كوسيلة ضغط على أنر ليسلم مدينة دمشق له (١٢).

ويشير ابن الأثير الى أن العامل الوحيد الذي سيساعد مستقبلا في الوقت المناسب على تحسن العلاقات بين الأمير أنر والأمير نور الدين محمود بن زنكي هو إرجاع نور الدين هذه الجارية(١٣). وقد اتضح فيما بعد كيف كان أسر هذه الجارية عاملا مهما في تأزم العلاقة بين زنكي وأنر. ويذكرنا غدر زنكي هذا بمدافعي مدينة بعلبك بتآمره قديما ضد سونج وقواته في (٥٢٤هـ - ١١٣٠م) عندما أرسل أمير دمشق تاج الملوك بوري ابنه سونج ليجاهد بجانب زنكي ضد الصليبيين (١٤). وعلاوة على ذلك اكتشف أهل دمشق أن زنكي لم يعد الرجل الذي يفي بعهوده وتأكدوا الآن أنهم لو استسلموا لزنكي، لفعل بهم كما فعل بمدافعي بعلبك من قبل، وسوف

يكون مصيرهم الذبح؛ ولهذا السبب ناضلوا لحماية المدينة واستعدوا لمناشدة أي نجدة ولو من أعدائهم الصليبيين (١٥). وبعد أن استولى زنكي على بعلبك قضى ثلاثة أشهر في إعادة إعمار أجزاء المدينة التي قد تهدمت بفعل منجنيقاته المدمرة.

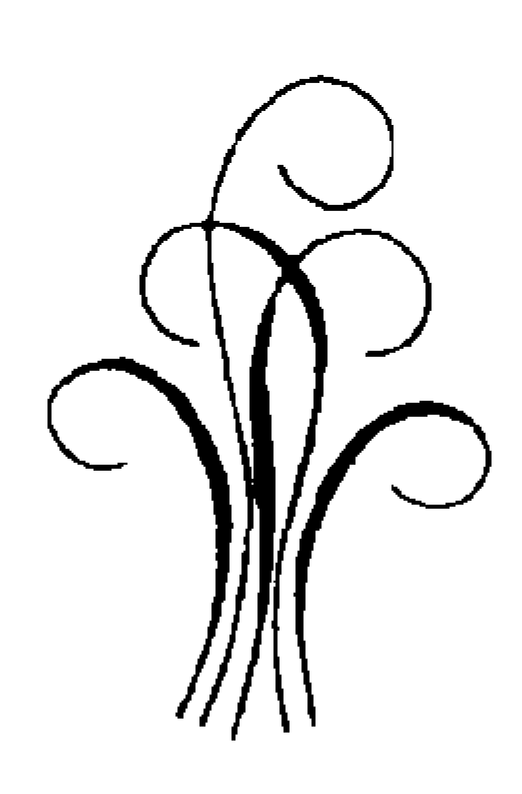
وباشر زنكي في ربيع أول ٥٣٤هـ/ ٢٨ اكتوبر ١١٣٩م مرحلة جديدة في مساعيه للاستيلاء على مدينة دمشق (١٦). فهبط بقواته الى سهل البقاع، وأرسل رسله الى الأمير جمال الدين يطلب منه تسليم المدينة. وفي المقابل عرض عليه منحه أي تعويض يرغب به، وعندما لم يستجب جمال الدين لعرض زنكي، زحف زنكي بقواته في ١٣ ربيع الثاني ٥٣٤هـ/ الموافق ٨ نوفمبر ١١٣٩م تجا ه داريا ـ وهي بلدة كبيرة تقع على بعد خمسة أميال جنوب غرب مدينة دمشق، وعسكر هناك، وعندما وصل داريا تقدم زنكي بقواته وهاجم طليعة جيش دمشق وهزمهم، وفر من نجا منهم الى مدينة دمشق تاركين زملاءهم ما بين أسير وقتيل لقوات زنكي. وعندئذ وبعد مضي خمسة أيام وفي ١٨ من ربيع الآخر ٥٣٤هـ الموافق ١٨ نوفمبر ١١٣٩م، شن زنكي غارة على جنوب مدينة دمشق في منطقة تدعى المصلى، الواقعة على بعد أميال من جنوب المدينة، ونجح في هزيمة مفرزة من جماعة أحداث دمشق والغوطة، وكادت المدينة أن تسقط بيد قوات زنكي.

وطبقا لرواية ابن القلانسي كان زنكي يرغب في الاستيلاء على دمشق بطرق سلمية ليتجنب سفك الدماء، ولذلك عاد مع الأ سرى الى معسكره في داريا، ويذكر ابن القلانسي أن زنكي اقترح على جمال الدين أن يمنحه حمص، وبعلبك ومدن أخرى يختارها كتعويض عن مدينة دمشق (١٧) ومن ناحية أخرى، ذكر ابن الأثير أن أحد قواد زنكي يُدعى كمال الدين ابو الفضل الشهرزوري أوصى زنكي بتعجيل الهجوم على المدينة، وأكد له أنه قد تواعد مع قواد جماعة أحداث دمشق ليفتحوا بوابات المدينة حال شن زنكي هجومه على المدينة، وأضاف ابن الأثير قائلا أن زنكي رفض الاقتراح نتيجة خوفه من ضيق شوارع المدينة والتي تمنع جيشه الكبير من حرية القيام بالمناورة (١٨).

وطبقا لرواية ابن القلانسي أخذ جمال الدين يفكر في عرض زنكي بجدية

وبالرغم من رغبته في تسليم المدينة لزنكي إلا أنه كان غير قادر على فعل ذلك (١٩). ويبدو أن جمال الدين لم يكن في وضع يجرؤ فيه على تحدي إرادة أتابكة أنر، كما يظهر أن العامل الرئيس في قرار جمال الدين بعدم التعاون مع زنكي إصابته بمرض الموت بعد أيام قليلة من تلقيه لعرض زنكي في أوائل جمادى الأولى ٥٣٤هـ/ الموافق ٢٤ ديسمبر ١١٣٩م. واستمر مرض جمال الدين أربعة أشهر وبعدها تُوفي في ٨ شعبان لنفس العام الموافق /١٠ أبريل ١١٤٠م، بينما كانت قوات زنكي مازالت في معسكر داريا. وقد كانت ولاية جمال الدين لدمشق لمدة أقصرمن أي مدة حاكم آخر في عائلة طغتكين، فقد تولى حكم دمشق لمدة عشرة شهور فقط من ٢٣ شوال ٥٣٣هـ/٢٤ مايو ١١٣٩م حتى شعبان ٥٣٤هـ الموافق ١٠ ابريل ١١٤٠م (٢٠).

وهكذا توفي أمير دمشق جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري الذي استبد أتابكه أنر بتدبير أمور إمارته، وتوفي جمال الدين ولازال تهديد زنكي ماثلا أمامها. وخلفه بعد وفاته ابنه عضب الدولة ابو سعيد أبق في حكم الإمارة، والذي سيُلقب بعد توليه إمارة دمشق بلقب جديد وهو مجير الدين.



الهوامش

١ ـ ابن القلانسي، صفحة ٢٦٩؛ عبد الرحمن بن خلدون **«العبر وديوان المبتدأ والخبر»**، المجلد الخامس (بيروت ١٩٦١م)، صفحة ٥٢٤.
٢ ـ ابن القلانسي صفحة ٢٦٩.
٣ ـ نفس المصدر السابق، صفحة ٢٦٩.
٤ ـ ابن الأثير، **الكامل**، صفحة ٣١٤.
٥ ـ ابن القلانسي، صفحة ٢٦٤ ـ الى ٢٦٦.
٦ ـ نفس المصدر السابق، صفحة ١٣١.
٧ ـ صلاح الدين المنجد **«ولاة دمشق في عهد السلاجقة»** نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق الكبير للحافظ ابن عساكر الطبعة الثانية (بيروت ١٩٦٧م)، صفحة ٢٣.
٨ ـ ابن الأثير، **الكامل**، صفحة ٣٦٤؛ ابن القلانسي ٢٦٩، ابن خلدون صفحة ٥٢٤.
٩ ـ ابن الأثير، **الكامل**، صفحة ٣٦٤؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٦٩.
١٠ ـ ابن الأثير، **الكامل**، صفحة ٣٦٤؛ ابن خلدون، صفحة ٥٢٤، المؤرخ السرياني المجهول، **(الحملات الصليبية الأولى والثانية)** ترجمة ايه. اس. ترتيون مع تعليقات من قبل، اتش. ايه. آر جيب **جريدة المجتمع الآسيوي الملكية** ١٩٣٣م، صفحة ٢٧٣ الى صفحة ٢٧٤.
١١ ـ ابن الأثير، **الكامل**، صفحة ٣٦٤ الى ٣٦٥.
١٢ ـ ابن الأثير، **الكامل**، صفحة ٣٦٥؛ ابن القلانسي، صفحة ٢٦٩ ـ ٢٧٠.
١٣ ـ ابن الأثير **الكامل**، صفحة ٣٦٥؛ ابن خلدون، صفحة ٥٢٥.
١٤ ـ ابن القلانسي، صفحة٢٢٧ ـ ٢٢٨.
١٥ ـ نفس المصدر السابق، صفحة ٢٧٠.
١٦ ـ ابن الأثير، **الكامل**، صفحة ٣٦٧.
١٧ ـ ابن القلانسي، صفحة ٢٧٢؛ الذهبي صفحة ٩٣؛ أسامة ابن منقذ **«كتاب الاعتبار»**، صفحة ١٢، ابن خلدون، صفحة ٥٢٥.
١٨ ـ ابن الأثير، **الأتابكة**؛ صفحة ٥٨ ـ صفحة ٥٩.
١٩ ـ ابن القلانسي، صفحة ٢٧١؛ ابن خلدون، صفحة ٥٢٥.
٢٠ ـ ابن القلانسي، صفحة ٢٧١؛ ابن كثير، صفحة ٢١٦.

الفصل السابع

عهد مُجير الدين أبوسعيد أَبَقْ بن جمال الدين محمد
(٥٣٤هـ - ٥٤٩هـ) / (١١٤٠م - ١١٥٤م)

بعد وفاة جمال الدين محمد في ٨ شعبان ٥٣٤هـ الموافق ١٠ ابريل ١١٤٠م، وافق كل من قادة ووجهاء دمشق بالإجماع على اختيار الابن الأكبر (عَضْب الدولة أبو سعيد أَبَقْ) الذي عرف أخيرا بمجير الدين كخليفة لوالده. وطبقا لرواية ابن القلانسي فقد أبدى كافة قوات دمشق استعدادهم لطاعة الأمير الجديد(١) ووافقوا كذلك على طاعة الأتابك أنر الحاكم غير الرسمي لدمشق والنائب الفعلي لأبق في دمشق، وكما هو مذكور في الفصل السادس، فلم يكن هناك أحد في دمشق يجرؤ على تحدي إرادة أنر.

واستأنف زنكي كعادته عند إمتلاك زعيم جديد الحكم في إمارة دمشق نشاطه المعتاد للاستيلاء على مدينة دمشق، حيث شن زنكي هجوماً على المدينة معتقدا أن هناك انقساما بين قادة دمشق بعد اغتيال الأمير جمال الدين محمد سيعرقل جهودهم في حماية مدينتهم من أطماعه. ولكن قادة ووجهاء دمشق استمروا في توحيد جهودهم بهدف إحباط خطط زنكي تلك، وبعد مرور فترة قصيرة من اعتلاء مجير الدين العرش، هاجم زنكي دمشق ولكن نجح أهل دمشق وبمساعدة رئيسه من جماعة الأحداث في إحباط محاولات زنكي في الاستيلاء على المدينة بهجومه ذاك المفاجيء وأرغم زنكي على الانسحاب نحو معسكره في داريا الواقعة على بعد خمسة أميال جنوب غرب مدينة دمشق(٢). وعندما اقتنع أنر بعزم زنكي على عدم رفع الحصار عن المدينة إلى أن تستسلم أو يستولي عليها بالقوة، ناشد أنر المساعدة من صليبيي بيت المقدس ـ الذين سبق أن ساعدوا طغتكين أمير دمشق من قبل منذ أربع وعشرين عاما في ٥٠٩هـ / ٢٧ مايو ١١١٥م ضد حملة السلطان محمد السلجوقي ـ لمساعدته لإجبار زنكي على الانسحاب من المدينة(٣). وتعهد أنر بدوره بدفع عشرين ألف دينار ذهبا للصليبيين شهريا إلى أن يرفع زنكي حصاره عن المدينة، كما تعاهد للصليبيين بتقديم المساعدة للاستيلاء على مدينة بانياس ثم تسليم هذه المدينة للصليبيين كمكافأة على مساعدتهم تلك.

ولكي يؤكد تمسكه بهذه الشروط، اعطى أنر الصليبيين بعض أقارب قادة دمشق كرهائن حتى يطمئنهم على إتمام الوفاء بهذه العهود(٤). ويبدو أن الصليبيين مازالوا يتذكروا تحالفهم مع طغتكين ـ أمير دمشق ـ وآيل غازي ـ صاحب ماردين ـ مع قوادهم السابقين في (٥٠٩هـ / ١١١٥م) ضد السلطان محمد السلجوقي ،وكيف لم يقم طغتكين وآيل غازي بدورهما المرتقب لتحمل مسؤولية مقاومة تلك الحملة آنذاك. وعلاوة على ذلك لم يستفد الصليبيون من هذا التحالف ولكن حقق طغتكين وآيل غازي مآربهم من هذا التحالف كما هو مذكور في الفصل الثاني. ويؤكد وليم الصوري ان هناك سببان دفعا ملك بيت المقدس الصليبي (فولك) لقبول هذا التحالف الجديد مع إمارة دمشق. الاول: وهو خوف الصليبيين من سقوط دمشق في يد زنكي والذي سوف تزداد قوته نتيجة لذلك مما يزيد من خطورة تهديده لاماراتهم. والسبب الثاني هو احتلال بانياس وضمها للصليبيين التي كانت آنذاك من أعظم المدن الاستراتيجية المحصنة في بلاد الشام(٥).

وعندما وافق صليبيو بيت المقدس على هذا التحالف، استلموا الرهائن كما هو مذكور سابقا. وأسرع (فولك) بارسال عدد هائل من الفرسان والمشاة للاحتشاد قرب مدينة طبرية بهدف إنقاذ دمشق من زنكي الذي عسكر في رأس الماء في إقليم حوران على بعد خمسة وعشرين ميلا شمال مدينة صرخد لو تحرك من داريا.

واخفق زحف الصليبيين إلى طبرية، خطة زنكي التي تستهدف الاستيلاء على دمشق وتقدم جيش دمشق برئاسة (أنر) من المدينة في انتظار الصليبيين في قرية نوى، في اقليم حوران الواقعة على بعد عشرين ميلا شمال مدينة أذرعات (درعا الحديثة) وعندما علم (زنكي) باحتشاد قوات دمشق وصليبيي بيت المقدس، تراجع (زنكي) بسرعة من رأس الماء التي تقع على بعد خمسة وثلاثين ميلا جنوب شرق دمشق في اتجاه سهل البقاع، وكان انسحاب زنكي نتيجة لعدم قدرته على مواجهة كل من عسكر دمشق والصليبيين في آن واحد(٦).

وبعد تأكد الحلفاء من انسحاب قوات زنكي من أراضي دمشق، وافقوا بالإجماع على تنفيذ الخطوة الثانية في اتفاقيتهم فيما يتعلق باستعادة بانياس من زنكي

وتسليمها لمملكة بيت المقدس. وكما هو مذكور في الفصل الرابع، كان الامير شمس الملوك إسماعيل قد استولى على بانياس من صليبيي بيت المقدس في صفر ٥٢٧هـ / ١١ ديسمبر ١١٣٢م، وكما هو مذكور في أوائل الفصل الخامس، فقد تآمر والي بانياس ابراهيم بن طرغت مع زنكي على سيده الأمير شهاب الدين محمود في ٥٣١هـ الموافق ٢٩ سبتمبر ١١٣٦م وأصبح تحت سيطرة زنكي(٧). وطبقا لرواية وليم الصوري فإنه نتيجة لخيانة ابن طرغت والي بانياس، فضل أهل دمشق احتلال بانياس وتسليمها لصليبيي بيت المقدس عن احتفاظ زنكي - الذي يخشونه ولا يثقون فيه - بهذه المدينة، ويؤكد وليم الصوري ان اهل دمشق اعتبروا تهديد زنكي أكثر خطورة من تهديد كافة أعدائهم بما فيهم صليبيو الشرق.

فحاصر الدمشقيون وصليبيو بيت المقدس في شوال ٥٣٤هـ الموافق ٢ مايو ١١٤٠م بانياس بإحكام ومنعوا وصول أي مساعدة للمدينة وأحاط جنود دمشق بالمدينة من ناحية الشرق واعترضت قوات الملك فولك سبيل الجانب الغربي، ووافق الأمير أنر والملك فولك - قبل الحصار - على طلب المساعدة من الأمير ريموند أمير انطاكية وكونت ريموند الثاني صاحب طرابلس(٨). وفيما يتعلق بشأن الحصار نفسه فقد زودنا وليم الصوري - المؤرخ الوحيد لهذا العصر الذي ذكر تفصيلات هذه الحملة - فكتب يقول: «ومع شدة قصف المنجنيقات التي كانت تلقي بأحجار ضخمة ذات أوزان هائلة هزت الحوائط ودمرت المباني في داخل المدينة نفسها»، ويستمر وليم الصوري قائلا: «وبالرغم من ذلك فقد احتمى المدافعون بالحوائط والأسوار وبصعوبة كبيرة غامروا في النظر إلى المهاجمين في الخارج» (٩). وعلى أية حال، لم تضعف الغارات المستمرة دون انقطاع على المدينة المقاومة النشطة لأهالي مدينة بانياس، وبدا واضحا أن الحلفاء لن يستطيعوا احتلال المدينة حتى شيدوا برج حصار خشبي، وقد زودت دمشق الصليبيين بمعدات لصنع ذلك البرج. وتفاقمت الصعوبات التي واجهت المدافعين عن المدينة وذلك بوصول قوات صليبية هائلة جديدة برئاسة الأمير ريموند حاكم أنطاكية والكونت ريموند الثاني صاحب طرابلس، ولم تسفر محاولات زنكي لتزويد بانياس بالنجدة المطلوبة عن نتيجة لشدة حصار

القوات المتحالفة لها(١٠). وعندما رأى أنر تدني مقاومة مدافعي المدينة، أرسل برسالة في سرية تامة إلى أهالي مدينة بانياس يستحثهم على تسليم المدينة.

ورفض قادة بانياس في البداية هذا العرض اعتقادا منهم أن معاونة زنكي ستساعدهم في الصمود أمام ذلك الحصار الطويل. ولكن عندما اكتشفوا أن نجدة زنكي لا تستطيع الوصول إليهم لانقاذهم وافقوا على تسليم المدينة بشرط أن يعوض حاكم بانياس بإقطاعية أخرى وأن يدفع لهم أيضا جزءا من الدخل الاجمالي للمدينة سنويا، كما اشترطوا أن يعطوا كافة مواطني بانياس حق المغادرة مصطحبين كافة بضائعهم وماشيتهم بالاضافة الى السماح لمن يرغب منهم في البقاء في المدينة أو في الريف المجاور حق الاحتفاظ بمنازلهم(١١). وقام أنر بإبلاغ الملك فولك عن تلك الترتيبات التي قد تم الاتفاق عليها بينه وبين والي وقادة بانياس. وطبقا لرواية وليم الصوري أمد أنر قادة الصليبيين بتقرير أُعد إعدادا جيدا فيما يتعلق بتلك المفاوضات التي جرت بينهم، وأخذ يحثهم بكل ما أوتي من بلاغه لإقناعهم بالموافقة على هذه المعاهدة، فوافق قادة الصليبيين بالإجماع على اتفاقية أنر(١٢). وفي ٢٤ شوال ٥٣٤هـ الموافق ١٣ يونيو ١١٤٠م، رحل جميع أهالي بانياس من مدينتهم مع كل ممتلكاتهم كما قد تم الاتفاق عليه في تلك المعاهدة. وعوض والي بانياس بإقطاع وتم تسليم بانياس لصليبيي بيت المقدس، طبقا لما تم الاتفاق عليه مع الأمير أنر. واستمر حصار مدينة بانياس حوالي اثنين وعشرين يوما فقط، ودفع أنر لصليبيي بيت المقدس عشرون ألف دينار ذهبا فقط. وقد وفر نجاح أنر في اعداد تلك الاتفاقية في وقت قصير مبلغاً كبيراً من المال لخزينة إمارة دمشق(١٣).

واتسم عام ٥٣٥هـ/ ١٧ أغسطس ١١٤٠م بهدوء نسبي مقارنة بالعام السابق أي عام ٥٣٤هـ / ٢٨ أغسطس ١١٣٩م حيث كان عام نزاع بين المسلمين بما فيهم أهل دمشق والصليبيين المقيمين في المشرق، والخلاف الشديد الوحيد بين المسلمين والصليبيين في ذلك الوقت كان بين أهالي عسقلان وصليبيي بيت المقدس، وطبقا لرواية ابن القلانسي أَحبط أهالي عسقلان تلك السنة محاولة للصليبيين للاستيلاء على عسقلان، وقتلوا مجموعة من الصليبيين وأجبروا الآخرين على الفرار(١٤).

ويمكن أن يقال نفس الشيء عن عام ٥٣٦هـ / ٨ أغسطس ١١٤٠م وأهم شيء يمكن ذكره هو تمكن لُجّة التركي - أحد قادة زنكي الذي هاجر من دمشق لخدمة زنكي - من هزيمة صليبيي أنطاكية في منازلة كبيرة وقتل حوالي سبعمائة صليبي(١٥).

وبينما اتسم عام ٥٣٧هـ / ٢٧ يوليو ١١٤٢م بالهدوء في دمشق، انشغل زنكي ذلك العام في توطيد سلطته في المقاطعات الكردية بالاستيلاء على أحد الحصون المحصنة هناك ويدعى باسم «أشب» أعظم حصن للأكراد الهكارية. كما انشغل سوار نائب زنكي في حلب في منع صليبيي أنطاكية من إحتلال بزاعة، وعلى اية حال، لم يكن هناك أي صراع بين زنكي وإمارة دمشق في ذلك العام(١٦).

وبالرغم من انشغال زنكي في عام ٥٣٨هـ / ١٦ يوليو ١١٤٢م في توطيد حكمه في ديار بكر خاصة وإخضاعه للأمير يعقوب بن السبع الأحمر الذي تمرد على سلطته هناك لم تتمتع إمارة دمشق بعام هادىء(١٧). فقد كان للخلافات الداخلية داخل دمشق دور مهم أثناء ذلك العام.

في شهر ١٧ شعبان ٥٣٢هـ الموافق الاول من مايو ١١٣٨م، أصبح الامير أنر وحاجبه أكز الحاكمين غير الرسميين في دمشق، وقد حصل أنر على أهم منصبين في دمشق وهما الأتابكية والاسفهسلارية، وفي أثناء ذلك نجح الحاجب أكز في الفوز بالعديد من المؤيدين، وبدأ في تحدي أنر، فقرر أنر التخلص من أكز واتباعه، وعالج هذه المشكلة بطرق غير التي استخدمت بصورة تقليدية عند أمراء دمشق الذين اعتادوا التخلص من منافسيهم عن طريق قتلهم. فقد اتخذ أنر طريقة أخرى وذلك بإلقاء خصومه في السجن وسمل أعينهم، ففي الثالث من جمادى الاولى ٥٣٨هـ/ الموافق ١٣ نوفمبر ١١٤٣م، قبض الأمير أنر على الحاجب أكز وسمل عينيه، وعندما علم أتباع أكز بما فعله أنر بقائدهم هجروا قائدهم ذاك(١٨).

واشتد الصراع الداخلي في ٥٣٩هـ / ١٤ يوليو ١١٤٢م أسوأ مما كان عليه في العام الذي قبله، واندلع الصراع هذه المرة بين مؤيد الدين أبي الفوارس المسيب ابن

الصوفي رئيس دمشق من جانب وأبي المكارم - وزير الامير مجير الدين حاكم دمشق - والأمير أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ مساعد الوزير من جانب آخر. وبدأت المنافسة عندما شوه كل من أبي المكارم وأسامة بن منقذ سمعة مؤيد الدين بن الصوفي عند الأمير أنر. وطبقا لرواية ابن القلانسي تدخل أبو المكارم وأسامة في عمل ابن الصوفي رئيس دمشق.

ففر ابن الصوفي في ٢١ محرم ٥٣٩هـ / الموافق ٢٥ يوليو١١٤٤م، إلى كمشتكين الأتابكي - حاكم صرخد والأتابك السابق للأمير شهاب الدين محمود واسفهسلار دمشق - وذلك للمرة الثانية، فقد كان كمشتكين حليفا سابقا لابن الصوفي، ففي ٥٣١هـ / ٢٩ سبتمبر ١١٢٦م فر ابن الصوفي إلى كمشتكين حاكم صرخد بعد اغتيال قريبه رئيس دمشق محيي الدين أبي الذؤاد المفرج بن حسان بن الصوفي الرئيس السابق لدمشق في ١٧ رمضان ٥٣٠هـ / ٢١ يونيو ١١٣٦ م. ويبدو أن الأمير أنر أدرك أن هناك مكيدة ضد مؤيد الدين قد خطط لها من قبل كل من أبي المكارم وأسامة بن منقذ، وبناء عليه، قرر نفيهما إلى مصر والسماح لابن الصوفي بالعودة إلى مدينة دمشق كرئيس لها. وفي ١٣ جمادى الاولى ٥٣٩هـ الموافق ٣٠ نوفمبر ١١٤م احتفلت مدينة دمشق برحيل أبي المكارم وأسامة ابن منقذ عنها وعودة رئيسها ابن الصوفي لها، معترفة بفضل حكمة أنر في معالجة هذه المشكلة(١٩).

واسترد زنكي في جمادى الآخر ٥٣٩هـ / ٢٣ ديسمبر ١١٤٤م مدينة الرُها للمسلمين، وتفاصيل استيلاء زنكي على هذه المدينة الهامة ليست وثيقة الصلة بموضوع هذا البحث، ولكن سننوه بأهمية ذلك الحدث وآثاره على دمشق. ويعد هذا النصر العظيم أهم انجاز للمسلمين ضد الصليبيين منذ بداية الحملات الصليبية في ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م، فقد أرسل كل من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي تهانيهما لزنكي، كما احتفل المسلمون في كل أرجاء العالم الإسلامي بهذا الانتصار العظيم(٢٠) ولا يوجد أي ريب في أن هذا الإنجاز سوف يستخدم لتدعيم مطالبة زنكي في أن يصبح القائد المسلم الأول في بلاد الشام وحامي جميع المسلمين في هذه المنطقة بما فيهم أهل دمشق. وبناء عليه سوف يُقوي هذا النصر أي تبرير يحتاج

إليه في ضم دمشق لمملكته النامية. وبعد سقوط الرها تعاظمت التحديات ضد مملكة زنكي.

فبعد أن استرد المسلمون الرها، ناشد صليبيو الشرق المساعدة من أوروبا الغربية «اللاتينية»، وسوف نرى أن الهدف الرئيس من الحملة الصليبية الثانية التي ستستمر من ٥٤٣هـ / ٢٢ مايو ١١٤٨م حتى ١٠ مايو ١١٤٩م هو الاستيلاء على مدينة دمشق وليس العمل على استرداد مدينة الرها والتي كان يفترض أن تكون هدفهم الرئيس(٢١).

وبعد حوالي عام من انتصار الرها في أوائل شعبان ٥٤٠هـ/ ١٧ يناير ١١٤٦م، وصلت التقارير إلى دمشق بأن زنكي قد حشد جيشا عظيما وجمع أعداداً كبيرة من المنجنيقات والمعدات الحربية وأعلن في تلك الأثناء استعداده للجهاد، ولكنه لم يصرح من الذي سيحاربه هذه المرة. ويبدو أنه فعل ذلك ليخدع قادة دمشق الذين ربما في ذلك الحين لم يعدوا انفسهم للدفاع عن مدينتهم. وعلى أية حال، أخذ أهل دمشق في تقوية دفاعات المدينة بحشد جميع قواتهم بهدف إفشال محاولة زنكي في فتح مدينتهم وضمها لمملكته. وحشد زنكي قواته في بعلبك الواقعة على بعد خمسة وعشرين ميلا من مدينة دمشق، ولكن أخبار المؤامرة ضد سلطة زنكي في الرها اضطرته لتغيير رأيه في الاستمرار في تنفيذ خطته في غزو دمشق. وزحف زنكي إلى الرها واستردها لسلطته وأعاد لها النظام.

وأمر زنكي قبل تقدمه نحو الرها بعض قواده بالعودة بالمنجنيقات إلى حمص ويبدو أن زنكي خاف من استيلاء أهل دمشق على تلك المنجنيقات ولهذا أمر بنقلها لحمص المكان الأكثر أمانا لحفظ تلك المنجنيقات لأنها محصنة بصورة أفضل من غيرها كبعلبك، وعندما نجح زنكي في استعادة النظام في الرها أُضطر إلى تأجيل خطته للسيطرة على دمشق للعام التالي (٢٢). ولكن زنكي لم ينفذ هذه الخطة في أثناء حياته لأنه أُغتيل في ٦ ربيع الآخر ٥٤١هـ/ الموافق ٤١ سبتمبر ١١٤٦م في أثناء فرضه حصارا على قلعة جعبر «دوسر» على نهر الفرات بين بالس والرقة. وقُسمت مملكة زنكي بين أكبر أبنائه سيف الدين غازي ونور الدين محمود. وتولى

سيف الدين غازي أمر الموصل، وورث مشاكل والده مع الأراتقة في ديار بكر، بينما تولى نور الدين محمود أمر حلب، وورث مشاكل والده مع الصليبيين وأهل دمشق. وطبقا لتقاليد الأتراك فقد اعتاد الابن الأكبر أن يحصل على الحكم بعد وفاة والده، ولأن نور الدين لم يكن أكبر أبناء زنكي، فلم يكن وضعه في حلب في موقف قوي، بل أن سيف الدين اعتبر أخاه نور الدين خصما يريد التمرد على حقه في وراثته لمملكة والدهما زنكي، وسوف نرى آثار هذا الوضع علي تقييد انشطة نور الدين خاصة ضد دمشق، واستمر هذا التقييد حتى وفاة سيف الدين في جمادى الأولى ٥٤٤هـ/ ٦ سبتمبر ١١٤٩م. ويبدو من الواضح أن نور االدين الذي كان سياسيا ذا فطنة وخبرة كبيرة كان لا يرغب آنذاك في ضم دمشق لمملكته حتى توفي أخوه بعد ثلاث سنين. وعلي أية حال، كانت إمارة دمشق غير محظوظة لأن جارتها مملكة حلب تولاها نور الدين الذي أشتهر بحزمه وشدته بينما كان أخوه سيف الدين غازي أقل حزما وشدة من أخيه نور الدين.

وبعد حوالي شهرين من اعتلاء نور الدين عرش حلب وسيف الدين عرش الموصل في جمادى الآخر ٥٤١هـ/ ٥ نوفمبر ١١٤٦م، نجح صليبيو بيت المقدس وعلى رأسهم جوسلين ـ كونت الرها السابق ـ وأهالي الرها من الأرمن في التآمر لاسترداد مدينة الرها من حراسها القليلي العدد (٢٣). وتفصيلات هذا الحدث خارج نطاق هذه الدراسة، ولكن من الضروري أولا وقبل كل شيء أن نقيّم أهمية تلك الأحداث بالنسبة لإمارة دمشق، فقد برهن نجاح نور الدين في استرداده الرها من الصليبيين بقوة السيف خلال فترة قياسية وهي خمسة أيام، على أن نور الدين لا يقل في خطورته عليهم عن ما كان عليه والده زنكي، وكان من المفترض أن يسارع سيف الدين وليس نور الدين إلى نجدة الرها لأن الرها أقرب للموصل عنها لحلب. وقد أظهر نجاح نور الدين في استرداد الرها أنه سينصب نفسه مدافعا عن المسلمين من الخطر الصليبي ولو كان هذا الخطر بعيدا عن حلب في الجزيرة الفراتية (ديار مضر) بمدينة الرها وليس في بلاد الشام واحتفظ نور الدين بالرها لنفسه ولم يعترض عليه أخوه سيف الدين (٢٤). وبمعنى آخر سوف تقع شؤون بلاد الشام بما

فيها شؤون دمشق ضمن نطاق نشاط نور الدين وليس ضمن نطاق نشاط سيف الدين.

اقترح ألتونتاش (حاكم بصرى وصرخد) في محرم ٥٤٢هـ/ ٢ يونيو ١١٤٧م أثناء زيارة له للقدس ضيفا على الملك بلدوين الثالث (الملك الجديد لبيت المقدس) ووالدته الوصية عليه مليزندا - اقترح أن يسلم إليهما بصرى وصرخد، وفي المقابل طالب أن يعوضاه بمنحه إقطاعا. ويرجع وليم الصوري هذه الصفقة نتيجة عداء ألتونتاش لسيده الأمير مجير الدين أبق وأتابكه أنر ولكن لم يمدنا وليم الصوري بتفصيلات لهذا العداء. ولم يذكر وليم الصوري - المؤرخ الرئيس لتلك الحملة - اسم الإقطاع الذي عهد به الملك بلدوين لألتنتاش (٢٥).

وتقدم في تلك الأثناء جيش بيت المقدس بقيادة الملك بلدوين الثالث ناحية طبرية، وعسكر بالقرب من جسر الصنبرة على نهر الأردن في النهاية الجنوبية لبحيرة طبرية. وطبقا لاتفاق سابق بين إمارة دمشق ومملكة بيت المقدس، فقد تعهد بلدوين الثالث - طبقا لرواية وليم الصوري - أن يخطر أنر بصورة رسمية في حالة عزمه على دخول أراضي إمارة دمشق حتى يكون لدى أنر وقت كاف لأن يحشد جيشه حتى يكون متأهبا خوفا من غدر الصليبيين. ويبدو أن الدخول المفاجىء للصليبيين داخل أراضي دمشق دون إشعار رسمي يعد مناقضا لشروط هذه المعاهدة (٢٦)، ،وعندما أخبر أنر بتلك الاتفاقية بين ألتنتاش حاكم بصرى والملك بلدوين الثالث، حشد جيشا كبيرا من دمشق وجيرانها لاسترداد بصرى وصرخد لدمشق، فكتب بلدوين الثالث لأنر يحذره بعدم حشد جيش دون أخذ تصريح منه نفسه. وأجاب أنر برد يتهم فيه الملك بلدوين الثالث بنقض شروط تلك المعاهدة التي أبرماها كلاهما من قبل. وحذر أنر الملك بلدوين الثالث بألا يتدخل في شؤون دمشق الداخلية بتأييد تابعه المتمرد ألتونتاش حاكم بصرى. وإضافة إلى ذ لك، طلب أنر من بلدوين الثالث أن يحتفظ بعلاقاته السابقة الطيبة مع دمشق، وأن يحافظ على معاهدة السلام مع دمشق، وبناء عليه وعد أنر بلدوين الثالث بأن

يعوضه عن جميع تكلفة نفقات تلك الحملة فيما لو أحجم بلدوين عن تلك الحملة وثنى عن مشروع ضم بصرى وصرخد (٢٧).

فأجاب الملك بلدوين الثالث على خطاب أنر مؤكدا عدم قدرته على رفض نداء ألتونتاش الذي كان صادقا في اعتماده على مملكة بيت المقدس، ومن ناحية أخرى أبدى الملك استعداده للتفاهم، واقترح على أنر أن يدع ألتونتاش يعود لبصرى، وفي حالة اصرار أنر على طرد حاكم بصرى فيجب على أنر أن يعوض ألتونتاش باقطاع كبير يضاهي الذي أخذ منه. ولو قام أنر بهذا الأمر فسوف يأخذ بلدوين الثالث على عاتقيه الاحتفاظ بمعاهدة السلام مع الأمير مجير الدين حاكم دمشق (٢٨). ويبرر وليم الصوري، رغبة الأمير أنر في التمسك بمعاهدة السلام مع الملك بلدوين الثالث نتيجة خوفه من تهديد صهره (زوج ابنته) لامارته - ذلك أن نور الدين قد تزوج إبنة أنر في العام الماضي في ٢٣ شوال ٥٤١هـ/ الموافق ٣٠ مارس ١١٤٧م - ولهذا السبب اقترح أنر أن يعوض بلدوين الثالث عن كل النفقات التي تكلفها من جراء تلك الحملة (٢٩). ويبدو أنه رغم ارتباط أنر مع نور الدين بصلة الزواج بين نور الدين وابنة أنر إلا أن أنر كان متأكدا من عدم تخلي نور الدين عن محاولات والده زنكي في ضم دمشق لإمارته.

وقد نصح أحد قادة الملك بلدوين الثالث المدعو برنارد فيشر بالموافقة على اقتراح أنر العودة للوطن. ولكن أغلبية قواد القوات الصليبية اتهموا فيشر بالخيانة وأصروا على مواصلة التقدم للاستيلاء على بصرى وصرخد. ولهذا اضطر بلدوين لتنفيذ طلب الأغلبية، وبناء على ذلك استأنف تقدمه ناحية بصرى بالتحرك على امتداد سهل المدان الواقع على بعد عشرين ميلا شمال غرب بصرى. وأدهش الصليبيين بما فيهم من أصر على مواصلة الزحف في المدان بجيش دمشق الكبير المنظم بصورة جيدة. وأسس صليبيو بيت المقدس معسكرهم هناك وأمضوا ليلتهم تلك في حالة استنفار. وفي الصباح نجحت قوات دمشق في محاصرة الصليبيين من كل جانب وأعاقت تقدمهم، إلا أن الصليبيين تمكنوا بصعوبة كبيرة من فتح ثغرة في جيش الدمشقيين واستأنفوا تقدمهم ناحية منطقة «تراكونيتس»، الواقعة في الناحية

الشمالية عبر نهر الأردن. واستمر أهل دمشق في مضايقة الصليبيين بشن الغارات المتكررة بواسطة رشقهم بالسهام والنشاب. وكاد الصليبيون يهلكون في هذه المنطقة لندرة المياه خاصة وأن مستنقعات مياه المنطقة كانت ملوثة بالحشرات الميتة. ويعود السبب وراء تلوث تلك المستنقعات أنه قد واجه تلك المنطقة وباء سببه الجراد، وعندما اقترب الصليبيون من مدينة أدراتون والمحتمل أنها «أذرعات» في تراكونيتس والتي توقع الصليبيون أنهم سوف يجدون ماء للشرب فيها، إلا أن أهل هذه المدينة - أتباع الدمشقيين - ناضلوا حتى يمنعوا الصليبيين من استخدام خزانات المدينة ولم ينعم الصليبيون لمدة أربعة أيام بأي نوع من الراحة حتى أثناء الليل لأن عمليات رشق السهام والنبال كانت تنفذ من قبل الرماة الدمشقيين باستمرار، وبسبب هذه المضايقة تسلل العديد من الصليبيين من معسكرهم هربا من تلك المخاطر، وفي أثناء ذلك أتت امدادات جديدة لقوات الدمشقيين. وقد حاول الصليبيون التصدي لرشق الدمشقيين لهم ولكن بلا جدوى وذلك لقلة خبرتهم باستراتيجية الدمشقيين في الحرب (٣٠).

وسلك الصليبيون في اليوم الرابع من هذه الحملة طريقهم ناحية بصرى ونجحوا رغم صعوبات كثيرة في الحصول على المياه بالرغم من هجمات أهل دمشق، وجعلوا معسكرهم على مقربة من المدينة لينعموا بقليل من الراحة تلك الليلة حتى يسفر الصباح. ووصلت أخبار سيئة للصليبيين في منتصف الليل تفيد أن زوجة ألتنتاش «حاكم بصرى» سلمت المدينة إلى أهل دمشق. واندهش الصليبيون بأخبار تسليم المدينة التي عانوا كثيرا من الصعوبات بهدف الوصول الى هدفهم المنشود في اضافة هذه المدينة الى ممتلكاتهم. ووافق الصليبيون الآن بالإجماع على الانسحاب فورا الى مقاطعتهم الخاصة مهما تكن التكلفة، ويمدنا وليم الصوري - المؤرخ الوحيد لتلك الفترة التاريخية الذي ذكر تفصيلات كثيرة عن تلك الحملة - يصف هذا الموقف المرعب بالنسبة للصليبيين قائلا الآن ولأول مرة شعر المسيحيون (الصليبيون) بحرج موقفهم من كلا الجانبين حيث تلاشى الآن أملهم العظيم وفضلوا الانسحاب عن بصرى، وأدركوا أن جهودهم قد بذلت دون جدوى (٣١).

ووصلت قوات نور الدين في اليوم التالي لمعاونة الدمشقيين لأن أنر قد ناشده المساعدة ضد صليبيي بيت المقدس . وزاد وصول هذا العدد الهائل من قوات نور الدين قلق الصليبيين الذين كانوا على وشك البدء في الانسحاب. وقرر الصليبيون عدم ترك أي جثة خلفهم عند إنسحابهم بهدف إيهام الأميرين أنر ونور الدين بأنهم لم يفقدوا قتلى أو جرحى، وبناء عليه سيحجمون عن مطاردتهم للصليبيين، وعندما وجد الأميران أنر والأمير نور الدين أن جهودهما في مطاردة الصليبيين كانت دون جدوى، قاما بإشعال النيران في الأرض وزاد إشتعال النيران كثافة النباتات الشوكية الجافة والحشائش المتوفرة في المنطقة، وضاعف ذلك من محن الصليبيين ولكن تغير اتجاه الرياح نحو اتجاه قوات دمشق وقوات نور الدين قلل من معاناة جيش بيت المقدس الصليبي، فعزم الصليبيون على إرسال مبعوث إلى أنر للوصول الى تسوية لهذا المأزق الذي وقعوا فيه، وكان هدفهم من هذا الأمر إعطاءهم فرصة للعودة إلى وطنهم آمنين. ولكن رسول الصليبيين قتل على يد أهل دمشق قبل أن يمنحوه الفرصة في تقديم رسالته (٣٢).

وعندما اقترب الصليبيون من «كافيا رأب» بعد مرور عدة أيام من المعاناة الشديدة، بعث أنر برسله لهم مؤكدا نواياه الطيبة للملك بلدوين الثالث وطالبا منه عقد سلام، ولم يمدنا «وليم الصوري» ـ المؤرخ الوحيد لهذه الفترة الذي ذكر تلك الأخبار ـ بأي تفاصيل بخصوص هذه الاتصالات ولكنه ذكر أن الصليبيين رفضوا شروط أنر (٣٣). ويبدو أن نور الدين تظاهر بأن ليس لديه علم عن هذه الاتصالات لكي لا تسوء علاقته مع حليفه وحماه (ابو زوجته) أنر لأنه يبدو أنه كان يترقب الاستيلاء على إمارة دمشق إن عاجلا أو آجلا.

ووفقا لما أورده وليم الصوري أن فارسا مجهولاً أرشد الصليبيين في عودتهم الى ديارهم عبر طريق «كافيا رأب» حيث ضلوا هناك (٣٤). ،ويبدو أن أنر قد زود الصليبيين بمرشد غير معروف ليبرهن لهم على حسن نيته، ولكي لا يخسر التحالف مع الصليبيين في المستقبل عندما يحاول نور الدين ضم مدينة دمشق لمملكته، وبعد فشل الحملة التي شنها صليبيو بيت المقدس للاستيلاء على مدينتي بصرى

وصرخد، عاد الحاكم السابق لبصرى ألتنتاش لدمشق دون أخذ الأمان معتقدا أن أنر سوف يعفو عن خيانته وعصيانه له. ولكن أنر خيب ظنه وحكم عليه بأن تُسمل عيناه قصاصاً له كما قد فعل ألتونتاش بأخيه عندما سمل عينيه حين ولايته لبصرى. كما أمر أنر بحجز ألتونتاش في مدينة دمشق (٣٥). وقد أمدنا وليم الصوري بصورة عن جسامة خسائر الصليبيين في هذه الحملة قائلا «لا يستطيع أحد على قيد الحياة أن يتذكر أي حملة محفوفة بالمخاطر خلال فترة اللاتينين في الشرق كهذه الحملة المشؤومة التي لم تؤد إلى نصر حا سم على الأعداء (٣٦).

وبعد استرداد الرها في ٢٦ جمادى الآخرة ٥٣٩هـ الموافق ٢٣ ديسمبر ١١٤٤م على يد زنكي، ارسل صليبيو المشرق العديد من الرسل ليقنعوا صليبيي الغرب ان يعلنوا عزمهم لشن حملة صليبية جديدة لإنقاذ باقي الإقطاعيات الخاصة بالصليبيين في المشرق. وبعد الجهود التي بذلها كل من البابا أيوجنيوس الثالث وبرنارد رئيس دير الرهبان في كليرفوكس، وافق كل من الامبراطور الجرماني كونراد الثالث والملك لويس السابع ملك فرنسا بالإضافة إلى أمراء الغرب الأوروبي على شن الحملة الصليبية الثانية(٣٧). وسوف تقتصر معالجتنا هنا لهذه الحملة الصليبية على آثارها خصوصا على إمارة دمشق. وقد بالغت التقارير التي اخبرتنا عن عدد القوات الصليبية التي حُشدت في تلك الحملة وخاصة تلك الأخبار التي قدمت عن طريق المؤرخين المسلمين. وطبقا لرواية ابن القلانسي، فقد وصلت أخبار تقدر عدد القوات الحربية الفرنسية والألمانية بحوالي مليون. ويبدو أن الصليبيين قد نشروا أخبار هذه المبالغات لأعداد قواتهم لتخويف المسلمين في بلاد الشام. وأوضح ابن القلانسي أن هذا التقدير قد وصل عن طريق الامبراطورية البيزنطية والصليبيين أنفسهم (٣٨). وقدر وليم الصوري عدد كل من جيشي الفرنسيين والالمان بحوالي مائة وأربعين ألف رجل (٣٩).

وفي جمادى الآخرة ٥٤٢هـ / ٢٨ أكتوبر ١١٤٧ وبجوار نهر باثيس وعلى مقربة من دور يلوم وقع تسع أعشار الجيش الالماني صرعى بأيدي قوات سلاجقة الروم المسلمة، ونجي من تلك الكارثة سبعة آلاف رجل فقط من ضمنهم الامبراطور

كونراد بعد مجابهتهم العديد من الصعوبات، ووصلت القوات الهاربة آمنة إلى نيقية(٤٠). وانضمت الجيوش الفرنسية في نيقية بالقوات الألمانية المنهزمة. وحينئذ استأنف كلا الجيشين تقدمه نحو أفيسيوس، وفي الرابع عشر من رجب ٥٤١هـ الموافق ١٥ ديسمبر ١١٤٧م في أفيسيوس أمر الامبراطور الجرماني قواته الناجية أن تعود إلى القسطنطينية، وعاد هو شخصيا أيضا إلى القسطنطينية عن طريق البحر(٤١).

وحدثت كارثة أخرى لحملة الصليبيين الثانية في بداية شهر شعبان ٥٤٢هـ / ٢٧ ديسمبر ١١٤٧ م بالقرب من لادسيا (دينزلي الحديثة) عندما كان الجيش الفرنسي يعبر متسلقا جبل القدموس فقد انتهز سلاجقة الروم فرصة انفصال طليعة الجيش الفرنسي عن مؤخرته وهاجموا مؤخرة الجيش وهزموها. وطبقا لرواية وليم الصوري، فقد نجح بعض هذه القوات بما فيهم الملك لويس لويس من النجاة من القتل وحينئذ لحق بطليعة الجيش الذي لم يكن لديه أي فكرة عن الكارثة التي حلت بمؤخرة الجيش على أيدي سلاجقة الروم.

وبالرغم من عدم ذكر أي مصادر تاريخية لذلك الوقت عدد الخسائر الفرنسية بصورة دقيقة ولكن يمكن تقدير الجنود المصابين الى ثلاثين الف جندي. وقد وصف وليم الصوري هذه المأساة للفرنسيين في العبارات التالية: «وفي ذلك اليوم فقد الفرنسيون السمعة العظيمة التي كانوا يفخروا بها بهذه الهزيمة المنكرة للمسيحيين فقد هبطت السمعة التي عُرفت عن شجاعتهم إلى الحضيض والتي كانت حتى ذلك الوقت ترعب الشعوب» (٤٢). وأضعف ندرة الطعام في أنتاليا معنويات الجيش الفرنسي وقد مات جوعا العديد من الذين قد نجوا من كارثة لادسيا وخاصة الفقراء منهم. فتقدم الملك لويس ونبلاؤه وقادته سيرا على الأقدام تاركين جيوشهم وذهبوا بالسفن لميناء السُويديّة التابع لصليبيي أنطاكية(٤٣). وتوسل ريموند ـ حاكم أنطاكية ـ بالملك لويس لمساعدته على التوسع بممتلكاته على حساب بلاد المسلمين ولكن الملك لويس رفض أن يفعل ذلك. ثم غادر أنطاكية متوجها إلى بيت المقدس لأداء

الحج وليناقش مع الملك بلدوين الثالث ما الذي يجب أن يفعله لمساعدة صليبيي الشرق(٤٤).

ونزل الامبراطور الجرماني كونراد وقواته في ذي القعدة ٥٤٢هـ / ٢٥ مارس ١١٤٨م إلى ميناء عكا. وزودت سفنه بالإمداد عن طريق الامبراطور البيزنطي مانيول. وطبقا لرواية وليم الصوري كانت كل إمارة صليبية في الشرق ترغب في استخدام الحملة الصليبية الثانية لمصلحتها الخاصة دون النظر بعين الاعتبار إلى المصلحة العامة للصليبيين جميعا، وتتطلع كل إمارة إلى الاستفادة من قوات الحملة الصليبية الثانية بهدف توسيع رقعة ممتلكاتها الخاصة على حساب المسلمين(٤٥).

وبعد مفاوضات ومناقشات طويلة في محرم ٥٤٣هـ الموافق ٢٢ مايو ١١٤٨م بين قادة الحملة الصليبية الثانية في عكا، قرروا في النهاية الاستيلاء على مدينة دمشق(٤٦). وطبقا لرواية وليم الصوري كان السبب وراء ذلك القرار هو أن هذه المدينة تمثل تهديدا خطيرا للصليبيين في الشرق(٤٧). ولكن يبدو أن التهديد الحقيقي لصليبيي الشرق في ذلك الوقت لم يكن قادما من قبل إمارة دمشق ولكن من قبل نور الدين حاكم حلب. ويبدو أن دمشق في ذلك الوقت لم تعد تمثل أي تهديد يذكر للصليبيين. فقد أعلن نورالدين تهديده الموجه للصليبيين خاصة عندما استعادوا الرها في جمادى الآخرة ٥٤١هـ / ٥ نوفمبر ١١٤٦م كما ساعد نور الدين أهل دمشق ضد مملكة بيت المقدس في محرم ٥٤٢هـ / ٢ يونيو ١١٤٧م عندما حاولوا ضم بصرى وصرخد لممتلكاتهم.

واختار الصليبيون ان يشنوا هذه المرة هجومهم على مدينة دمشق من ناحية الغرب. وطبقا لرواية وليم الصوري فقد اختار الصليبيون هذا الاتجاه لسببين اولهما أنهم لو نجحوا في السيطرة على هذه المنطقة المحصنة بصورة محكمة، فسوف يكون من السهل عليهم الاستيلاء على المدينة(٤٨) ويبدو أن الصليبيين قد اختاروا ذلك الوضع ليفاجئوا أهل دمشق الذين لم يتوقعوا الهجوم بهذا الجيش العظيم من ذلك الاتجاه لأسباب جغرافية حيث يطوق الجانب الغربي من دمشق بالجبال. وقد نجحت قوات دمشق في أن تمنع تقدم الصليبيين عبر نهر بردى لفترة وجيزة، ولكن عندما

قاد الامبراطور الجرماني كونراد الهجوم مع قواته الالمانية، تمكن من هزيمة أهل دمشق وأجبرهم على الفرار إلى المدينة. ثم اقتحم الصليبيون النهر وعسكروا على شكل صفوف منتشرة من الجند حول المدينة دون أن تواجههم مقاومة تذكر، وقد استمتعوا في موقعهم هذا بالنهر وبساتين الفاكهة التي احتلوها بالقوة(٤٩). وأخذ أهل دمشق في تنفيذ تكتيكات حربية جديدة لإيقاف تقدم الصليبيين عن طريق وضع عارضات خشبية طويلة ذوات أحجام هائلة في الطريق المقابل لمعسكر الصليبيين كعائق وطبقا لرواية ابن القلانسي، تمكن الصليبيون من الوصول لموضع حول المدينة لم يستطع معتد من قبل تحقيقه منذ فتح المسلمين الأول لمدينة دمشق عام ١٧هـ / ٦٣٨م(٥٠). وعلى النقيض لهذه الرواية وطبقا لرواية المؤرخين المسلمين في ذلك الوقت، بدأ الصليبيون في فرض الحصار على مدينة دمشق من الناحية الجنوبية ثم تحركوا جهة الشرق(٥١). وقد اتهم المؤرخون الغربيون المعاصرون لتلك المرحلة التاريخية بما فيهم وليم الصوري وابن العبري (المؤرخ السرياني) - بعض قادة الصليبيين في الشرق بالخيانة، واعتقد هؤلاء المؤرخون ان هذه الخيانة كانت وراء فشل تلك الحملة واعتقدوا أن أنر قد عرض رشوة على هؤلاء القادة ليقنع الصليبيين بالرحيل عن مواقعهم المميزة في الجانب الغربي من المدينة وبالتحرك في اتجاه الجانب الشرقي. وقد اقنع هؤلاء القادة رؤساؤهم بأن الجانب الشرقي أقل تحصينا من الجانب الغربي حيث لا توجد بساتين واقية ولا نهر ولا خندق تعرقل الطريق لتلك الحصون(٥٢). وعلى أية حال، فإنه من الجلي أن الجانب الشرقي للمدينة كان في الواقع الجانب الأكثر تحصينا وطبقا لرواية وليم الصوري فقد حث هؤلاء القادة الخونة رؤساؤهم على التحرك في اتجاه المكان الجديد «الجهة الشرقية» والذي لم يمدهم بالماء الكافي وإمدادات الطعام ولو لعدة أيام قليلة. وقد ناقش القادة الصليبيون موضوع العودة إلى المكان الذي قد استحثوا على مغادرته سابقا ولكنهم اكتشفوا أن الدمشقيين قد اسرعوا في إعادة توطيد أنفسهم في الجانب الغربي أكثر من ذي قبل. ولم يعترض هذه المرة الدمشقيون المنطقة بالعوارض الواسعة فقط بل استخدموا كتلا ضخمة من الصخور ووضعوا أخشابا كبيرة هناك وبذلك منعوا كل امكانية اختراق سور المدينة واكتشف صليبيو الغرب الذين قد وثقوا في صليبيي

الشرق خيانة إخوانهم لهم، ولهذا السبب قرروا الانسحاب من دمشق دون تحقيق هدفهم وهو الاستيلاء على هذه المدينة، وانسحبت بقية القوات الصليبية إلى بلادهم متخذة نفس الطريق الذي جاءوا منه ووفقا لما أورده وليم الصوري عاد صليبيو الغرب حينئذ إلى الوطن في أوروبا الغربية دون تحقيق أي مجد يخلدوه(٥٣).

وهناك العديد من الأسباب التي كانت موضوع جدال بين المؤرخين فيما يتعلق بتعليل فشل الحملة الصليبية الثانية. ويفترض أن أول تلك الأسباب هو وعد الامبراطور الجرماني كونراد، والملك الفرنسي لويس السابع وكذلك الملك بلدوين لثيودور - كونت فلاندرز - بمنحه مدينة دمشق قبل البدء في فرض الحصار عليها. وأثار ذلك الوعد العداء بين قادة صليبيي الشرق، فبينما وافق بعض صليبيي الشرق على تلك الاتفاقية كبلدوين الثالث، إلا أن العديد من القادة الصليبيين الشرقيين الآخرين رفضوا تلك الاتفاقية.

وطبقا لرواية وليم الصوري فقد فضل هؤلاء القادة الذين رفضوا طلب ثيودور أن يحتفظ الدمشقيون بمدينتهم على أن يروها تمنح لكونت فلاندرز(٥٤). والسبب الثاني يرجع لرشوة أنر بعض القادة الصليبيين الشرقيين لرفع الحصار عن المدينة (٥٥). والسبب الثالث هو احتيال أنر على صليبيي الشرق والغرب على السواء. حيث كتب أنر إلى صليبيي الغرب يحذرهم أنه في حالة عدم رفعهم الحصار المفروض على المدينة فإنه سوف يسلم المدينة إلى سيف الدين - حاكم الموصل - الذي حشد جميع قوات مسلمي الشرق ضدهم. وفي نفس الوقت كتب أنر لصليبيي الشرق يهددهم بمجابهة خيارين كل واحد منهما ليس في مصلحتهم أولهما: تسليم أنر مدينة دمشق لسيف الدين غازي صاحب الموصل، وفي هذه الحالة سيكون من الصعب بالنسبة لهم أن يحتفظوا بممتلكاتهم في الشرق بما فيها مدينة القدس أكثر المدن قداسة عند الصليبيين، والخيار الآخر: هو احتلال صليبيو الغرب الجدد لمدينة دمشق وتأسيس دولة صليبية جديدة في الشرق على أنقاض إمارة دمشق قد يؤدي إلى سيطرة هذه الدولة المرتقبة على كافة الإمارات الصليبية الأخرى في بلاد الشام(٥٦). ويبدو أن أنر قد رشا بعض قادة الصليبيين الشرقيين ليقنعوا حكامهم

بالتخلي عن مشروع فرض الحصار على مدينة دمشق. والافتراض الأخير هو مقاومة الدمشقيين الرائعة وتحالفهم مع القوى الإسلامية في أثناء حصار المدينة هو الذي أدى إلى فشل الحصار. وبالرغم من عدم وصول أي من قوات سيف الدين حاكم الموصل أو نورالدين حاكم حلب إلى مدينة دمشق إلا أن وعدهم لأهل إمارة دمشق بالمساعدة شجع الدمشقيين على مقاومة التهديد الصليبي الخطير لمدينتهم. ولم ينكر أي مؤرخ معاصر شجاعة الدمشقيين في مواجهة ذلك التهديد الخطير.

إن الحملة الصليبية الثانية في ٥٤٣هـ / ٢٢ مايو ١١٤٨م ضد مدينة دمشق وتعاون مملكة بيت المقدس مع الصليبيين الآخرين وضعا استمرارية صلاحية الهدنة بين دمشق ومملكة بيت المقدس محل سؤال، فبعد انسحاب الحملة الصليبية الثانية، بدأ صليبيو بيت المقدس في سلب ونهب إمارة دمشق وخاصة منطقة حوران. وتقدم أنر في محرم ٥٤٤ هـ /١١ مايو ١١٤٩م، على غير رغبة منه في اتجاه صليبيي بيت المقدس بالرغم من سلبهم وتدميرهم لمنطقة حوران. وناشد أنر البدو المساعدة ضد الصليبيين. وكان هدفه هو محاولة تجديد هدنته مع صليبيي بيت المقدس لأنهم قطعوا طريق التجارة الرئيس للإمارة. وأُضطر صليبيو بيت المقدس إلى تجديد معاهدة السلام مع حكام دمشق لمدة سنتين، وقلل الصليبيون مقدار الأتاوة التي تدفعها إمارة دمشق لهم بعد أن شن أنر الغارات ضدهم في حوران(٥٧). ويبدو أن الاحتفاظ بطريق تجارة دمشق مفتوحا أمر هام بالنسبة لقادة دمشق، كما أن تحالفهم مع صليبيي بيت المقدس سيشكل عنصرا جوهريا في حمايتهم من تهديد مرتقب لهم من قبل نورالدين محمود صاحب حلب.

ويبدو ان نورالدين كان على دراية بعدم تخلي إمارة دمشق عن سياستها المعتادة في التحالف مع صليبيي بيت المقدس. ولكي يقضي على ذلك التحالف، كتب نورالدين لأنر يطلب مساعدته الشخصية لعساكره في عملياتهم العسكرية في الجهاد ضد صليبيي أنطاكية(٥٨). وبالرغم من أن هدنة أنر مع بيت المقدس لا تمت بأية صلة إلى إمارة أنطاكية إلا أن هذا التحالف الجديد بين أنر ونور الدين قد يؤثر في الواقع عاجلا أو آجلا على تحالف أنر مع مملكة بيت المقدس. وبناء عليه يبدو أن

نور الدين سوف يستغل تورط الدمشقيين في صراع مع أنطاكية ليضعف كلا من دمشق وأنطاكية وليعزز أيضا من نفوذه في بلاد الشام. ويبدو أن أنر كان مرتابا في نوايا نورالدين بهذا الشأن لذا نراه متخوفا ان يشترك شخصيا مع جيش نورالدين في جهاد الصليبيين حذرا من أن تسنح الفرصة لنورالدين للقبض عليه واحتلال إمارة دمشق بعد ذلك، ولذلك بعث أنر في ١٠ صفر ٥٤٤هـ الموافق ١٩ يونيو ١١٤٩م بقائد من أقرب قادته إليه وهو الأمير مجاهد الدين بوزان بن مامين مع عدد كبير من جنود إلى دمشق لينوبوا عنه في جهاد الصليبيين .وقد أمر أنر مجاهد الدين أن يطيع نورالدين ويخدمه بكافة قواته ويجعلها تحت تصرفه . وقد برر أنر عدم مشاركته الشخصية في هذه الحملة برغبته في تسوية مشكلة واجهت الإمارة في حوران حيث رفض البدو المقيمون نقل تجارة دمشق بواسطة جمالهم الخاصة(٥٩).

وحقق نور الدين في الحادي والعشرين من صفر ٥٤٤ هـ الموافق ٢٩ يونيو ١١٤٩م انتصاراً عظيماً بمساعدة قوات دمشق بالقرب من حصن إنب ضد الأمير ريموند حاكم أنطاكية الصليبي. فقد قُتل في هذه المعركة أغلب جيش أنطاكية بما فيهم قائدهم الأمير ريموند الذي اشتهر بشجاعته بين صليبيي الشرق. وبعد ذلك الانتصار فرضت كل من قوات نورالدين ودمشق الحصار على مدينة أنطاكية وهي واحدة من أعظم المدن المحصنة تحصينا محكما في بلاد الشام. واعتقد نور الدين أن أهل أنطاكية سوف يستسلمون نتيجة للكارثة التي حلت بجيش إمارتهم بالقرب من إنب. وعلى أية حال فقد رفض أهالي أنطاكية الاستسلام لنورالدين لأنهم ظنوا أن الصليبيين الشرقيين سوف يسرعون لنجدتهم (٦٠).

وقبل ثلاثة وخمسين عاما من هذا الحدث ـ أي في جمادى الأولى ٤٩١هـ / الموافق يونيو ١٠٩٨م تمكن حوالي ثلاثمائة ألف من القوات الصليبية بعد حصار امتد تسعة أشهر من الاستيلاء على هذه المدينة بالخديعة من المسلمين (٦١). ويبدو أنه كان من الصعوبة بمكان على نورالدين الاستيلاء على أنطاكية وقد كان معه جيش لا يتجاوز ستة آلاف جندي. وبالرغم من ذلك فقد ترك نورالدين جزءا من جيشه ليستمر في فرض الحصار على المدينة، وتقدم مع البقية ليفرض الحصار على

حصن أفاميا ونجح في استعادة حصن أفاميا، دون إراقة دماء، ثم عاد إلى أنطاكية ليستأنف حصارها، وحاول أن يستحث أهالي أنطاكية على الخروج لمحاربة جيشه في أرض فسيحة ليعقدوا مصافا كما قد فعل أميرهم المهزوم من قبل ولكن أهالي أنطاكية أدركوا أن هذه خدعة حربية ولذلك لم يغادروا مدينتهم، ونجحوا في أن يحدوا من عدد الإصابات الواقعة في صفوفهم وينقذوا أنطاكية. ولم يتخل نور الدين عن فرض الحصار على أنطاكية حتى اعترف أهالي أنطاكية بحقه في كافة الأراضي القريبة من حلب. وعلى أية حال، لم تمدنا المصادر التاريخية لذلك العصر بأي تفضيلات عن المعاهدة بين نورالدين وأهالي أنطاكية. ثم عاد نورالدين بقواته إلى حلب ورجعت القوات الدمشقية إلى الوطن(٦٢). وقد جنى نورالدين ثمرة ذلك التحالف مع دمشق بانتصاره في إنب.

وفي تلك الأثناء، عاد معين الدين أنر من حملته التي شنها على حوران وترك أحد قواده ليتم هذه الحملة، ويبدو أن حوادث وقعت في مدينة دمشق اضطرت أنر إلى العودة لها، وأثناء تواجده في مدينة دمشق أصابه إسهال شديد، وبالرغم من معاناته من هذا المرض، أصر على الانضمام لقواته المتواجدة في حوران. وفعلا عاد إلى حوران لإتمام حملته، ونجح في الوصول إلى اتفاقية سلام مع البدو المقيمين هناك حول تسهيل نقل هؤلاء البدو لتجارة دمشق. وقبل رجوعه من حوران، أصابته الدوسنتاريا، فعاد إلى مدينة دمشق يوم السابع من ربيع الآخر ٥٤٤هـ / الموافق ١٤ أغسطس ١١٤٩م، حيث توفي بعد خمسة وعشرين يوما من عودته متأثرا من هذا المرض الشديد(٦٣).

وبوفاة الأتابك أنر في جمادى الأولى ٥٤٤هـ / ٦ سبتمبر ١١٤٩م، سنحت فرصة عظيمة لأمير دمشق مجير الدين أبق ليحكم فعليا إمارته، بعد أن كان محجوزا عليه أيام أتابكة أنر. ولهذا استدعى مجيرالدين وجهاء دمشق للحضور عنده في قلعة دمشق حيث كان يقيم هناك. وفي هذا الاجتماع حرص مجيرالدين أن يحصل على تعهد من هؤلاء القادة بالسمع والطاعة له. وتعهد جميع هؤلاء

الزعماء ـ ومن ضمنهم حسام الدين بولاق، ورئيس دمشق مؤيد الدين بن الصوفي ومجاهد الدين بوزان ـ على السمع والطاعة لأميرهم مجير الدين أبق(٦٤).

وفي تلك الأثناء تخوف مجيرالدين من تنامي نفوذ مؤيد الدين بن الصوفي ـ رئيس دمشق وأخيه زين الدين حيدرة.

ويبدو أن مجير الدين ليس لديه آنذاك القوة الكافية ليبعد هذين القائدين ولهذا احتجز أتباعهما وسجنهم ليضعف من قوتهما في دمشق. وقد جمع مؤيد الدين وزين الدولة أتباعهما من بين أفراد جماعة الأحداث والمشاغبين في دمشق بالقرب من منزليهما لحماية أنفسيهما حذراً من محاولة مجير الدين القبض عليهما، ولما رأى مجير الدين استعدادهم أرسل مؤكد لهما مرة أخرى أن ليس لديه نية في محاكمتهما. وعلى أية حال لم يثقا به، وبناء عليه، تقدموا في اليوم التالي مع أتباعهما ناحية السجن واقتحموه مطلقين سراح أتباعهما الذين قد سجنوا من قبل مجير الدين. وعندما علم مجير الدين بهذا التمرد، حشد قواته ليشتت هؤلاء المتمردين ولكن القادة المقربين له أقنعوه بحل هذه المشكلة بالطرق السلمية. وبعد مفاوضات طويلة وشاقة بين مجير الدين والمتمردين وافق مجير الدين مضطرا على إعادة مؤيد الدين كرئيس ووزير لدمشق. وسيعزز هذان المنصبان لمؤيد الدين مكانته كشخصية قائده منفردة في دمشق. بالإضافة إلى ذلك فقد أُرغم مجير الدين على طرد بعض الشخصيات البارزة في دمشق بما فيهم شحنة دمشق السلاّر زين االدين إسماعيل (٦٥)

وقام الصليبيون في أثناء ذلك بنهب منطقة حوران التابعة لإمارة دمشق. ويبدو أن نور الدين (محمود) صاحب حلب استغل هذه الهجمات التي شنها صليبيو بيت المقدس على حوران ليختبر فيما إذا كان الدمشقييون ـ بعد وفاة أنر ـ قا درين على الاحتفاظ بتحالفهم معه ضد الصليبيين كما قد فعلوا في محرم ٥٤٣هـ/ ٢٢ مايو ١١٤٨م و كذلك في صفر ٥٤٤هـ/ ٩ يونيو ١١٤٩م. وبناء على ذلك، انتهز نور الدين تلك الغارات الذي شنها صليبيو بيت المقدس ليرغم أهل دمشق على نقض تحالفهم معهم. وكان من المفترض أن حكام دمشق سوف يطلبون هذه المرة المساعدة

من نور الدين ضد صليبيي بيت المقدس ولكن حدث العكس حيث كتب نور الدين لأهل دمشق طالبا منهم إرسال ألف من فرسانهم تحت قيادة قائد يعتمد عليه لمحاربة الفرنجة في منطقة حوران. ويبدو أن نور الدين فعل ذلك ليضغط على حكام دمشق. وعلى أية حال، رفض مجير الدين عرض نور الدين الذي زحف بقواته في اتجاه مدينة دمشق لإرغام دمشق على مساعدته ضد الصليبيين، ووفقا لرواية ابن القلانسي فقد عقد حكام دمشق آنذاك تحالفا دفاعيا مع صليبيي بيت المقدس وبناء عليه ناشد أهل دمشق النجدة من صليبيي بيت المقدس الذين كانوا مشغولين في ذلك الوقت في تجديد مدينة غزة كحصن يهاجم من خلاله مدينة عسقلان التابعة للفاطميين، ووصل جزء من تلك القوات الصليبية الى بانياس لمساعدة أهل دمشق ضد نور الدين. ثم تقدم عسكر نور الدين إلى منازل العساكر، الواقعة على بعد أميال قليلة جنوب دمشق. وأرسل نور الدين في ٢٦ ذي الحجة ٥٤٤هـ الموافق ٢٥ ابريل ١١٥١م، خطابا هاما لمجير الدين وكذلك لرئيس دمشق مؤيد الدين مؤكدا على طلبه السابق نصرة أهل دمشق له لجهاد الصليبيين، كما ذكر نور الدين تبريرا آخر لطلبه المساعدة من أهل دمشق ألا وهو المساعدة على إنقاذ عسقلان وتحرير المدن الأخرى التي احتلها الصليبيون، واصر قادة دمشق على رفضهم مساعدة نور الدين وحذروه من قوة حلفائهم صليبيي بيت المقدس الذين كانوا على أتم الاستعداد لمساعدتهم في حالة مهاجمته لهم (٦٦).وعندما استلم نور الدين رد حكام دمشق هذا على خطابه، عزم على التقدم بقصد مباغتة دمشق بهجوم في اليوم التالي ولكن منعه سقوط المطر بغزارة فعل ذلك، وطبقا لرواية ابن القلانسي وصلت تقارير خاصة لنور الدين أثنته عن رغبته في مهاجمة مدينة دمشق. ويبدو ان التقارير التي استلمها نور الدين نوهت عن تقبل اهل دمشق لسلطته في دمشق. وتوصل الدمشقيون في الأول من محرم ٥٤٥هـ الموافق ٣٠ ابريل ١١٥٠م الى معاهدة مع نور الدين قبلوا بها أن يكونوا تحت سلطة نور الدين وأعلنوا الخطبة باسمه. وفي المقابل خلع نور الدين على مجير الدين ووزيره ورئيس دمشق مؤيد الدين، ثم عاد إلى حلب في ١٦ محرم ٥٤٥هـ/ الموافق ١٥ مايو ١١٥٠م (٦٧). وكما هو مذكور في الفصل الخامس فقد وافق أمير دمشق الأسبق شهاب الدين محمود

في جمادى الأولى ٥٢٩هـ/ ١٨ فبراير ١١٣٥م على إعلا ن الخطبة باسم زنكي حاكم الموصل وحلب ،ولكن ذلك لم يكن يعني اكثر من اعتراف دمشق بسلطة زنكي اسميا فقط.وهذه الحالة أي قبول دمشق للسلطة الاسمية فقط تتكرر الآن في عهد مجير الدين.

وفي بداية عام ٥٤٦هـ/ ٢٠ أبريل ١١٥١م واجهت دمشق تهديدا جديدا أكثر خطورة من نور الدين. ففي هذه الحملة حشد نور الدين جيشا كبيرا بلغ تعداده حوالي ثلاثين ألف رجل، كما طبق نور الدين سياسة جديدة تهدف لاستنزاف اقتصاد دمشق، ففي ١٢ محرم عام ٥٤٦هـ/ الموافق ١ مايو ١١٥١م، تقدم نور الدين ناحية دمشق وعسكر في أراضي الهجيرة والراوية بالقرب من عذرا.ثم أرسل كتائب لنهب محاصيل غوطة دمشق. وكتب في ذلك الوقت إلى حكام دمشق يذكرهم أن غرضه ليس تدمير بلدهم بل حثهم على ضم قواتهم معه في حملة جهادية ضد الصليبيين. ومرة أخرى لم يستجب قادة دمشق لنور الدين فتحرك نور الدين في ٢٣ محرم ٥٤٦هـ الموافق ١٢ مايو ١١٥١م بمعسكره للمنطقة الواقعة قرب مسجد القدم على بعد مسافة قريبة من المسجد القبلي الواقع جنوب دمشق. وطبقا لرواية ابن القلانسي لم تجرؤ أي قوات منافسة لدمشق على الوصول إلى هذا الوضع منذ زمن طويل جداً. وتقدمت قوات فرنجة بيت المقدس في أثناء ذلك لنجدة قادة دمشق. وعندما وصلت أخبار تقدمهم إلى أهالي دمشق خاب أمل العديد من أهالي دمشق وخاصة العلماء والمتدينين بحكام دمشق وجاهروا برغبتهم بالدخول في ظل دولة نور الدين. وعلى أي حال، رفع نور الدين حصاره عن المدينة في الخامس والعشرين من صفر الموافق ١٢ يونيو ١١٥١م عندما وصلت إليه أخبار تقدم الصليبيين ناحية دمشق. ثم زحف نحو الزبداني ليغري الصليبيين على ملاقاة جيشه الكبير بأرض فسيحة (٦٨). ثم بعث نور الدين بأربعة آلاف من فرسانه في اتجاه حوران لقطع إمدادات الصليبيين هناك (٦٩). ويبدو أن نور الدين قد علم بأن ثمن المساعدة الذي قدمها الصليبيون لأهل دمشق ضده سوف يكون تخليهم عن بصرى. وقد ناضل أهل دمشق بهدف إنقاذ هذا الحصن من الصليبيين في محرم ٥٤٢هـ/ ٢ يونيو

١١٤٧م قبل أربعة أعوام من هذا الحدث. وبناء عليه، أرسل نور الدين قواته ليمنع الدمشقيين والصليبيين من إجبار حاكم بصرى المتمرد على حكام دمشق على التخلي عن هذا الحصن لصالح الصليبيين. ووصلت القوات الصليبية بعد عدة أيام بقيادة الملك بلدوين الثالث إلى مدينة دمشق. وقد خاب أمل كل من مجير الدين ووزيره مؤيد الدين بن الصوفي مع وصول هذا الحجم الصغير من القوات الصليبية الحليفة وسبقت القوات الصليبية القوات الدمشقية في التقدم نحو حصن بصرى. وعندما أخبر فرنجة بيت المقدس عن تقدم قوات نور الدين لحوران، اتخذوا منطقة لجاة حوران ـ صحراء تقع في الناحية الشمالية الشرقية من حوران ـ كملجأ لهم. وعندما انضمت القوات الدمشقية إلى الفرنجة هناك، تقدموا ليفرضوا الحصار على حصن بصرى. ويبدو أن الفرنجة والدمشقيين لم يستعدوا لحصار طويل لبصرى فعندما واجههم حاكم بصرى مع قواته، رفعوا الحصار عن بصرى في أوائل شهر ربيع الأول / ٢٧ يونيو ١١٥١م، ورجعت القوات الدمشقية والفرنجية إلى بلادهم دون تحقيق هدفهم بالاستيلاء على بصرى وتقديمها هدية للصليبيين (٧٠).

واستأنف نور الدين في ٢١ ربيع الأول ٥٤٦هـ/ الموافق ٧ يوليو ١١٥١م وبعد أيام قليلة من عودة الدمشقيين الى دمشق سياسة إستنزاف دمشق عن طريق نهب حوران، مرج الصفر والغوطة. وناشد مجير الدين شعبه لحماية مدينتهم وخاصة جنوده وأفراد جماعة الأحداث ولكن قليلا منهم انضم له في محاربة قوات نور الدين وبذلك تخلوا عن عادتهم الأولى بامداده بالمساعدة المطلوبة. ولم يحدث خلال هذه الحملة قتال حقيقي بين كلتا القوتين، ثم عسكر نور الدين في ٢٤ ربيع الأول ٥٤٦هـ/ الموافق ١٠ يوليو ١١٥١م في منطقة القطيعة بالقرب من مدينة دمشق. وفي العاشر من ربيع الثاني ٥٤٦هـ/ الموافق ٢٦ يوليو ١١٥١م وبعد مفاوضات طويلة بين كلا الطرفين وافق مجير الدين على حكم دمشق كنائب عن نور الدين لأول مرة. ولتأكيد هذه المعاهدة زار مجير الدين حلب في الثاني عشر من رجب ٥٤٦هـ/ الموافق ٢٥ أكتوبر ١١٥١م (٧١). وبالرغم من أن مجير الدين خضع لسلطة نور الدين لكنه رفض التخلي عن معاهدة السلام الموقعة بينه وبين صليبيي

بيت المقدس. وتأكد هذا الرأي في أواخر شعبان من نفس العام الموافق ١٤ نوفمبر ١١٥١م حين هاجم بعض التركمان بانياس التابعة لفرنجة بيت المقدس في ذلك الوقت وهزمت قواتها. وقد أثخن التركمان القتل بالفرنجة ولم ينج إلا قائدهم والي بانياس وأسرع مجير الدين مع قواته لمعاقبة التركمان، ولكنه لم يقدر على القبض على الجزء الرئيس للقوات التركمانية، إلا أنه تمكن من القبض على بعضهم الذين أثقلوا بالغنائم التي قد أخذوها من الصليبيين. وقام مجير الدين بإعادة ما غنمه التركمان إلى الفرنج، كما لم يشف غليل الصليبيين إلا الأخذ بثأرهم من حادثة بانياس وذلك بشن الغارات على سهل البقاع التابع لإمارة دمشق في أوائل رمضان من نفس العام الموافق الثاني عشر من ديسمبر ١١٥١م (٧٢). وتمكن الصليبيون عام ٥٤٨هـ/ ٢٧ مارس ١١٥٣م من الاستيلاء على عسقلان، الميناء الاسلامي الأخير في ساحل بلاد الشام (٧٣). وسنناقش موضوع استيلاء الصليبيين على عسقلان في ضوء تأثيره على إمارة دمشق. ففي الثالث عشر من محرم ٥٤٨هـ/ الموافق الحادي عشر من إبريل ١١٥٣م تقدم مجير الدين بقواته لينضم الى قوات نور الدين. وحينئذ تقدموا ناحية حصن إفلس الذي يقع على بعد عشرين ميلا شمال شرق معرة النعمان على الطريق بين معرة النعمان وحلب واستولوا عليه بالقوة. ثم تقدموا في اتجاه بانياس مع عشرة آلاف مقاتل، إلا أنهم غيروا رأيهم عندما وصلت استغاثة أهل عسقلان من قبل الصليبيين، وتقدموا الى نهر الأعوج الواقع على بعد خمسة عشر ميلا جنوب مدينة دمشق. وطبقا لرواية ابن القلانسي فإن فرصة الاستيلاء على مدينة بانياس التابعة لصليبي بيت المقدس قد كانت كبيرة لأن معظم الصليبيين في الشرق كانوا مشغولين في فرض الحصار على مدينة عسقلان، ولكن قوات نور الدين وقوات الدمشقيين انفصلتا وعادتا لبلادهما ولم ينجح أي من كلا الجيشين سواء في مساعدة عسقلان أو في الاستيلاء على بانياس. ولم يعذر ابن القلانسي كلا القائدين نور الدين أو مجير الدين في فشلهم في هذا الأمر. ووصل الجيش الدمشقي إلى الوطن في الحادي عشر من ربيع الأول ٥٤٨هـ/ الموافق ٧ يونيو ١١٥٣م. كما عادت قوات نور الدين لحمص (٧٤). وطبقا لرواية أبو شامة مؤلف

كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» حدث انشقاق وتفاقم إلى قتال بين قوات نور الدين ومجير الدين قبل عودتهم لبلادهم (٧٥).

واندلع خلاف جديد بعد حوالي أشهر من عودة القوات الدمشقية لدمشق بين قادة دمشق، وحدث الشقاق هذه المرة بين عائلة ابن الصوفي نفسها ،وظهر التنافس بين مؤيد الدين بن الصوفي رئيس دمشق ووزير أميرها وبين أخيه زين الدين حيدرة. فوقف مجير الدين بجانب زين الدين ضد مؤيد الدين، وبناء عليه، اهتزت مكانة مؤيد الدين ولكن حُلت هذه المشكلة الداخلية في ١٩ جمادى الأولى الموافق ١٠ اغسطس ١١٥٣م بعد رحيل مؤيد الدين لصرخد. ومن ثم عيّن مجير الدين زين الدين بن الصوفي كوزير جديد له بدلا من أخيه مؤيد الدين، ولكن اتضح لمجير الدين فيما بعد أن وزيره الجديد غير أمين إلى درجة أنه كان يقبل أخذ الرشاوى. وبناء عليه، طرد مجير الدين زين الدين وعين وزيراً جديداً يدعى عطاء الخادم والي مدينة بعلبك الدرزي (٧٦) ويبدو أن هذه هي المرة الأولى التي يصبح فيها أحد الدروز وزيراً لأمير دمشق.

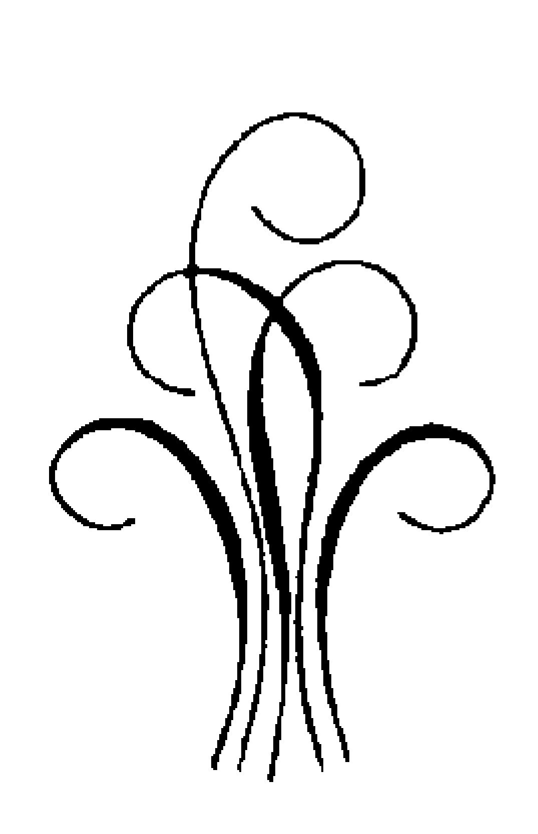
واستسلمت عسقلان في التاسع والعشرين من جمادى الأولى ٥٤٨هـ/ الموافق الثاني والأربعين من يوليو ١١٥٣م للصليبيين بعد حصار طويل امتد ثمانية أشهر، وليس المجال هنا لمناقشة الأسباب الذي أدت إلى الاستيلاء على هذه المدينة الهامة بالتفاصيل ولكن سوف يشار الى دور دمشق في تلك الكارثة وآثار هذه الكارثة على دمشق في العام التالي وهو عام ٥٤٩هـ/ ١٩ مارس ١١٥٤م. وعزم كل من نور الدين ومجير الدين على نجدة عسقلان خلال حصارها. ويبدو أن دمشق لم تكن جادة في تعهدها بتنفيذ شرط المساعدة الحقيقية لحملة نور الدين، ومن المحتمل أنه حدث هذا لعدم رغبتها في التخلي عن تحالفها مع صليبي بيت المقدس. ولم يكن نور الدين قادراً على مواجهة الصليبيين وهو في هذا الوضع بعيدا عن طرق امداداته في حلب، وفي الواقع كانت دمشق القوة الوحيدة القادرة لتقديم الدعم المطلوب لنور الدين (٧٧). ويعتبر ابن الأثير أن سقوط عسقلان قد عجل في ضم دمشق لمملكة نور الدين، لكي يؤسس نور الدين جبهة متحدة في بلاد الشام تتحدى القوى الصليبية (٧٨).

وطبقا لرواية ابن الأثير، فقد أسرع نور الدين في الاستيلاء على مدينة دمشق لأنه كان متأكدا من أن الخطوة القادمة للصليبيين بعد استيلائهم على عسقلان ستكون بالتأكيد الاستيلاء على مدينة دمشق في أقرب فرصة سانحة (٧٩). وأهم عوامل تسهيل ضم نور الدين مدينة دمشق لمملكته هو تغريره بمجير الدين بالتخلص من عطاء الخادم وزيره الجديد الذي يمكن الاعتماد عليه، وهذا الأمر سيترك مجير الدين فيما بعد - أي بعد مقتل وزيره هذا - يواجه بمفرده تهديد نور الدين، وطبقا لرواية ابن الأثير لم تكن لدى نور الدين القدرة على الاستيلاء على دمشق لو كان عطاء الخا دم على قيد الحياة. ويذكر ابن الأثير أن عطاء الخادم طلب من مجير الدين قبل إعدامه أن لا يقتله لأن هناك مؤامرة تدبر ضد مجير الدين، ولكن مجير الدين لم يسمع لنصيحة عطاء الخادم وقام بإعدامه في الخامس والعشرين من ذي الحجة ٥٤٨هـ/ الموافق ١٠ فبراير ١١٥٤م وذلك قبل سقوط دمشق في يد نور الدين بحوالي أربعين يوما فقط (٨٠).

وكخطوة أخرى لإضعاف دمشق، حرم نور الدين دمشق من تجارة حلب في ذي القعدة ٥٤٨هـ/ ٢٣ يناير ١١٥٤م والذي كان السبب الرئيس في ارتفاع أسعار الطعام ونقصانه الشديد في مدينة دمشق، ويبدو أنها المرة الأولى منذ عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م التي يحدث فيها هذا الأمر. وقد تسبب هذا النقص في الطعام في وفاة العديد من الناس (٨١). وبينما كانت دمشق تعاني من حالة الكساد هذه، كتب نور الدين لأمراء جماعة الأحداث دمشق يطلب إليهم أن يفتحوا بوابات المدينة له عندما يصل بقواته إليهم، فوافق أحداث المدينة على هذا الطلب من نور الدين، وعندما تقدم ناحية المدينة في الثالث من صفر ٥٤٩هـ/ الموافق ١٨ ابريل ١١٥٤م، فتح أفراد من جماعة الأحداث بوابات المدينة له ودخلت قوات نور الدين الى المدينة، وفر مجير الدين مع وجهاء دمشق الى القلعة لحماية أنفسهم.

وطبقا لرواية ابن الأثير وعد مجير الدين حلفاءه صليبيي بيت المقدس بأتاوة عظيمة ومنحهم مدينة بعلبك مقابل مساعدته ضد نور الدين. وعلى أية حال، وبينما كان الصليبيون في طريقهم لمساعدة دمشق ستسلم مجير الدين لنور الدين

الذي عوضه عن فقد إمارته بإعطائه حمص كإقطاعية (٨٢). وبذلك فقد الصليبيون فرصتهم الأخيرة في مساعدة حلفائهم في دمشق، وفقد مجير الدين حكم إمارة دمشق. وهكذا سقطت إمارة دمشق ـ التي أقامها طغتكين منذ واحد وستين عاما أي منذ عام ٤٨٨هـ ـ بيد نور الدين محمود صاحب حلب، وأصبح نور الدين منذ فتحه لدمشق يعرف بالملك العادل نور الدين صاحب حلب ودمشق. وبهذا طويت صفحة من جهاد أسرة طغتكين للقوات الصليبية الغازية وأن تخللها تراجعات وإخفاقات. وبهذا توحدت الجبهة الاسلامية ببلاد الشام لأول مرة منذ الغزو الصليبي بفضل الله ثم بجهاد وإصرار نور الدين محمود وإخوته المجاهدين الذين سبقوه. وسنحاول إن شاء الله في «الخاتمة» إعطاء القارىء فكرة عن أسباب سقوط أسرة طغتكين تلك ودورها التاريخي في تلك الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا الإسلامية والتي امتحنت بالغزو الصليبي الغاشم.



الهوامش

١ ـ ابن القلانسي، ص ٢٧١.
٢ ـ جيب، ص ٢٥٧؛ ابن القلانسي ص ٢٧١؛ الذهبي، ص ٩٤.
٣ ـ ابن الأثير، **الكامل**، المجلد التاسع، ص ٢٦٧؛ ابن خلدون، ص ٢٢٥، ٢٢٦.
٤ ـ ابن القلانسي، ٢٧٢؛ وليم الصوري، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.
٥ ـ وليم الصوري، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.
٦ ـ البغدادي، **مراصد الاطلاع**، مجلد ٣، ص ١٣٩٠؛ ابن القلانسي، ص ٢٧٢؛ وليم الصوري، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
٧ ـ وليم الصوري، ص ١٠٧.
٨ ـ المصدر السابق، ص ١٠٨.
٩ ـ المصدر السابق، ص ١٠٨.
١٠ ـ المصدر السابق، ص ١٠٩ ـ ١١٠.
١١ ـ المصدر السابق، ص ١١٢.
١٢ ـ المصدر السابق، ص ١١٢.
١٣ ـ جيب، ص ٢٦٠؛ ابن القلانسي، ص ٢٧٢.
١٤ ـ جيب، ص ٣٦٣.
١٥ ـ ابن القلانسي، ص ٢٧٤.
١٦ ـ جيب، د ٢٦٤؛ ابن الأثير، **الأتابكة**، ص ٦٤؛ ابن القلانسي، ص ٢٧٦.
١٧ ـ شهاب الدين أبو شامة، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين**، تحقيق: محمد أحمد، المجلد الأول، القاهرة عام ١٩٥٦م، ص ٩١ ـ ٩٢.
١٨ ـ جيب ص ٢٦٤؛ ابن القلانسي، ص ٢٧٧.
١٩ ـ جيب، ص ٢٦٥؛ ابن القلانسي، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
٢٠ ـ جيب، ص ٢٦٧؛ ابن الأثير، **الكامل**. مجلد (٨)، ص ٥٣٩؛ ابن القلانسي، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠، الذهبي، ص ٤٠٦؛، ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٠٦.
٢١ ـ ابن الأثير، **الكامل**، مجلد التاسع، ص ٢٢٠؛ ابن القلانسي، ص ٢٩٨.
٢٢ ـ ابن القلانسي، ص ٢٨٤.
٢٣ ـ جريجوري القديس، **استمرار كتاب متىً الرهوي**، المجلد الثاني، ص ٤٤٥؛ ابن العديم، ص ٢٩٠، ابن الأثير، **الأتابكة**، ص ٨٦ ـ ٨٧، ابن القلانسي، ص ٢٨٨؛ أبو شامة، **كتاب الروضتين** المجلد الأول، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

٢٤ ـ ابن الأثير، **الأتابكة**، ٨٧؛ ابن القلانسي، ص ٢٨٨؛ ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٦١؛ أبو شامة **كتاب الروضتين** المجلد الأول، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

٢٥ ـ جيب، ص ٢٧٩؛ وليم الصوري، ص ١٤٧.

٢٦ ـ وليم الصوري، ص ١٤٧.

٢٧ ـ ابن القلانسي، ص ٢٨٩؛ وليم الصوري، ص ١٤٧.

٢٨ ـ وليم الصوري، ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

٢٩ ـ جيب، ص ٢٧٥؛ ابن القلانسي، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩؛ وليم الصوري، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

٣٠ ـ وليم الصوري، ص ١٤٩ ـ ١٥٢؛ جيمس برتشارد، **أطلس التايمز** (لندن عام ١٩٨٧م)، ص ١٥١، ١٥٦، ١٥٨.

٣١ ـ وليم الصوري، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

٣٢ ـ ابن القلانسي، ص ٢٨٩؛ وليم الصوري، ص ١٥٣ ـ ١٥٥.

٣٣ ـ وليم الصوري، ص ١٥٦.

٣٤ ـ المصدر السابق، ص ١٥٦.

٣٥ ـ ابن القلانسي، ص ١٦٧.

٣٦ ـ وليم الصوري، ص ١٥٧.

٣٧ ـ المصدر السابق، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

٣٨ ـ ابن القلانسي، ٢٩٧.

٣٩ ـ وليم الصوري، ص ١٦٧.

٤٠ ـ حسين مؤنس، **نور الدين محمود**، القاهرة عام ١٩٥٩م، ص ٢٠٨؛ رانسيمان، ص ٢٦٨؛ وليم الصوري، ص ١٧٠ ـ ١٧٢.

٤١ ـ ك. م. سيتون. م. و. بلدوين **تاريخ الصليبيين، المائة عام الأولى** ماديسون عام ١٩٦٩م، ص ٤٩٧؛ وليم الصوري، ص ١٧٤.

٤٢ ـ وليم الصوري، ص ١٧٥ ـ ١٧٨.

٤٣ ـ المصدر السابق، ١٧٩.

٤٤ ـ المصدر السابق، ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

٤٥ ـ المصدر السابق، ص ١٨٢.

٤٦ ـ ابن الأثير، **الكامل**، المجلد التاسع، ص ٢٠؛ ابن القلانسي، ص ٢٩٨.

٤٧ ـ وليم الصوري، ص ١٨٦.

٤٨ ـ أحمد زينو، **تاريخ دمشق القديم**، دمشق دون تاريخ، ص ٣٨٩.

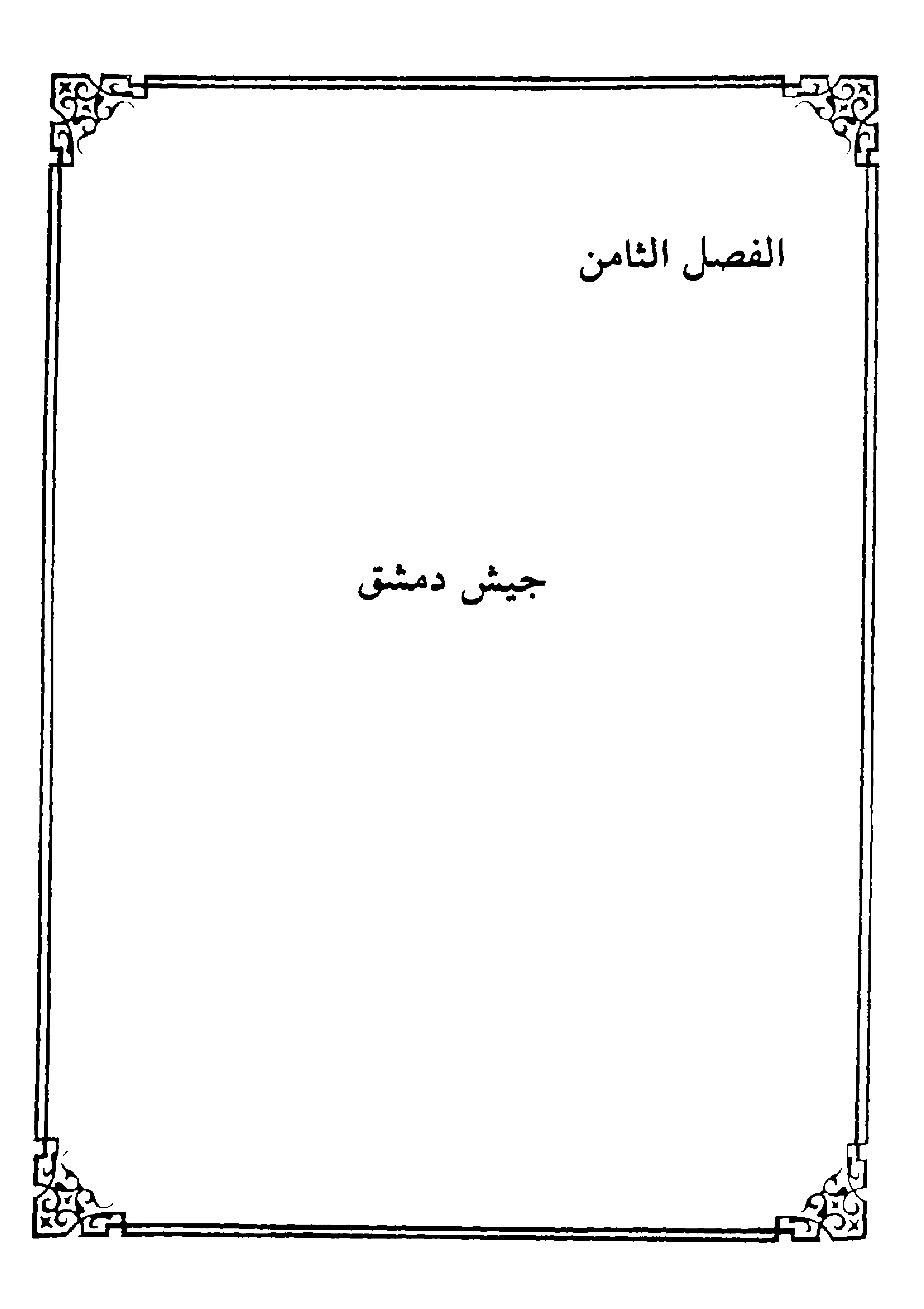
٤٩ ـ حسين مؤنس، ص ٢٢٠؛ وليم الصوري، ص ١٩٠.

٥٠ ـ ابن القلانسي، ص ٢٩٨.

٥١ ـ ابن الأثير، الكامل، المجلد التاسع، ص ٢٠؛ ابن القلانسي، ٢٩٨.

٥٢ ـ ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٦٣؛ وليم الصور ي، ص ١٩١.

٥٣ ـ **وليم الصوري**، ص ١٩١ ـ ١٩٥.
٥٤ ـ المصدر السابق، ص ١٩٤.
٥٥ ـ المصدر السابق، ص ١٩٤.
٥٦ ـ ابن الأثير **الأتابكة**، ص ٨٩.
٥٧ ـ ابن القلانسي، ٣٠٣ ـ ٣٠٤.
٥٨ ـ المصدر السابق، ص ٣٠٤.
٥٩ ـ المصدر السابق، ص ٣٠٤.
٦٠ ـ جيب ص ٢٩٢؛ ابن القلانسي، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥؛ أبو شامة، ص ٩ ـ ١٠؛ الذهبي، ص ١٢٠ ـ ١٢١؛ ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٦٤.
٦١ ـ وليم الصوري، ص ١٠٦.
٦٢ ـ ابن القلانسي، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦؛ الذهبي، ص ١٢١.
٦٣ ـ الذهبي، ص ١٢١؛ ابن القلانسي، ص ٣٠٦.
٦٤ ـ جيب، ص ٢٩٥؛ ابن القلانسي، ص ٣٠٦.
٦٥ ـ ابن القلانسي، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.
٦٦ ـ ابن القلانسي، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩؛ ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.
٦٧ ـ جيب، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠؛ ابن القلانسي، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠؛ ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.
٦٨ ـ ابن القلانسي، ص ٣١٢ ـ ٣١٤.
٦٩ ـ ابن القلانسي، ص ٣١٤؛ ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٦٧.
٧٠ ـ ابن القلانسي، ص ٣١٤ ـ ٣١٥.
٧١ ـ المصدر السابق، ص ٣١٥ ـ ٣١٧.
٧٢ ـ المصدر السابق، ص ٣١٧.
٧٣ ـ المصدر السابق، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.
٧٤ ـ أبو شامة، ص ٢٤٤؛ جيب، ص ٣١٥.
٧٥ ـ أبو شامة، ص ٢٢٤.
٧٦ ـ ابن القلانسي، ص ٣٢١.
٧٧ ـ ابن الأثير، **الكامل**، ص ٤٥؛ الذهبي، ص ١٢٩؛ ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٦٨.
٧٨ ـ ابن الأثير، **الكامل**، ص ٤٥.
٧٩ ـ المصدر السابق، ص ٤٥
٨٠ ـ ابن الأثير، **الأتابكة**، ص ١٠٧؛ ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.
٨١ ـ ابن القلانسي، ص ٣٢٥.
٨٢ ـ ابن القلانسي، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨، الذهبي، ١٣٥ ـ ١٣٦.



الفصل الثامن

جيش دمشق

إن الغرض من هذا الفصل بعد أن تم مناقشة التاريخ العام لإمارة دمشق ـ هو النظر بشيء من التفصيل لجيش دمشق ذاته، فقد اتضح لنا أن النشاط المهيمن للإمارة أثناء الفترة تحت المناقشة كان النشاط العسكري. ولقد لعبت القوات المسلحة بدمشق دورا فعالا في تاريخ دمشق أثناء هذه الفترة. وسوف نناقش في هذا الفصل المواضيع التالية ذات الصلة بجيش دمشق:

(أ) عناصر الجيش.

(ب) أجور الجنود.

(ت) أهم الرتب العسكرية.

أ- عناصر الجيش

يمكن تصنيف القوات المسلحة إلى خمس مجموعات، وهذا التصنيف لا يرتبط فقط بأصل هذه المجموعات ولكن أيضا بطبيعة خدماتهم. وتقوم بعض هذه المجموعات بالخدمة على أساس أنها قوات نظامية، ويخدم البعض الآخر على أساس تطوعي في حالة الطوارىء. وأولى هذه المجموعات التركمان والثانية الأحداث والثالثة الأكراد والرابعة العرب «البدو»، والخامسة المتطوعة، وسنتناول دراسة كل مجموعة حسب هذا الترتيب.

١ ـ التركمان:

من المهم أولا تتبع كيف تمكن التركمان من حيازة مكانة كبيرة في بلاد الشام في النظامين السياسي والعسكري. فقد هاجر التركمان إلى خراسان، والعراق، والجزيرة الفراتية وبلاد الشام وآسيا الصغرى منذ القرن الخامس/ والقرن الحادي عشر، بينما كان السلاجقة يوطدون سيادتهم في المناطق الرئيسة للخلافة العباسية. وستؤثر هذه

الهجرات ليس فقط على بلاد الشام بما فيها دمشق، ولكن ستؤثر أيضا على الامبراطورية البيزنطية وأوروبا اللاتينية «الغربية»، فقبل بداية الحروب الصليبية بستة وعشرين عاما، وبعد انتصار السلاجقة في موقعة ملاذكرد في العشرين من ذي القعدة ٤٦٣هـ/ الثامن من أغسطس ١٠٧١م، على البيزنطيين ـ قام السلاجقة بالاستيلاء على جزء كبير من هضبة الأناضول من الامبراطورية البيزنطية وكان الاستيلاء على الأناضول من قبل الأتراك فاتحة خير على المسلمين وسيمهد الطريق ، بعد حوالي ثلاثة قرون لانهيار الامبراطورية البيزنطية عام ١٤٥٣م على أيدي العثمانيين.

ففي الوقت الذي أتى فيه الصليبيون الغزاة سنة ٤٨٩هـ/٣١ ديسمبر ١٠٩٥م، واحتلالهم أجزاء من بلاد الشام والجزيرة الفراتية من السلاجقة، أصبح التركمان العنصر الأساسي في الصراع الإسلامي الصليبي (١)

ويبدو أن المجموعات التركمانية الأولى دخلت بلاد الشام منذ عام ٤٥٦هـ/ ٢٥ ديسمبر ١٠٦٣م، وكانت تُدعى الناوكية، وأتت هذه المجموعات عندما استنجد بها عطية بن صالح بن مرداس -حاكم حلب- لمساعدته ضد ابن أخيه محمود بن نصر. ونجحت مجموعة التركمان الذين تزعمهم هارون بن خان في التغلب على محمود ابن نصر. وهؤلاء التركمان لم يسمح لهم بدخول مدينة حلب في ذلك الوقت، ولكن الصراع المتجدد بين عطية بن مرداس وابن أخيه محمود بن نصر ساعدهم فيما بعد على الدخول واستيطان مدينة حلب، وحقق زعيمهم ابن خان سلطة عظيمة في المدينة. وكان الاستنجاد بالتركمان وطلب المساعدة منهم بواسطة عطية بن مرداس، بداية تغير سياسي عظيم، ليس فقط في حلب ولكن في أرجاء بلاد الشام بما فيها دمشق.

فقد استغل عطية بن مرداس ـ ذلك العربي البدوي الذي ينحدر من قبيلة بنى كلاب ـ استغل التركمان للاحتفاظ بفرض سلطته على قبيلته. فبالرغم من أنه قد أفلح في إخضاع المنشقين من قبيلته بمساعدة التركمان، إلا أنه لم يستطع كبح جماح

طموحات التركمان، الذين سيمثلون العنصر الرئيس في صراع القوى في بلاد الشام(٢).

هكذا تكون لدينا صورة عن كيفية دخول التركمان الى بلاد الشام كقوى ذات نفوذ وكيفية تدعيم نفوذهم ليس فقط في بلاد الشام برمتها، ولكن في دمشق على وجه الخصوص، وهو ما سنتحدث عنه الآن.

فقد كان الناوكية من أوائل التركمان الذين هاجروا إلى جنوب بلاد الشام واستقروا بمدينة صور سنة ٤٦٣هـ/ ٩ اكتوبر ١٠٧٠م. وترأس مجموعة التركمان قرلو، ابن أخي ابن خان الذي دخل بلاد الشام تحت حماية وسلطة القاضي ابن عقيل، الذي استبد بحكم صور واستقل عن الفاطميين، ولم تكن هذه المجموعة تخضع لسلطة السلطان السلجوقي، وستسهل انجازاتهم وبطولاتهم في بلاد الشام استعادة بلاد الشام للخلافة العباسية، وكما ذكرنا من قبل، فإن هجرة التركمان الي بلاد الشام ستضعف نفوذ القبائل العربية، القوة الأساسية ببلاد الشام في ذلك الوقت. واستخدم حكام بلاد الشام المستقلون مثل بنى مرداس في حلب، التركمان لقمع هذه القبائل العربية الثائرة مثل بنى كلب حول حلب، وبنى كلاب في الريف المحيط بحماة ، وبعد ضعف نفوذ القبائل العربية في بلاد الشام، اصبح التركمان القوة الأساسية في بلاد الشام (٣)

وعندما استوطن التركمان في بلاد الشام، ولا سيما حلب، استمروا في تخريب ونهب آسيا الصغرى وجعلوا من مدينة حلب مركزا لبيع غنائمهم من الامبراطورية البيزنطية، ففي سنتي ٤٥٩هـ ـ ٤٦٠هـ/ نهاية ١٠٦٦م، ١٠٦٨م ـ باع التركمان سبعين ألفا من الرقيق وغنائم كثيرة أخرى، وانخفضت أسعار الرقيق والسلع الأخرى بشكل كبير في حلب، فقد تم بيع الجارية بدينارين والجاموسة بدينار (٤). وهذا دليل أخر على تزايد تأثير التركمان ببلاد الشام، ليس فقط في الشؤون العسكرية والسياسة بل في المجال الاقتصادي أيضا.

وقاد الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينس الرابع بين سنتي ٤٦١هـ/١٠٦٨م

و ٤٦٣هـ/١٠٧١م حملات لإيقاف غارات التركمان ضد آسيا الصغرى (غرب الأناضول)، ففي الحملتين الأوليين لم يحرز الامبراطور رومانوس ديوجينس الرابع انتصارات حاسمة، وفي الحملة الثالثة نُكب الجيش البيزنطي بهزيمة منكرة عند ملاذكرد، وتم هزيمة الجيش البيزنطي في الحملة الثالثة بالقرب من بحيرة فان من قبل الجيش السلجوقي. ففي سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١/١٠/٩م، تمكن السلطان ألب أرسلان السلجوقي بصحبة خمسين ألف رجل، من هزيمة أكثر من مائة ألف من البيزنطيين تزعمهم الامبراطور نفسه (٥)

وفي أثناء حملة السلطان ألب أرسلان في ٤٦٣هـ/١٠٧١م للسيطرة على حلب من محمود بن نصر بن مرداس -صاحب حلب ـ والذي كان اسميا تحت سيادة السلطان السلجوقي غادر الناوكية شمال بلاد الشام إلى الجنوب تجاه ساحل البحر الأبيض المتوسط ولا سيما ضواحي طرابلس وصور وأماكن أخرى نظراً لخوفهم من غضب السلطان ألب أرسلان وكانو قد رفضوا الاعتراف بسلطته عليهم (٦)

واستنجد محمود بن نصر بن مرداس صاحب حلب في ٤٦٤هـ/ ١٠٧١/٨/٢٩م بالناوكية ضد البيزنطيين الذين كانوا يهددون حلب، وتزعم الناوكية قرلو وأفلحوا بأن يردوا التهديد البيزنطي وعندئذ رجع الناوكية الى بلادهم الى جنوب بلاد الشام .وتركوا مواقعهم في حلب، وكانت قواتهم تلك تضم ألفا من الفرسان يقودهم أحمد شاه (٧)

قام أتسز بن أوق الخوارزمي، أحد قادة السلطان ألب أرسلان الرئيسين (في عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م) بتجميع التركمان في جنوب بلاد الشام وزحف للسيطرة على فلسطين وانتزاعها من الفاطميين. ونجح خلال الفترة من ٤٦٣هـ/١٠٧١م حتى ٤٦٧هـ/١٠٧٥م في السيطرة على الرملة والقدس وطرابلس وعكا (٨).وفي عام ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥/٨/١٦م ـ كانت مدينة دمشق تعاني من انقسامات داخلية ساعدت أتسز في الاستيلاء سلميا على المدينة في ذي القعدة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦/٦/٨م وهكذا تم استعادة مدينة دمشق لسلطة الخلافة العباسية لأول مرة منذ احتلال المدينة بواسطة الفاطميين في ٤٥٩هـ/٩٦٩م. وفي عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٥/٨/٥م سار أتسز مع

عشرين ألف رجل بما فيهم التركمان والبدو والأعراب «والأكراد» لغزو مصر للإطاحة بالخلافة الفاطمية هناك. ولكن هذا الجيش تم سحقه في ربيع أول عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦/٩/٣م. وبعد نزول تلك الكارثة بقوات دمشق، نجح أتسز في الحفاظ بزعامته على التركمان وسلطته في دمشق ومعظم فلسطين. ومنح السلطان ملكشاه في عام ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧/٧/٢٥م أخاه تاج الدولة تتش كافة بلاد الشام كإقطاعية. يبدو أن هذا الأمر من السلطان ملكشاه حرم أتسز من زعامة التركمان. لذلك أضطر إلى تسليم مدينة دمشق لتاج الدولة تتش، عندما حوصرت المدينة من قبل جيش فاطمي بقيادة نصر الدولة الجيوشي، الذي أتى للانتقام من محاولة أتسز للاستيلاء على القاهرة قبل عام، ولم يفقد أتسز فقط زعامة التركمان،ولكن فقد حياته أيضا عندما أعدمه تاج الدولة بعد أيام قليلة من استيلائه على المدينة (٩) وفي نفس الوقت فقد الناوكية قائدهم قرلو الذي توفي عام ٤٦٤هـ/١٠٧٢م كرئيس لمجموعة التركمان. وخلفه في زعامة الناوكية أحمد شاه الذي سبق ذكره آنفا. وقام الناوكية عام ٤٦٧هـ/١٠٧٤م باستبدال أمير حلب الجديد شبيب بن محمود نصر بأخيه الأكبر نصر بن محمود (١٠) وبعد وفاة نصر بن محمود في الأول من شوال ٤٦٨هـ/ الموافق ١٠٧٦/٥/١٠م خلفه سابق بن محمود بن نصر في حكم حلب تحت وصاية زعيم الناوكية احمد شاه. وفي أثناء الصراع بين سابق وأخيه وثاب بن محمود، ساندت قبيلة بنى كلاب وثاب بن محمود ضد أخيه سابق بقصد الإطاحة بحكمه في حلب. وفي منطقة قنسرين هزم ألف وخمسمائة رجل فقط من التركمان تزعمهم أحمد شاه ـ هزموا حوالي سبعين ألف رجل من بني كلاب (١١). إن هذا النصر الكبير للناوكية دل دلالة واضحة على مدى تفوق التركمان عسكريا على العرب.

وبعد هذه الكارثة، استنجد وثاب بن محمود من بني كلاب بالسلطان ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان ثم أعطى السلطان ملكشاه وثاب بن محمود حلب كإقطاع سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، ومنح بقية بلاد الشام لأخيه تاج الدولة تتش، ثم زحف تتش بجيش جرار بما فيهم القوات المتبقية من بني كلاب ومسلم بن قريش الذي جلب

جيش الموصل لفرض حصار على حلب، وأرسل مسلم بن قريش بالموصل وهو قائد عربي من بني عقيل ـ أرسل سرا إلى سابق بن محمود بحلب ليستحثه على مقاومة تاج الدولة تتش. وكان مسلم بن قريش معارضا تحالف العرب من بني كلاب مع الأتراك السلاجقة ضد إخوانهم العرب من بني كلاب في حلب، وعندئذ أرسل سابق بن محمود ـ صاحب حلب ـ لبني كلاب حلفاء تتش، مقترحا عليهم بأن يهجروا تتش، وأبلغهم بأنه عازم على ضمان سيادتهم على أراضيهم وحفظ شرفهم، وذكرهم بأنهم اذا فقدوا حلب وأخذها تاج الدولة تتش، فإن قوتهم ببلاد الشام ستتلاشى تماما، وبهذا يخسرون كل شيء. وفعلا كان لهذه الخطة أثر على سير الأحداث. فقد وافقت قوات بني كلاب الذين التحقوا بتتش على الانسحاب من حصار حلب، كما ترك مسلم بن قريش مع قواته جيش تتش كما تم الاتفاق عليه. وعاد أغلبية بنى كلاب الي ديارهم ودخل بعضهم حلب لمساعدة سابق بن محمود. وانسحبت قوات الموصل الى الموصل، كما قاموا ببيع مؤنهم التي أتوا بها لأهل حلب كي يساندوهم ضد تتش. وعندما اكتشف تتش خيانة حلفائه، تخلى عن حصار المدينة (١٢).

إن إقامة سلطة السلاجقة ببلاد الشام ـ باستثناء الساحل الفلسطيني في نهاية القرن الخامس الهجري/ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، كما تم ايضاح ذلك في الفصل الأول، جعلت التركمان القوة العسكرية الفعالة الأولى ببلاد الشام، وبعد التأكيد وايضاح دور التركمان كالقوة العسكرية الرئيسة الأولى ببلاد الشام عموما، نتحول الى دورهم الخاص في جيش دمشق. كما ذكرنا في الفصل الثاني، فإن طغتكين أمير دمشق ينتمي لأصل تركماني، ويبدو أن هذا ساعده في إقناع العديد من التركمان بالخدمة في جيشه. كما ذكر أعلاه بالفصل الثاني، ففي عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ارسل السلطان تاج الدولة تتش طغتكين إلى ميافارقين ليصبح اتابك لابنه دقاق هناك. ويبدو أن حضوره بديار بكر ـ المقر الرئيس لاستقرار التركمان ـ ساعد طغتكين على توطيد علاقة قوية مع قادة التركمان هناك، وستكون هذه العلاقة الطيبة مع قادة التركمان ضرورية لطغتكين في حالة الحاجة الماسة لها. وكما

ذكر في الفصل الثاني، فبعد استيلاء الصليبيين على القدس في شعبان ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩/٥/١٦م، سار الملك دقاق ملك دمشق وأتابكة طغتكين مع عسكر دمشق لاستعادة ميافارقين من واليها المتمرد على دمشق. ويبدو أن أهمية ميافارقين كمركز أساسي للتركمان في ديار بكر، ولكونها المصدر العسكري الرئيس لجيش مملكة دمشق، أرغمت كلا من الملك دقاق وأتابك طغتكين على القيام بهذه الحملة (١٣).

وبالرغم من أن ديار بكر بما فيها ميافارقين سيستولي عليها ملك دمشق أخيرا (كما ذكر ذلك في الفصل الثاني)، إلا أن هذا لن يوقف طلب دمشق المساعدة من تركمان ديار بكر، ولهذا ليس من المستغرب علينا أن نرى طغتكين أمير دمشق يتحالف في عام ٥١١هـ/ ١١١٧/٥/٥م، مع آيل غازي بن أرتق صاحب ماردين وحصن كيفا، القائد الرئيس للتركمان بديار بكر. أضف الى ذلك، فقد زوج طغتكين ابنته لحليفه آيل غازي، وسيعزز هذا الزواج التحالف بين الطرفين.

ومنذ عهد طغتكين، أصبح التركمان عنصر القوة العسكرية الرئيس لإمارة دمشق (١٤). من ناحية أخرى، كان غالبية متطوعة جيش الامارة متشكلا من التركمان. ولعب هؤلاء التركمان المتطوعة دورا فعالا في مساعدة دمشق، خاصة عندما كانت تتعرض لتهديد قوى خارجية، وأول ذكر لدينا لتلك القوات غير النظامية هو سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦/٩/٢م، عندما سار طغتكين بصحبة قوات دمشق المسلحة بما فيهم التركمان المتطوعة تجاه سواد طبرية، وأفلح في الاستيلاء على حصن هناك من صليبيي بيت المقدس. ويعد ابن القلانسي أول مؤرخ لهذا العصر يذكر ذلك الحدث، لكنه لم يذكر اسم الحصن (١٥) وفي عام ٥١٠هـ/ ١١١٦/٥/١٦م وعندما تعرضت دمشق لغارات السلب والنهب من قبل الصليبيين، استنجد طغتكين بالتركمان وأسرع ألفان منهم الى دمشق للتعاون مع الجيش النظامي في الجهاد ضد الصليبيين. ويذكر ابن القلانسي بأن عددا غفيرا من هؤلاء التركمان شنوا غارات عديدة على الصليبيين في مرج الصفر، مما أجبر الصليبيين على الانسحاب والعودة لديارهم (١٦)

وأثناء حصار الصليبيين مدينة دمشق في عام ٥٢٣هـ/ ١١٢٨م، أسرع التركمان

لنصرة دمشق، بالرغم من أنه ليس لدينا رقم محدد لعدد التركمان المتطوعة الذين نصروا اخوانهم الدمشقيين، إلا أن أحد الأسباب الرئيسة التي أرغمت الصليبيين على التخلي عن حصارهم للمدينة كان قلقهم وتخوفهم من الأعداد الهائلة من التركمان. وابن القلانسي الذي اعتاد عدم إعطاء تقدير لأعداد الجيوش الإسلامية، قدر عدد قوات الصليبية في هذه الحملة بما يربو على ستين ألف رجل. واذا تم ترويع ستين ألفا من الصليبيين باعداد هائلة من التركمان. فإن هذا يعطينا مؤشرا عن عظم أهمية التركمان في نجدة دمشق، كما لا تعطينا المصادر التاريخية لهذا العصر تقديرا لعدد التركمان الذين ساعدوا جيش دمشق ضد الحملة الصليبية الثانية أثناء حصار الصليبيين لدمشق عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨/٥/٢٢م وبالرغم من ذلك وضح أبو الفدا بن كثير الدمشقي أن مائة وثلاثين ألف رجل من دمشق انضموا للقتال في هذه الحرب ضد الصليبيين (١٧) وبالرغم من ذلك، لا يبدو أن هذا التقدير تقدير للقوات المشتركة في القتال ولكنه تقدير لكل سكان دمشق آنذاك بما فيهم المدنيون.

ويمكن تقدير جيش دمشق النظامي بحوالي ٣٠ ألفا، ومن المحتمل أيضا أن ما يزيد على عشرة آلاف من التركمان أتوا لمساعدة دمشق. بالرغم من ذلك، لا تعطينا المصادر التاريخية المعروفة لذلك العصر تقديرا لنسبة التركمان. في الجيش الدمشقي، إلا أنه يبدو أن حوالي ٨٠٪ من جيش دمشق كانوا من أصل تركماني. ويظهر أن الجنود التركمان النظاميين في جيش دمشق اعتادوا الحياة في مدينة دمشق، بينما اعتاد التركمان المتطوعة الاقامة في المناطق المحيطة بمدينة دمشق (١٨). علاوة على ذلك، يبدو أن أغلبية قادة جيش دمشق كانوا تركمان لأن أسماءهم تركية مثل سِوَار، لُجَّةَ التركي، بِزْواج وكُمُشْتكين .. الخ. ولم يخدم التركمان فقط كقوات نظامية ومتطوعة في دمشق بل أنهم خدموا أيضا كحرس خاص لأمراء دمشق (١٩)

٢ ـ الأحداث

تأسست حركة الأحداث في بلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ويسمى المؤرخون المسلمون أحداث هذا العصر بالزناطرة، الشطار والزعار،

وتتكون هذه الحركة الشعبية أساسا من الفقراء، وتاريخ الحركة غامض جدا نظرا لنقص المصادر المتصلة بها، وكانت المراكز الرئيسة للحركة هي مدن دمشق وحلب.

ويبدو أن هذه الحركة لم تنتشر أبعد من هاتين المدينتين الكبيرتين خاصة في القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي، كما يظهر أن السبب وراء إقامة هذه الحركة كان ضعف السلطة السياسية في بلاد الشام في ذلك الحين. فعندما أخفقت الحكومات الرسمية في تلك المدن في صيانة حق المظلومين بواسطة سلطاتهم، أسس أهل هذه المدن هذه الحركة لتأمين حقوقهم بأنفسهم دون حاجة الى الرجوع للحكومة المركزية، وكان الهدف الرئيس من هذه الحركة هو حماية الفقراء من ظلم الأغنياء في وقت تحولت هذه الحركة المدنية الى حركة عسكرية وأصبحت ذات سلطة عسكرية معتبرة في كل من دمشق وحلب. وقد عملت كل جماعة من جماعات الأحداث مستقلة عن الأخرى، فلم يكن هناك صلة بينهم (٢٠). وبما أن هذا البحث يتناول إمارة دمشق، فإن تاريخ هذه الحركة في دمشق سيكون بؤرة الاهتمام. وكادت جماعة أحداث دمشق في عام٣٥٩هـ/٩٦٩م أن تحبط محاولة الفاطميين الاستيلاء على المدينة التابعة اسميا للخلاف العباسية، لكن مجموعة من التجار والوجهاء الدمشقيين خيبوا آمال المدافعين عن المدينة بالموافقة على تسليم المدينة للقائد الفاطمي جعفر بن فلاح، وعندئذ أعاق هذا موقف مقاومة جماعة الأحداث على غير إرادتهم وسلمت المدينة لجعفر بن فلاح (٢١)

وأذعن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في عام ٣٦٣هـ/ ٩٧٣/١٠/٢٠م لطلب الأحداث بطرد ظالم بن موهوب العقيلي كحاكم لدمشق. وعين واليا جديدا يدعى جيش بن الصمصامة بدلا من الحاكم السابق (٢٢)

وبعد هزيمة حاكم دمشق المتمرد ألبتكين «أفتكين» في عام ٣٦٨هـ/ ٩٧٨/٨/٨م من قبل الجيش الفاطمي بقيادة الخليفة الفاطمي العزيز بالله بنفسه، وأفلح قائد جماعة الأحداث بدمشق المدعو قسام التراب في الاستيلاء على المدينة. ونصب نفسه واليا لدمشق واعترف بالسلطة الرسمية للفاطميين على المدينة. وتظاهر الخليفة الفاطمي العزيز بالله ـ والذي من المحتمل انه قد أدرك الدور الفعال للأحداث

في دمشق- تظاهر بتثبيت الوالي الجديد في منصبه. ولكن أرسل العزيز في العام التالي ٣٦٩هـ/ ٩٧٩/٧/٢٩م أربعة آلاف محارب لاستعادة دمشق من جماعة الأحداث، لكن القوات الفاطمية لم تتمكن من سحق الأحداث. وانسحب الجيش الفاطمي من المدينة عندما تعهد قسام التراب ألا يسلم المدينة لأي حاكم يعترف بالسلطة العباسية. ولكن بعد سنتين أي في عام ٣٧١هـ/ ٩٧٩/٧/٢٩م، وتحت ضغوط وجهاء دمشق، أُرغم قسام التراب على تسليم دمشق للقوات الفاطمية. وبالرغم من أن الأحداث استسلموا للسلطة الفاطمية، إلا أنهم لم يفقدوا دورهم المتميز كحركة عسكرية في المدينة (٢٣). وتآمر والي دمشق الفاطمي الجديد بشارة الأخشيدي ضد زعماء الأحداث فذبح مائتي عضو من الأحداث بما فيهم اثنا عشر من قادتهم أثناء حفل قام بترتيبه ذلك الوالي، الذي أمر بقتل أعضاء جماعة الأحداث في دمشق، الغوطة ومرج الصُغَّر. وطبقا لرواية ابن القلانسي، قُتل ثلاثة آلاف من جماعة الأحداث في هذه المذبحة. وهذا الحدث يخبرنا كيف أن جماعة الأحداث قد كسبت عدداً كبيراً من الأتباع ليس فقط من مدينة دمشق ولكن ايضا من المناطق المحيطة مثل غوطة دمشق ومرج الصُفَّر (٢٤). ويبدو أن تلك الكارثة التي لحقت بحركة الأحداث حطمت الحركة برمتها تقريبا. ولكن سيعاد تنظيم جماعة الأحداث بعد منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ولا تتحدث المصادر التاريخية الرئيسة عن هذه الحركة منذ تلك المذبحة حتى عام ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥/١٢/٣م، ففي هذا العام ثارت الأحداث ضد الوالي الفا طمي أمير الجيوش بدر الجمالي (٢٥). ويبدو أن الحكم الفاطمي غير المستقر في دمشق ساعد جماعة الأحداث في تنامي اعدادهم بانضمام عناصر جديدة، ففي أقل من قرن أي من عام ٣٥٩هـ/٩٦٩م حتي ٥٤٨هـ/١٠٦٦م تم تعيين ٦٨ واليا فاطميا على دمشق (٢٦). وفي سنة ٤٦٨هـ/١٦ /١٠٧٥/٨م عانت دمشق من مجاعة وانقسامات داخلية بين القوات المسلحة الفاطمية وأحداث دمشق. وعندما وصلت أخبار هذه المجاعة والانقسامات للقائد التركماني أتسز بن أوق ـ الموالي للسلاجقة ـ أسرع بصحبة قواته التركمانية لفرض حصار على المدينة. ويبدو أن الأحداث أجبرت الوالي

الفاطمي زين الدولة انتصار بن يحيى على سلم المدينة لأتسز. وهكذا عادت دمشق للخلافة العباسية لأول مرة منذ عام ٣٥٩هـ/ ٩٦٩/١١/١٤م (٢٧)

وفي أثناء حكم الملك دقاق بن تتش لدمشق (٤٨٨هـ - ٤٩٧هـ/١٠٩٥م - ١١٠٤م)، لعبت في عام ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥/١٢/٣١م جماعة الأحداث دورا فعالا في حماية المدينة والتصدي لمحاولات الملك رضوان بن تتش - صاحب حلب - للاستيلاء على المدينة من أخيه الملك دقاق. وبالرغم من أن الملك دقاق وأتابكة طغتكين مع عسكر دمشق كانوا متواجدين خارج المدينة آنذاك، فإن أحداث دمشق وبقية قوات المدينة نجحت في إحباط تلك المحاولة (٢٨). وساعدت جماعة أحداث بعلبك في شعبان عام ٥٠٣هـ/ ١١١٠/٢/٢٥م أمير دمشق طغتكين ضد واليهم المتمرد كمشتكين الخادم التاجي (٢٩). ومن هذا يتبين لنا كيف أن حركة الأحداث لم تنتشر فقط في مدينة دمشق فقط ولكن أيضا بين مدن الإمارة، وتبين أنه ليس فقط تم جذب أهل السنة في الإمارة، ولكن أيضا مذاهب أخرى مثل الشيعة الاثنى عشرية ببعلبك فقد كانت بعلبك آنذاك وإلى وقتنا الحاضر أحد المراكز الرئيسة للشيعة الإثنى عشرية.

ويبدو أن الواجب الرئيس للأحداث هو الحفاظ على الأمن في مدن الإمارة ولكن كانوا أحيانا في الحالات الطارئة، يساعدون الجيش الدمشقي النظامي خارج المدن، ففي عام ٥١٩هـ/ ١١٢٥/٢/٧م ساعدت الأحداث عسكر دمشق في إحباط محاولة صليبيي بيت المقدس نهب منطقة حوران التابعة لإمارة دمشق (٣٠). وفي ١٧ من رمضان ٥٢٣هـ/ الموافق ١١٢٩/٩/٤م، لعبت الأحداث دورا أساسيا في سحق جماعة الباطنية في مدينة دمشق. ويبدو أن قائد الأحداث - هو نفسه رئيس دمشق أثناء الفترة التاريخية التي ندرسها، وعندما ذكر ابن القلانسي مذبحة الباطنية تلك في دمشق ذاك العام، امتدح دور رئيس دمشق ذلك المدعو ثقة الملك أبو الذؤاد بن الصوفي (٣١). وفي شوال ٥٣٤هـ/ ١١٤٠/٦/٢٢م، كان لتعاون بين جيش دمشق النظامي والأحداث، عاملا رئيسا في إعاقة محاولة زنكي - صاحب الموصل وحلب - للاستيلاء على مدينة دمشق (٣٢). وأوقف الأحداث في محرم ٥٤٣هـ/

٢٢/٥/١١٤٨م وعسكر دمشق وكذلك المتطوعة الحملة الصليبية الثانية التي استهدفت احتلال مدينة دمشق (٣٣). ويبدو أن نور الدين محمود بن زنكي - صاحب حلب - أدرك أنه لا أمل له في الاستيلاء على دمشق حتى يكسب مساندة أحداث دمشق فعمل على كسبهم لجانبه، وقد حقق نجاحا في هذا المسعى، ولهذا نرى أن أعضاء كثيرين من حركة الأحداث فضلوا الانضمام لنور الدين على الانضمام للأمير مجير الدين أمير دمشق، ففي أثناء حصاره لدمشق في ٥٤٦هـ/ ٢٠/٤/١١٥١م، التحق عدد قليل من الأحداث بعسكر دمشق للدفاع عن المدينة، بينما كانوا جميعا سابقا يلتحقون بعسكر الإمارة للدفاع عن عاصمتهم مدينة دمشق (٣٤). وبعد ثلاث سنين من ذلك التاريخ أي في عام ٥٤٩هـ/ ١٨/٣/١١٥٤م، تآمرت أحداث دمشق مع نور الدين محمود ضد الأمير مجير الدين وفتحوا بوابات مدينة دمشق لجيش نور الدين (٣٥).

وهكذا كانت نهاية حكم أسرة طغتكين حُكام دمشق على ايدى جماعة الاحداث الذين عُرفوا سابقا بإخلاصهم لهذه الأسرة، ويمكننا الاستنتاج ان هذه الجماعة التي انبثقت في البداية كحركة تعرف على أنها تمثل عناصر مضطهدة وساخطة من أهالي مدينة دمشق، قد تطورت الى منظمة ذات سلطة معترف بها رسميا من قبل حكام دمشق.

٣ - الاكراد:

بدأ تجنيد الأكراد في الجيوش المسلمة في السنوات الأولى من حكم السلاجقة (بداية القرن الخامس/ القرن الحادي عشر الميلادي). فقد التحق عشرة آلاف كردي بجيش ألب أرسلان في معركة ملاذكرد التي وقعت في ٢٠ ذي القعدة ٤٦٣هـ/ الموافق ٨/٨/١٠٧١م، ضد الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينس الرابع، وكانت خبرتهم في الرماية وقدرتهم على تحمل المعيشة القاسية مع فضائل عسكرية أخرى كانت الأسباب الرئيسة لتفضيل قوات الأكراد في الجيوش المسلمة (٣٦). والاشارات الأولى حول دخولهم الخدمة في جيش دمشق ترجع الى ٤٦٩هـ/ ٥/٨/١٠٧٩م. فقد قام ملك دمشق المعروف بأتسز بتجميع عشرين ألف رجل بما فيهم التركمان

والأكراد والأعراب لغزو مصر وإلغاء الخلافة الفاطمية فيها (٣٧). ولا تذكر المصادر التاريخية الرئيسة أي شيء عن الدور الذي لعبه الأكراد في جيش دمشق أثناء الفترة الأولى من حكم أسرة طغتكين، وأول ذكر للأكراد كان في عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤/٧/٤م، عندما أسس القائد الوحيد للأكراد في هذه الفترة الأمير مجاهد الدين بُوزان بن مامِين، جامعا بالقرب من بوابة الفراديس، ويوضح لنا هذا بأنه يمكن تقدير عدد الأكراد في جيش دمشق ببضع مئات لأن ذلك القائد (مجاهد الدين بُوزان) كان القائد الكردي الوحيد في دمشق برتبة مقدم، ذلك أن المقدم يقود عدة مئات من الجند. ويؤكد لنا هذا الخبر أن بعضا حاز رتبا عالية جدا في جيش دمشق وهي رتبة إمارة جيش ، وكان الأمير في جيش دمشق، يقود حوالي ألف شخص، وكما ذكر في الفصل السابع أرسل الأتابك أنر هذا الأمير الكردي مع عدد كبير من قوات دمشق في عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩/٥/١١م للالتحاق بقوات نور الدين في حلب لجهاد صليبيي أنطاكية (٣٨). ومن الصعوبة مع ذلك الاستدلال على العدد التقريبي للأكراد في جيش دمشق، وكان لهم سمعة طيبة كرماة متميزين وكجنود ممتازين عموما.

(٤) ـ الغلمان:

الغلمان جنود أرقاء اعتادوا الخدمة في الجيوش الاسلامية حتى قبل عصر ظهور طغتكين وعائلته بدمشق، وخدم الغلمان في جيش دمشق أثناء حكم الملك أتسز بدمشق عام ٤٦٨هـ/١١٧٥م حتى ٤٧١هـ/ الموافق ١٠٧٩م. وأثناء حملة الملك أتسز لغزو مصر عام ٤٦٩هـ/١٠٧٦م هرب سبعمائة من الغلمان من جيش أتسز الى الجيش الفاطمي الذي كان يترأسه بدر الجمالي. وهذا العدد من الغلمان لم يكن العدد الإجمالي لكل الغلمان في الجيش الدمشقي (٣٩). وجنَّد طغتكين ـ صاحب دمشق ـ العديد من الغلمان في الجيش الدمشقي وكانوا يعرفون على أنهم الغلمان الأتابكية نسبة لسيدهم الأتابك طغتكين. ويبدو أن قادة هؤلاء الغلمان كانوا رقيقا أيضا، وكان يُطلق عليهم حجَّاب. وازداد نفوذ الغلمان حتى أصبحوا عنصرا هاما أثناء حكم الأمير شمس الملوك اسماعيل.

وتآمر الغلمان في عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٤/١١/٢٢م مع أم شمس الملوك التي تدْعى صفوت الملك لقتل ابنها شمس الملوك (٤٠) ويورد ابن القلانسي أنه كان لشمس الملوك غلمان أتراك لعبوا دورا متميزا في استعادة حماة عام ٥٢٧هـ/ ١١٣٢/١١/١٢م من زنكي صاحب الموصل وحلب (٤١). ويبدو أن أغلبية الغلمان الذين خدموا في جيش في دمشق في أثناء هذه الفترة كانوا من الأتراك.

(٥) ـ العرب البدو:

أضعف قدوم التركمان الى بلاد الشام، حوالي منتصف القرن الخامس الهجري/ الموافق القرن الحادي عُشر الميلادي من سلطة العرب هناك، ويبدو أن العرب نادرا ما التحقوا بجيش دمشق النظاميّ، ولكنهم خدموا في جيش دمشق كمتطوعين. ففي عام ٤٧٠هـ/١١٧٨م ساعد العرب من بني كلاب السلطان تاج الدولة تتش بدمشق لاستعادة بلاد الشام واعادتها لسيادة الخلافة العباسية (٤٢)؛ وفي عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م سار بنو كلاب يقودهم وثاب بن محمود بن صالح بن مرداس مع جيش فخر الملوك رضوان بن تاج الدولة تتش لمساندة قوات أبيه قرب اصفهان عندما كان تتش يحاول الفوز بالسلطنة السلجوقية (٤٣). كما ساعد العرب طغتكين عام ٥٠٣هـ/ ١١١٩/٧/٣١م في أثناء حملة مودود ضد الصليبيين، ويورد ابن القلانسي أن العديد من أهالي بلاد الشام انضموا لجيش دمشق. ويبدو أن كثيرا من أهالي بلاد الشام كانوا عربا.

وفي عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣/٦/١٨م فبينما كان مودود ـ صاحب الموصل ـ يقود جيش السلطان محمد السلجوقي بالتعاون مع القوات الدمشقية التي كانت تحاصر الجيوش الصليبية بالقرب من جبال طبرية، قام عرب طي، بنو كلاب وخفاجة بتزويد القوات المسلمة بالمياه هناك (٤٤)، وبالرغم من أن هؤلاء العرب لم يساندوا القوات السلطانية والدمشقية بمساعدة عسكرية مباشرة إلا أن توفير المياه للجيش في تلك الظروف الصعبة يعتبر خدمة أساسية لا تقل عن أهمية توفير السلاح للقتال. وفي ذي القعدة ٥٢٣هـ/ أكتوبر ١١٢٩م لعب العرب بقيادة مرة بن ربيعة دورا هاما في إحباط محاولة الصليبيين لغزو دمشق، كما أشرت عنه في الفصل

الثالث(٤٥)، لذا نري أن العرب «الأعراب» الذين التحقوا بالجيش الدمشقي كجنود غير نظاميين لعبوا دورا في تدعيم القوات النظامية، وأن دور هؤلاء البدو إرتكز على توفير المساعدة السوقية كتوفير الماء وكذلك العلف، بل امتد في بعض الأحيان دورهم الى القتال مع الجيش الدمشقي ضد الغزاة الصليبيين.

(٦) المتطوعة:

لعب المتطوعة في الجيش الدمشقي دورا فاعلا في حماية الإمارة ضد أعدائها، وُهناك فرق بين المتطوعة والأجناد، فالأجناد هم جنود أُعطوا إقطاعا من قبل الوالي أو خدموا مع صاحب إقطاع. ويخدم المتطوعة في جيش دمشق فقط عندما يتلقون الأوامر للقيام بذلك من قبل حاكم دمشق. ويبدو أن الأجناد كانوا أقرب الى كونهم قوات نظامية عن كونهم قوات متطوعين، فهم يلتحقون بجيش دمشق طواعية دون الزام رسمي من أمير الإمارة. ومن دون شك أن العدوان الصليبيي على المشرق الاسلامي ايقظ روح «الجهاد»، ولا سيما عند شعب إمارة دمشق، ولهذا إزداد عدد المتطوعةبصورة واضحة، وعلاوة على ذلك، فإن قسوة الصليبيين في أثناء سنواتهم الأولى في تعاملهم مع المسلمين مثل شعب بيت المقدس ومعرة النعمان اضطرت العديد من المقيمين في تلك المناطق للهجرة الى أماكن أكثر أمنا، وكانت مدينة دمشق هي المدينة المفضلة لهؤلاء اللاجئين للإقامة فيها. فعندما تمكن الصليبيون في الاستيلاء على مدينة صيدا عام ٥٠٤هـ/ ١١١٠/٦/٢٠م، انتقل أهل تلك المدينة جميعا إلى دمشق بما فيهم جيش صيدا (٤٦).

كما هاجر أهل صور جميعا بعد استيلاء الصليبيين عليها عام ٥١٨هـ/١١٢٤م (٤٧). ويبدو أن هجرة هؤلاء الأهالي إلي دمشق لم تزد فقط من تعداد سكان دمشق، ولكن زادت أيضا من عدد القوات النظامية والمتطوعة بالإمارة.

ويذكر ابن كثير ـ المؤرخ الوحيد لهذا العصر الذي يقدم لنا تقديرا عن سكان مدينة دمشق أثناء تلك الفترة التاريخية ـ أن مائة وثلاثين ألفا من الناس التحقوا بالمقاومة ضد الحملة الصليبية الثانية في محرم ٥٤٣هـ/ ١١٤٨/٥/٢٢م التي كانت

تهدف للاستيلاء على مدينتهم دمشق. ويبدو أن هذا التقدير لم يكن لقوات المدينة فقط، ولكن الأحرى أنه تقدير لكافة سكان المدينة (بما فيهم القوات المسلحة كما ذكر من قبل في الفصل السابع)، وامتدحت المصادر التاريخية المعاصرة دور العلماء مثل العالم العجوز الفقيه «أبو الحجاج يوسف الفندلاوي» الذي عارض توسل الأتابك أنر له بأن يحجم عن الالتحاق لجهاد الصليبيين بسبب كبر سنه. فقاتل ضد الصليبيين كمتطوع وقُتل في ميدان المعركة طمعا في الشهادة (٤٨). ويبدو أن شجاعة هذا العالم الكبير ومتطوعين آخرين شجعوا عددا كبيرا من الدمشقيين في الإلتحاق للدفاع عن مدينتهم من خط الغزاة الصليبيين. وتخصصت مجموعة من المتطوعين تسمى الحرامية، بقطع طريق الامداد عن العدو، ويبدو أن هؤلاء الحرامية لم يكونوا يتلقوا أي مبالغ من الإمارة، ولكن أي غنيمة أفلحوا بوضع أيديهم عليها تصبح مكافأة لهم، ففي عام ٥٠٥هـ/ ١١١١/٧/١م، خول طغتكين رسميا الحرامية بسرقة القوات المسلحة التابعة لصليبيي بيت المقدس الذين كانوا محاصرين لمدينة صور، وهذا يبين لنا أن الحرامية لم يعملوا بمحض إرادتهم ولكنهم كانوا الى حد ما كانوا تحت سيطرة أمراء دمشق (٤٩).

ب ـ دفع رواتب الجنود:

كانت هناك عدة طرق لدفع رواتب القوات المسلحة الدمشقية، وأول هذه الطرق تدعى الجاماكيات وهي رواتب منتظمة،قد تدفع شهريا أو سنويا، وتدفع هذه الجاماكيات للقوات النظامية فقط، وقام تاج الملوك بوري وشمس الملوك إسماعيل بزيادة تلك الجاماكيات عندما توليا السلطة بإمارة دمشق (٥٠) ويبدو أن الجاماكيات لم تتناقص أثناء حكم أسرة طغتكين. والنوع الثاني من الرواتب كان على صورة إقطاع عسكري، فقد اعتاد أمراء دمشق منح أمراء ومقدمي الجند إقطاعات عسكرية، وكان كل قائد بدوره ملزما بمد أمير دمشق بعدد معين من الجنود في حالة الحاجة. وكانت هذه القوات تسمى الأجناد، وهم غير عسكر دمشق «النظامية» التي تحصل على جاماكيات، واعتاد كل مالك لإقطاع عسكري على إنفاق ثلثي ريع الإقطاع على حاجات جنوده، ويبدو أنه كان يوجد ديوان للإقطاع في الإمارة يتحمل مسؤولية

توزيع وادارة شؤون تلك الإقطاعات. وكان على الأجناد بما فيهم مقدميهم أن يسجلوا أسماءهم بهذا الديوان (٥١).

ويبدو أن أمراء دمشق وزعوا الإقطاعات خارج مدينة دمشق، وتوحي المصادر التاريخية لهذا العصر أن أمراء دمشق لم يمنحوا إقطاعات عسكرية في مدينة دمشق أو الملاصقة لها كغوطة دمشق المنطقة الأكثر خصوبة في بلاد الشام في ذلك الحين، وتمدنا المصادر التاريخية لهذا العصر ببعض الأمثلة عن تلك الإقطاعات العسكرية. ففي شعبان عام ٤٩٦هـ/١١ مايو ١١٠٣م منح ملك دمشق دقاق أتابكه طغتكين مدينة حمص كإقطاع، وفي عام ٥٠٠هـ/ بدأ في ٢ ديسمبر ١١٠٦م، منح أمير دمشق طغتكين قائدا تركمانيا يُدعى اصفهبد التركماني وادي موسى (على الطريق بين دمشق والحجاز) ومآب وهي (بلدة في منطقة البلقاء تقع شرق البحر الميت) (٥٣)، الجبال، (شمال منطقة الشراة الجبلية الي جنوب البحر الميت) (٥٤)، وكذلك منطقة البقاء (٥٥) كما وهب طغتكين في عام ٥٠٢هـ/ ١١ اغسطس ١١٠٨م، الأمير فخر الملك بن عمار - الحاكم السابق لطرابلس - منطقة الزبداني (٥٦)، وفي عام ٥٤٢هـ/ ٢ يونيو ١١٤٧م، منح أمير دمشق مجُير الدين أبق قائده الكردي الثقة الأمير مجاهد الدين بوزان بن مامين منحه حصن صرخد في منطقة حوران جنوب دمشق كإقطاع (٥٧).

جـ - الرتب العسكرية:

يمكن تصنيف الرتب العسكرية الأساسية بدمشق الى ما يلي:

(١) الإسفهسلار (٢) الرئيس (٣) الشحنة

١ - الاسفهسلار

كان الاسفهسلار قائد الجيش الدمشقي، وهو الذي يقود الجيش عند القتال كما ذكرنا من قبل في الفصل الثاني، ففي عام ٤٨٧ هـ / ٢١ يناير ١٠٩٤م، عين السلطان تاج الدولة تتش - صاحب دمشق - طغتكين اسفهسلارا لجيش دمشق. ويظهر أن طغتكين قد احتفظ بهذه الرتبة في أثناء حكم الملك دقاق بن تتش

صاحب دمشق (٤٩٧هـ ـ ٤٨٨هـ / ١٠٤٠ ـ ١٠٩٥م)، وابقى هذا المنصب لنفسه عندما أصبح حاكما لإمارة دمشق من ١٢ رمضان ٤٩٧هـ وحتى ١ صفر ٥٢٢هـ (٨ يونيو ١١٠٤م حتى فبراير ١١٢٨م). ولا تشر المصادر التاريخية لهذا العصر فيما لو عين الأمير تاج الملوك بن طغتكين وابنه الأمير شمس الملوك اسماعيل، أي قائد عسكري لهذا المنصب أثناء حكمهما لإمارة دمشق، ويبدو أنهما احتفظا بهذا المنصب الهام لأنفسهم كما فعل طغتكين قبلهما. فقد اعتاد كل منهما أن يقود جيش دمشق بصفة شخصية. ولكن في أثناء حكم الأمير شهاب الدين محمود لدمشق، عين أمين الدولة كُمُشْتِكِين الأتابكي ـ والي بصرى وصرخ في منصب الاسفهسلارية في الأول من جمادَى الأولى عام ٥٣٠هـ الموافق ٩ فبراير ١١٣٦م (٥٨) وبعد هروب هذا الاسفهسلار إلى حصن بصرى أثناء حدوث صراعات داخلية بدمشق في نفس العام، عين أمير دمشق شهاب الدين محمود الأمير بِزْواج في منصب الاسفهسلارية بدلا من كُمُشْتِكِين الأتابكي(٥٩). وبعد اغتيال الأمير بِزْواج في شعبان ٥٣٢هـ / الأول من إبريل ١١٣٨م، بواسطة الأمير شهاب الدين نفسه، منح الأمير شهاب الدين هذه الرتبة للأتابك معين الدين أنر ذي الصفات الشخصية المميزة. وبعد وفاة أنر في الثالث من جمادى الأولى، ٥٤٤هـ / ٩ سبتمبر ١١٤٩م، احتفظ أمير دمشق مجيرالدين أبق برتبة الاسفهسلارية لنفسه(٦٠) ويبدو أن مجير الدين أبق لم يمنح هذا المنصب لأي شخص، لأنه ظن أن أي شخص يحمل رتبة الاسفهسلارية سوف يحصل على نفوذ عظيم في الإمارة كما فعل أنر أثناء فترة استبداده بأمور إمارة دمشق عندما كان أتابك الأمير مجير الدين أبق وكذلك اسفهسلار لجيش دمشق في الفترة من عام ٥٣٢ وحتى ٥٤٤هـ /١١٣٨م حتى سبتمبر ١١٤٩م.

٢ ـ الرئيس:

رئيس دمشق هو قائد «مقدم» جماعة الأحداث في مدينة دمشق، وهي أعلى رتبة من «شحنة المدينة» أي صاحب الشرطة(٦١) وقد سبق أن أعطيت خلفية عن جماعة الأحداث في بداية هذا الفصل. كان عين الدولة أبو محمد بن الصوفي أول

من استلم منصب الرئاسة في دمشق أيام حكم الملك دقاق. وبعد وفاة هذا الرئيس في عام ٤٩٧هـ / ٥ أكتوبر ١١٠٣م، عين أمير دمشق طغتكين أبا المجلي سيف وأخاه أبا الذؤاد المفرج كشريكين في منصب رئاسة دمشق خلفا لوالدهما عين الدولة أبي محمد بن الصوفي. ويبدو أن أبا الذاؤد قد انفرد بمنصب الرئاسة في وقت لاحق. وقد كان لأبي الذؤاد دور متميز في مساعدة سيده تاج الملوك بوري بن طغتكين - أميرا دمشق - في تدبير عملية نكبة الباطنية «النزارية» في السابع عشر من رمضان سنة ٥٢٣هـ / الموافق ٤ سبتمبر ١١٢٩م.(٦٢) ويبدو أن بوري قد كافأ أبا الذؤاد عن هذه الإنجازات بمنحه منصب الوزارة بالاضافة لمنصب الرئاسة. إلا أن بوري انقلب على أبي الذؤاد في ربيع أول سنة ٥٢٥هـ / ٢ من فبراير ١١٣١م، وطرده من كلا منصبيه الرئاسة والوزارة. إلا أن بوري أعاد أبا الذؤاد كرئيس لدمشق فقط بعد توسط ابنه سونج بن بوري في ذي الحجة من السنة نفسها / ٢٤ اكتوبر ١١٣١م. وقد احتفظ أبو الذؤاد برئاسة دمشق حتى مقتله في رمضان سنة ٥٣٠هـ / ٥ يونيو ١١٣٦م عندما تآمر عليه أمير دمشق شهاب الدين محمود مع أتابكه بزواج. إلا أنه في السنة التالية أي سنة ٥٣١هـ / ٢٩ سبتمبر ١١٣٦م عين شهاب الدين أحد أقرباء رئيس دمشق المقتول كرئيس لدمشق، ويدعى هذا الرئيس الجديد شجاع الدولة المسيب بن الصوفي(٦٣) وهذا الرئيس الجديد والذي سيلقب بلقب جديد وهو مؤيد الدين، أرغم سيده أمير دمشق مجيرالدين أبق على تعيينه كوزير له في سنة ٥٤٤هـ / ١١ مايو ١١٤٩م(٦٤). وهذا يوضح مدى نفوذ هذا الرئيس. وفي عام ٥٤٧هـ ٨ إبريل ١١٥٢م، طرد الأمير مجيرالدين أبق هذا الرئيس من كلا منصبيه، ونفاه إلى حصن صرخد في حوران. وعين مجيرالدين أبق زين الدولة حيدره بن الصوفي (والذي لقب فيما بعد بزين الدين) أخا الرئيس السابق، عينه كرئيس لدمشق. لكن مجير الدين أعدم هذا الرئيس عام ٥٤٨هـ / ٢٧ مارس ١١٥٣م، وربما قام بهذا الأمر لقلقه من هذا الرئيس الذي كان يتآمر ضده،(٦٥) عندئذ عين مجيرالدين، رضي الدين بن غالب التميمي كرئيس جديد على دمشق. وهذا التميمي كان أول رئيس لدمشق من خارج عائلة ابن الصوفي، تلك العائلة التي احتكرت هذا المنصب لمدة طويلة، بالتحديد منذ حكم الملك دقاق دمشق عام ٤٨٨هـ.

٣ ـ الشحنة:

سمي قائد الشرطة أثناء الفترة التي نتناولها بالدراسة بالشحنة. وكان رئيس دمشق «مقدم الأحداث» هو الرئيس المباشر للشحنة(٦٦). وكانت واجبات الشرطة المحافظة على الأمن داخل الإمارة ومعاقبة المخالفين والمجرمين. وكان حصن الدولة بختيار أول شحنة بدمشق أثناء هذه الفترة وتولى هذا المنصب منذ حكم السلطان تاج الدولة تتش لدمشق(٦٧). واحتفظ برتبته حتى وفاته في ١٥ من شعبان ٥١١هـ / ١٦ ديسمبر ١١١٧م. وخلفه ابنه السلار عمر في هذه الرتبة(٦٨).

في ربيع الآخر عام ٥١٦هـ/ ١٠ أغسطس ١١٢٢م توفي شحنة دمشق الحاجب فيروز. ويبدو أن الشحنة السلار عمر السابق قد طُرد من هذه الرتبة في وقت ما قبل هذا العام، وحل محله الحاجب ابن فيروز(٦٩)، وعُين يوسف بن فيروز كشحنة بعد أبيه فيروز في عام ٥١٦هـ ١٢ مارس ١١٢٢م، ولعب ابن فيروز مع رئيسه ابا الذؤاد بن الصوفي ـ رئيس دمشق ـ دورا هاما في سحق حركة الباطنية في ١٧ رمضان ٥٢٣هـ الموافق ٤ سبتمبر ١١٢٩م(٧٠) وكان هذا الشحنة أحد الأصدقاء المقربين من أمير دمشق تاج الملوك بوري ثم ابنه الأمير شمس الملوك إسماعيل، ولكن في عام ٥٢٩ هـ بدأ في ٢٢ أكتوبر ١١٣٤م تخوف يوسف بن فيروز من سيده شمس الملوك إسماعيل، ولذلك فر إلى مدينة تدمر التابعة لإمارة دمشق، ويبدو ان شمس الملوك اسماعيل عين السلار زين الدين إسماعيل كشحنة بعد هروب ابن فيروز، ويبدو أن نفوذ هذا الشحنة الجديد لم يكن قويا كقوة ابن فيروز، ولا سيما عندما أصبح معين الدين أنر أتابك للأمير شهاب الدين محمود واسفهسلار جيش دمشق من شعبان ٥٣٢هـ / ١٥ ابريل ١١٣٨م حتى ٣ جمادى الأول ٥٤٤هـ الموافق ٩ سبتمبر ١١٤٩م. وبعد وفاة أنر ناضل زين الدين إسماعيل لتحدي نفوذ رئيسه رئيس دمشق والوزير مؤيد الدين المسيب بن الصوفي، لكنه كف عن ذلك ثم فر إلى بعلبك خشية ظلم مؤيد الدين بن الصوفي(٧١) وليست هناك معلومات معينة تتعلق بتعيين شحنة جديد بعد هروب السلار زين الدين إسماعيل.

هذه فكرة مبسطة عن جيش دمشق في تلك الفترة، وأرجو أن أكون قد وفقت في بحث هذا الموضوع الذي أرى أنه يحتاج لدراسة أعمق وأشمل من هذا الجهد المتواضع.



الهوامش

١ ـ د. زكار، **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية**. ص ١٦ ـ ١٧.
٢ ـ ابن القلانسي، ص ٩٢؛ عمر تدمري، ص ٣٤٧؛ د. زكار، ص ٧٧، ص ١٢٧، ص ١٢٩، ص ١٣٣ ـ ١٣٤؛ ابن العديم ـ الجلد الأول، ص ٢٩١.
٣ ـ د. زكار، ص ١١٣ ـ ١٣٤؛ د. شاكر مصطفى «دخول الترك إلى بلاد الشام»، **تاريخ بلاد الشام** ـ جامعة الاردن ١٩٧٤م، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٩.
٤ ـ د. زكار، ص ١٣٦ ـ ٣٧؛ ابن العديم، الجلد الثاني، ص ١١.
٥ ـ ابن الأثير، **الكامل** ـ مجلد الثامن، ص ١١٠؛ د. زكار، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.
٦ ـ د. زكار، ١٥٢، ١٥٣.
٧ ـ ابن القلانسي، ص ١٠٢ ـ ١٠٤؛ د. زكار، ص ١٥٤.
٨ ـ ابن الأثير، **الكامل**، ص ١١٢.
٩ ـ ابن القلانسي، ص ١١٢؛ ابن الأثير، **الكامل**، ص ١٢٦.
١٠ ـ د. زكار، ص ١٦٦.
١١ ـ المصدر السابق، ص ١٦٩.
١٢ ـ ابن العديم، الجلد الثاني، ص ٥٧؛ د. زكار، ص ١٧١ ـ ١٧٤.
١٣ ـ ابن القلانسي، ص ١٣٧.
١٤ ـ المصدر السابق، ص ٢٥٥.
١٥ ـ المصدر السابق، ص ١٥١.
١٦ ـ ابن القلانسي، ص ٢١٣؛ ابن الأثير، **الكامل**، الجلد الثامن، ص ٣٢٢؛ وليم الصوري، الجلد الثاني، ص ٤١ ـ ٤٢.
١٧ ـ أبو الفدا، ابن كثير، **البداية والنهاية**، بيروت ١٩٦٦م، الجلد ١٢، ص ٢٢٤.
١٨ ـ ابن القلانسي، ص ٢٢٥.
١٩ ـ المصدر السابق، ص ١٨٧.
٢٠ ـ د. زكار، ص ٨٠ ـ ٨٣.
٢١ ـ ابن كثير، الجلد الحادي عشر، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧؛ د. زكار ص ٨٣ ـ ٨٤.
٢٢ ـ ابن القلانسي، ص ٤ ـ ٩؛ ابن كثير، ص ٢٧٧.
٢٣ ـ ابن القلانسي، ص ٢١ ـ ٢٢؛ ابن كثير، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣؛ د. زكار، ص ٨٧.
٢٤ ـ ابن القلانسي، ص ٥٣ ـ ٥٤؛ د. زكار، ص ٨٧.
٢٥ ـ ابن القلانسي، ص ٩٣؛ ابن كثير، الجلد الثاني عشر، ص ٩٣.

٢٦ ـ صلاح الدين خليل الصفدي، **أمراء دمشق في الإسلام** ـ الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٣م، ص ١٩٢ ـ ١٩٥.

٢٧ ـ ابن القلانسي، ص ١٠٨؛ ابن الأثير، **الكامل**، المجلد الثاني، ص ١٢٢.

٢٨ ـ ابن القلانسي، ص١٣٢؛ **ابن العديم**، المجلد الثاني، ص ١٢٥.

٢٩ ـ ابن القلانسي، ص ١٦٦.

٣٠ ـ المصدر السابق، ص ٢١٣.

٣١ ـ المصدر السابق، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥.

٣٢ ـ ابن القلانسي، ص ٢٧١.

٣٣ ـ ابن الأثير، **الكامل**، المجلد التاسع، ص ٢٠؛ ابن القلانسي، ص ٢٩٨.

٣٤ ـ ابن القلانسي، ص ٣١٥.

٣٥ ـ ابن الأثير، **الأتابكة**، ص ١٠٧؛ ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ١٧٠.

٣٦ ـ ابن القلانسي، ص ١٠٢، محسن محمد حسين، **الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين**، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٦م، ص ٦٩.

٣٧ ـ شاكر مصطفى، ص ٣٧٣.

٣٨ ـ ابن القلانسي، ص ٢٨٢، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

٣٩ ـ ابن القلانسي، ص ١٩٠؛ د. شاكر مصطفى، ص ٣٧٣.

٤٠ ـ ابن القلانسي، ص ٢٣٢، ص ٢٤٦؛ ابن العديم، ص ٢٥٦.

٤١ ـ ابن العديم، ص ٢٥٣؛ ابن القلانسي، ص ٢٣٩.

٤٢ ـ ابن القلانسي، ص ١١٢.

٤٣ ـ المصدر السابق، ص ١٢٧.

٤٤ ـ المصدر السابق، ص ١٨٥.

٤٥ ـ ابن الأثير، المجلد الثامن، ص ٣٢٩؛ ابن القلانسي، ص ٢٢٥.

٤٦ ـ ابن القلانسي، ص ١٧١.

٤٧ ـ المصدر السابق، ص ٢١١.

٤٨ ـ ابن كثير، المجلد الثاني عشر، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤؛ ابن القلانسي، ص ٢٩٨.

٤٩ ـ ابن القلانسي، ص ١٧٨.

٥٠ ـ المصدر السابق، ص ٢٢٠، ص ٢٣٤.

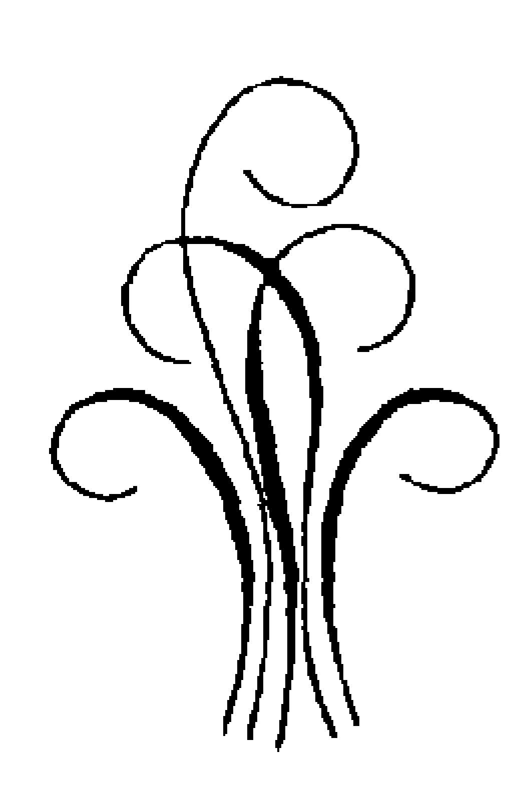
٥١ ـ محسن حسين، **الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين** (بيروت ١٩٨٦م)، ص ١٣٠ ـ ١٣٢.

٥٢ ـ محسن يوسف (**التاريخ الاقتصادي لبلاد الشام خلال القرنين الرابع والخامس الهجري/ القرنين الحادي عشر والثاني عشر**) أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة برنستون، ١٩٨٢م، ص ١٠٣.

٥٣ ـ البغدادي، **مراصد الاطلاع**، المجلد الثالث، ص ١٤١٨.

٥٤ ـ المصدر السابق، ص ١٢١٦.

٥٥ ـ ابن القلانسي، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
٥٦ ـ ابن كثير، **الكامل**، المجلد الثاني عشر، ص ١٧١.
٥٧ ـ ابن القلانسي، ص ٢٩٦.
٥٨ ـ المصدر السابق، ص ٢٥٣.
٥٩ ـ المصدر السابق، ص ٢٥٥.
٦٠ ـ المصدر السابق، ص ٣٠٦.
٦١ ـ ميرزا (**الاسماعيلية في بلاد الشام في عهد الصليبيين**) أطروحة دكتوراة مقدمة، جامعة درام، ١٩٦٣م، ص ٢٣ ـ ٢٤، ابن العديم، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.
٦٢ ـ ابن القلانسي، ص ٢٢٤، ابن كثير، المجلد الثاني عشر، ص ٢٠٠.
٦٣ ـ ابن القلانسي، ص ٢٦١.
٦٤ ـ المصدر السابق، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.
٦٥ ـ المصدر السابق، ص ٣٢٤، ص ٣٢١ ـ ٣٢٥.
٦٦ ـ المصدر السابق، ص ٢٢٤.
٦٧ ـ المصدر السابق، ص ١٣٢.
٦٨ ـ المصدر السابق، ص ١٣٢.
٦٩ ـ المصدر السابق، ص ٢٠٨.
٧٠ ـ ابن الأثير، **الكامل**، المجلد الثامن، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩؛ ابن القلانسي، ص ٢٢٤؛ ابن كثير، المجلد الثاني عشر، ص ٢٠٠.
٧١ ـ ابن القلانسي، ص ٣٠٧.



«الخاتمـــة»

واجهت إمارة دمشق في أيامها الأولى تحديات هددت سيادتها، وكانت مصادر هذه المخاطر متعددة، فمن هذه التحديات والمخاطر مملكة حلب (٤٨٨ ـ ٥١١هـ / الموافق ١٠٩٥ ـ ١١١٧م)، السلطان محمد السلجوقي وبخاصة عام ٥٠٩هـ / الموافق ١١١٥م وصليبيو الشرق وبخاصة في عام ٥٤٣هـ الموافق ١١٤٨م وكذلك خطر زنكي صاحب الموصل وحلب (٥٢١ ـ ٥٤٠هـ / الموافق ١١٢٧ ـ ١١٤٦م). كما مزقت الإمارة النزاعات الداخلية، وبسبب تلك التهديدات التي واجهتها الإمارة، فقد كانت مجبرة لاتباع سلسلة من سياسات المساومة لمجابهة تلك المخاطر المختلفة. وقد تذبذبت سياسة الإمارة لمواجهة تلك التهديدات، ولهذا نراها تتحالف مع الأعداء السابقين لمجابهة الأعداء الجدد، فمرة نراها تتعاون مع حملات السلطان محمد السلجوقي ضد صليبيي الشرق في عام ٥٠٣هـ الموافق ١١١٠م، ٥٠٤هـ / ١١١١م و٥٠٦هـ / ١١١٣م . وعندما أرسل السلطان محمد نفسه حملة ضد دمشق ذاتها، نرى إمارة دمشق تتحالف مع أعدائها السابقين أي الصليبيين، ضد السلطان محمد الذي تتبع له الإمارة اسميا. بالإضافة إلى ذلك، شكلت دمشق تحالفا مع نورالدين محمود بن زنكي صاحب حلب ضد الصليبيين، ولكن عندما أصبح تهديد نور الدين على دمشق أكبر خطر على الإمارة من التهديد الصليبي، غيرت دمشق من موقفها لتكسب مساعدة الصليبيين ضد حليفها السابق نور الدين.

وفي أثناء السنوات الأولى من حكم الإمارة، تركز التهديد الرئيس عليها من جارتها ومنافستها مملكة حلب. وفي الوقت الذي قدم فيه الصليبيون إلى بلاد الشام عام ٤٩٠ / ١٠٩٧م لتوطيد سلطتهم هناك ولإقامتهم إمارات خاصة بهم، فان تهديد حلب تلاشى، فقد أصبح هم مملكة حلب هو حماية ممتلكاتها من التهديد الصليبي الكبير، مما اضطرها أن تحجم عن أي محاولة لتهديد إمارة دمشق.

من ناحية أخرى، بينما كانت دمشق قد تخلصت من تهديد حلب ، أصبح الخطر الصليبي المحدق بها أكثر شدة، ولمجابهة هذا التهديد الصليبي، جاهدت دمشق لانقاذ الأراضي المتبقية التابعة للفاطميين في بلاد الشام من الوقوع في أيدي الصليبيين. وقامت دمشق بذلك ليس بهدف تعزيز سلطة الفاطميين في بلاد الشام، ولكن لإضعاف القوة المتنامية للصليبيين بالتحالف والتعاون مع الفاطميين بمصر، ولهذا حافظت دمشق على علاقتها الطيبة مع الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي، الذي استبد بحكم مصر باسم الخليفة الفاطمي حتى اغتياله عام ٥١٥هـ / ١١٢١م، وكمثال على ذلك ساعدت دمشق مدينة صيدا عام ٥٠٢هـ / ١١٠٩م، وصور عام ٥٠٥هـ / ١١١٢م و ٥١٨ / ١١٢٤م وكذلك عسقلان في ٤٩٨هـ / ١١٠٤م و ٥١١هـ / ١١١٧ ضد الصليبيين. علاوة على ذلك دخلت دمشق في حلف مع إمارة طرابلس المستقلة من ٤٩٧هـ حتى ٥٠١هـ / ١١٠٤ حتى ١١٠٨م، ليس فقط لتأمين سيادة طرابلس، ولكن أيضا لاضعاف الخطر الصليبي على إمارة دمشق، ففي ذلك الحين كان الصليبيون يخططون ويعملون لتأسيس إمارة «كونتية» صليبية جديدة في منطقة طرابلس، والتي ستكون مجاورة لإمارة دمشق وتمثل تهديدا جديدا لها.

ومعظم الاحلاف التي عقدتها إمارة دمشق في الفترة منذ عام ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م حتى ٥٢١هـ / ١١٢٧م، كرست لمجابهة التهديد الصليبي الواقع عليها. وبفضل الله تم تحالفها مع آيل غازي صاحب حلب وماردين في الفترة بين ٥١١هـ / ١١١٨م حتى ٥١٦هـ / ١١٢٢م. حققت دمشق مع آيل غازي نصرا عظيما على صليبيي إمارة أنطاكية في موقعة البلاط عام ٥١٣هـ / ١١١٩م. وأرغم هذا الانتصار صليبيي بيت المقدس الذين كانوا يمثلوا التهديد الحقيقي لدمشق على تقديم المساندة لإمارة أنطاكية، والتي فقدت كافة قواتها المسلحة في هذه المعركة.

وبظهور زنكي صاحب الموصل وحلب (٥٢١ ـ ٥٤١هـ / ١١٢٧م ـ١١٤٦م) كقوة إسلامية أساسية في بلاد الشام، وظهور مشاريعه لإقامة جبهة موحدة ببلاد الشام والجزيرة الفراتية لمواجهة الخطر الصليبي الكبير، أصبح تهديده لإمارة دمشق أكثر

خطورة من تهديد الصليبيين أنفسهم للإمارة، وبالرغم من أن زنكي نجح في الاستيلاء على مدن رئيسة تابعة لإمارة دمشق مثل حمص عام ٥٣٢هـ / ١١٣٨م وبعلبك في عام ٥٣٤هـ / ١١٣٩م، إلا أنه لم يستطع ضم عاصمتها مدينة دمشق ذاتها، وكانت المساعدة التي قدمها الصليبيون للدمشقيين العامل الرئيس في إخفاق زنكي في ضم مدينة دمشق لممتلكاته.

ومن ناحية أخرى، استخدم الصليبيون تحالفهم مع الدمشقيين لإضعاف قوة زنكي المتنامية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية. وعلى الرغم من مساندة نور الدين لإمارة دمشق ضد الحملة الصليبية الثانية عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، فإن الدمشقيين أبقوا على سياسة التحالف مع الصليبيين ضد تهديد نور الدين صاحب حلب (٥٤١ ـ ٥٦٩هـ / ١١٤٦ ـ ١١٧٤م) لكن استيلاء الصليبيين على عسقلان، المدينة المسلمة الساحلية الوحيدة المتبقية في بلاد الشام عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، استحثت نورالدين للتعجيل في ضم مدينة دمشق في العالم التالي ٥٤٩هـ / ١١٥٤م.

ويمكن أن نعزو سقوط إمارة دمشق عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م للعوامل التالية:

١ ـ التهديد الصليبي:

إن غزو الصليبيين بقواتهم المسلحة الهائلة وإقامة إماراتهم في الشرق الإسلامي جعل الإمارات الإسلامية المستقلة المتنافرة الضعيفة في بلاد الشام مثل دمشق، حلب، طرابلس وشيزر، غير قادرة على أن تمثل تحديا خطيرا لسلطة الصليبيين في الشرق، بل إنها لم تكن قادرة على مقاومة التهديد الصليبي، فإن القوة الإسلامية الوحيدة الفاعلة التي كانت في موقع يؤهلها لذلك كانت السلطنة السلجوقية ذاتها. وعندما اخفقت محاولات السلطنة السلجوقية متمثلة بالسلطان محمد السلجوقي من خلال حملاته الأربع التي أرسلها في الأعوام ٥٠٣هـ / ١١١٠م، ٥٠٤ هـ / ١١١١م، ٥٠٦هـ / ١١١٢ م و ٥٠٩هـ / ١١١٥م، أضحى واضحا أنه إذا لم يقم المسلمون في بلاد الشام بالاتحاد للدفاع عن بقية أراضيهم، فسوف يفقدون كافة ممتلكاتهم للصليبيين. وقد لعبت إمارة دمشق دورا عظيما في إعاقة التهديد الصليبي

لمسلمي بلاد الشام، كما عقدت أحلافاً مع آيل غازي - صاحب حلب وماردين - (٥١١ - ٥١٦هـ / ١١١٧م - ١١٢٢م) وآق سنقر البرسقي صاحب الموصل وحلب (٥١٨هـ - ٥٢٠هـ / ١١٢٤م - ١١٢٦م) وقوات إسلامية أخرى.

ولم تحرز تلك الأحلاف بين الزعماء المسلمين في بلاد الشام انتصارات حاسمة على الصليبيين. وبظهور زنكي صاحب الموصل وحلب (٥٢١هـ - ٥٤١هـ / ١١٢٧ - ١١٤٧م)، تحولت سياسة التحالف هذه بين مسلمي الشام إلى محاولة توحيد بلاد الشام والجزيرة تحت سلطة واحدة وهي سلطة زنكي، وكانت الخطوة الرئيسة لإنجاز هذه الجبهة الموحدة ضد الصليبيين هي ضم مدينة دمشق، المدينة الرئيسة في بلاد الشام. وبالرغم من أن زنكي أخفق في إتمام خطته بالاستيلاء على مدينة دمشق، فقد أفلح ابنه نورالدين في القيام بذلك (٥٤١ - ٥٦٩هـ / ١١٤٦ - ١١٧٤م) في عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م. وسيفتح ضم دمشق لمملكة نورالدين الطريق لوحدة بلاد الشام ومصر عام ٥٦٤هـ / ١١٦٩م.

ويبدو أن قدوم الصليبيين إلى بلاد الشام لم يعجل فقط بسقوط الإمارات الضعيفة المستقلة في بلاد الشام، بما فيها إمارة دمشق وتوحيد مسلمي بلاد الشام، ولكن سيساعد بطريقة غير مباشرة لإعادة مصر للخلافة العباسية أيضا لأول مرة منذ استيلاء الفاطميين عليها في شعبان ٣٥٨هـ /٣٠ ابريل ٩٦٩م.

٢ - الاتساع الجغرافي لإمارة دمشق:

سبب الاتساع الجغرافي لإمارة دمشق مشاكل عديدة لها، فقد توسعت الإمارة في سنواتها الأولى جغرافيا لتشمل عدة مناطق بعيدة جدا عن مدينة دمشق عاصمة الإمارة - مثل ميافارقين، والرحبة في الجزيرة الفراتية وكانت تلك المدن النائية هي المدن الأولى التي ثارت ضد سلطة دمشق. فثارت ميافارقين عام ٤٩٣هـ / ١١٠٠م، وتمردت الرحبة عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٣م. فقد ثارت تلك المدن البعيدة قبل المدن القريبة للعاصمة كبصرى التي ثارت في عام ٤٩٧هـ / ١١٠٤ وبعلبك في عام ٥٠٣هـ / ١١١٠م. ويبدو أن ضعف السلطة المركزية للإمارة على تلك المدن البعيدة

أغرت ولاة تلك المدن على التمرد ضد حكام إمارة دمشق. ولذلك نرى أنه عندما فقدت إمارة دمشق سيادتها على تلك المدن المتمردة البعيدة، لم تحاول الإمارة إعادة تلك المدن لسيادتها، ويبدو أيضا أن بُعد حصن بصرى عن مدينة دمشق (حوالي ٣٠ ميلا) كان أحد الأسباب الرئيسية لأعمال التمرد المنتظمة ضد سلطة دمشق فقد تمرد هذا الحصن على إمارة دمشق، في عدة مناسبات، في الأعوام ٤٩٧هـ / ١١١٤م، ٥٤٢هـ / ١١٤٧، وعام ٥٤٦هـ / ١١٥١م. فقد انهكت كل هذه الحركات التمردية إمارة دمشق وأضافت عليها أعباء جديدة.

٣ ـ الصراعات الداخلية في الإمارة:

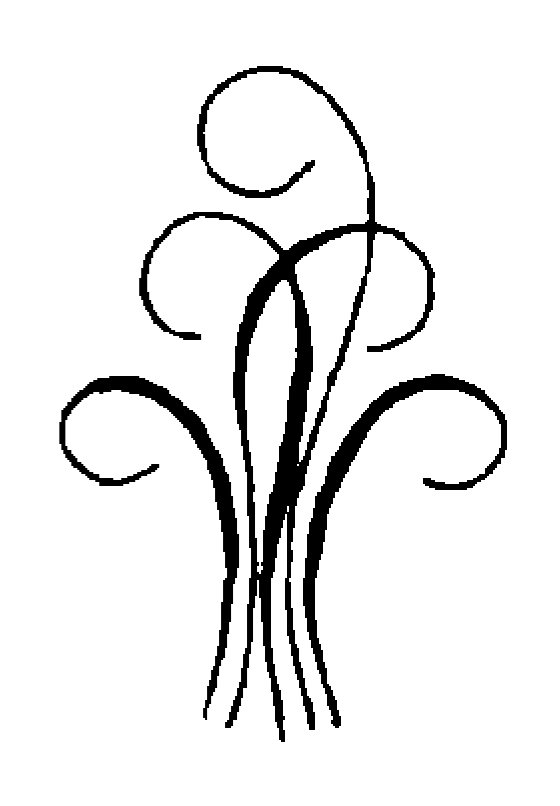
عانت الإمارة من صراعات داخلية لم تنجم فقط من الولاة المتمردين، ولكن أيضا من الوجهاء وقادة جيش دمشق نفسها، وثارت معظم المدن الرئيسة بالإمارة مثل بعلبك، بصرى، صرخد، ميافارقين، الرحبة وحمص، ضد سلطة إمارة دمشق من وقت لآخر، وقد عرفت بعض هذه المدن بأعمالها المتمردة كبعلبك وبصرى. ووقع نزاع وشقاق، ليس فقط بين ولاة الإمارة، ولكن أيضا بين الوجهاء والقادة العسكريين وأعضاء العائلة المالكة نفسها. فقد ثار شمس الدولة محمد ـ والي بعلبك ـ في عام ٥٢٦هـ / ١١٣٢م على أخيه أمير دمشق شمس الملوك إسماعيل. وفي عام ٥٣٢هـ / ١١٣٧م ثار الأمير بزواجَ ـ أحد أشهر قادة إمارة دمشق العسكريين ـ ضد سيده أمير دمشق شهاب الدين محمود. علاوة على ذلك، ثار مؤيد الدين بن الصوفي ـ رئيس دمشق في عام ٥٤٤ / ١١٤٩م ـ ضد قائده أمير دمشق مجيرالدين أبق. وذهب ضحية تلك الصراعات الداخلية في الإمارة اثنان من أمراء دمشق وهما الأمير شمس الملوك إسماعيل (٥٢٦هـ ـ ٥٢٩هـ / ١١٣٣م ـ ١١٣٥م) ثم أخوه الأمير شهاب الدين محمود (٥٢٩هـ ـ ٥٣٣هـ / ١١٣٥م ـ ١١٣٩). وهكذا أنهكت كل تلك الانقسامات الداخلية الإمارة وأضافت لها أعباء ومشاكل إضافة إلى مشاكلها ومصاعبها الخارجية التي كانت تهدد كيانها.

٤ ـ السياسة الحكيمة لنورالدين تجاه إمارة دمشق:

لقد أخفق زنكي في ضم مدينة دمشق بقواته، لأنه لم يستطع الحصول على

مساندة ولو من جزء من سكان إمارة دمشق ضد حكامهم .إن الذي يحاول الاستيلاء على مدينة محصنة تحصينا شديدا كمدينة دمشق سيواجه بمشاكل لا يمكن تحملها، إذا لم تأته مساعدة من داخل المدينة نفسها، فقد رفض الدمشقيون سلطة زنكي بسبب سوء السمعة التي نالها لتآمره عليهم، كما اتضح ذلك من مؤامراته ضد القوات الدمشقية عام ٥٢٤ هـ / ١١٣٠م، التي أتت للإنضمام إلى جيشه لقتال الصليبيين. كما حنث زنكي في عام ٥٣٤هـ / ١١٣٩م بعهده بضمان سلامة حامية بعلبك، في ومقابل هذا الاخفاق نجح ابنه نورالدين ـ صاحب حلب ـ بسياسته الحكيمة تجاه إمارة دمشق، في اقناع العديد من الدمشقيين لمساندته ضد سيدهم الأمير مجير الدين أبق، وكما ذكر سابقا في الفصل السابع، قام نور الدين بمساعدة جماعة الأحداث في دمشق بالاستيلاء على مدينة دمشق عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م.

ويبدو أن السبب المباشر لسقوط إمارة دمشق (٤٨٨ ـ ٥٤٩هـ / ١٠٩٥م ـ ١١٥٤م)هو السياسة الحكيمة لنور الدين التي أثمرت عن توليد ثقة أهالي دمشق بأفضلية قيادة نورالدين لزعامتهم للقيام بفريضة جهاد الغزاة الصليبيين، وهو ما ستثبته الأيام. وهكذا طويت صفحة تاريخ إمارة دمشق إبان حكم أسرة طغتكين التركمانية التي قامت بما أتيحت لها من إمكانات من إثبات أنها القوة الإسلامية الأقوى في بلاد الشام التي عاصرت الحملة الصليبية الأولى والثانية.





«مسرد تاريخي للأحداث الرئيسية المتصلة بتاريخ إمارة دمشق في المرحلة الباكرة للحروب الصليبية»

* ٣٥٩هـ/٩٦٩م: إستيلاء الفاطميين على مدينة دمشق.
* ٤٥٥هـ/ ٤ يناير ١٠٦٣م: تمرد قاضي صور ضد الفاطميين.
* ٤٥٧هـ/ ١٣ ديسمبر ١٠٦٤م: أعلن أمين الدولة بن عمار صاحب طرابلس ولائه للسلاجقة.
* ٤٦٢هـ/ ٢٠ اكتوبر ١٠٦٩م: أعلن محمود بن مرداس ـ صاحب حلب ـ ولائه للسلاجقة.
* ٤٦٣هـ/ ٩ أكتوبر ١٠٧٠م: استعاد أتسز بن أوق ـ التابع للسلاجقة ـ الرملة، طبرية والقدس من الفاطميين.
* ٤٦٨هـ/ في ١٦ اغسطس ١٠٧٥م: استعاد أتسز دمشق من الفاطميين.
* ٤٦٩هـ/ ٥ أغسطس ١٠٧٦م: فشل الملك أتسز بن أوق ـ صاحب دمشق ـ في محاولته القضاء على الخلافة الفاطمية.
* ٤٧٠هـ/ الموافق ٢٥ يوليو ١٠٧٧م: منح ملكشاه أخيه تاج الدولة تتش بلاد الشام كإقطاع.
* عام ٤٧١هـ/ ١٤ يوليو ١٠٧٨م: استرد الفاطميون الرملة وطبرية والقدس من الملك أتسز حاكم دمشق.
* عام ٤٧١هـ/ اكتوبر ١٠٧٩م: استولى تاج الدولة تتش على مدينة دمشق من أتسز بن أوق.
* عام ٤٧١هـ/ ١٤ يوليو ١٠٧٩م: استولى مسلم بن قريش ـ حاكم الموصل ـ على مدينة حلب من ابن مرداس.
* عام ٤٧٧هـ/ ١٠ مايو ١٠٨٤م: استرد سليمان بن قتلمش ـ حاكم قونية ـ أنطاكية من البيزنطيين وأصبحت تابعة للسلاجقة.
* عام ٤٨٠هـ. ٨ ابريل ١٠٨٧م: تعيين قسيم الدولة آق سنقر الحاجب كوالي للسلاجقة على حلب.
* وفي عام ٤٨٢هـ/في ١٦ مارس ١٠٨٩م: استرد الفاطميون صور من ولاتها المتمردين أبناء القاضي عين الدولة بن أبي عقيل.
* وفي عام ٤٨٤هـ/٢٣ فبراير ١٠٩١م: أخضع تتش خلف بن ملاعب صاحب حمص.
* وفي عام ٤٨٥هـ/ ١٢ فبراير ١٠٩٢م: فشل تتش في الاستيلاء على طرابلس من جلال الملك بن عمار.

* وفي عام ٤٨٥هـ/ ١٢ فبراير ١٠٩٢م: محمود بن السلطان ملكشاه يخلف والده كسلطان للسلاجقة.
* وفي شوال ٤٨٧هـ/ ١٥ اكتوبر ١٠٩٤م: الخليفة العباسي المقتدي يعترف ببركياروق كسلطان للسلاجقة.
* وفي ٤٨٧هـ/ ٢١ يناير ١٠٩٤م: الحسن الصباح يؤسس الحركة الباطنية.
* وفي ١٧ صفر ٤٨٨هـ/ الموافق ١٠٩٥م: هزم السلطان تاج الدولة تتش من قبل إبن أخيه بركياروق وقسمت أملاكه بين أبنائه رضوان حاكماً لحلب، والملك دقاق حاكماً لدمشق.
* وفي ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م: أصبح طغتكين أتابك للملك دقاق حاكم لدمشق.
* وفي ٤٩٠هـ/ ١٩ ديسمبر ١٠٩٧م: فشل الملك رضوان - حاكم حلب - في الاستيلاء على مدينة دمشق.
* وفي عام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م: هزيمة الملك دقاق - حاكم دمشق - على يد أخيه الملك رضوان - حاكم حلب - بالقرب من نهر القويق.
* وفي ربيع الثاني ٤٩١هـ/ الموافق ١٠ مارس ١٠٩٨م: أسس بلدوين حاكم بويون أول إمارة صليبية في الرها.
* شعبان ٤٩١هـ/ ٣ يوليو ١٠٩٨م: استرد الفاطميون القدس من سقمان وآيل غازي أبناء أرتق.
* ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ/ الموافق ١٤ يوليو ١٠٩٩م: استولى الصليبيون على القدس من الفاطميين.
* في ١٤ رمضان ٤٩٢هـ/ الموافق ١٤ اغسطس ١٠٩٩م: هزم الصليبيون الفاطميين بالقرب من عسقلان.
* وفي صفر ٤٩٣هـ/ في ١٨ ديسمبر ١٠٩٩م: استرد الملك دقاق - حاكم دمشق - ميافارقين من واليها المتمرد.
* وفي ربيع الأول ٤٩٤هـ/ ٤ يناير ١١٠١م: هزم صليبيو الرها سُقمان بن أرتق واستولوا على سروج.
* وفي شعبان ٤٩٤هـ/ مايو ١١٠١م: استلم الملك دقاق حاكم دمشق جَبَلَة من ابن صُلَيحة.
* ٤٩٤هـ/١١٠١م: استرد ابن عمار - حاكم طرابلس - جبلة من أهل دمشق.
* وفي أواخر جمادى الثاني ٤٩٥هـ/ أوائل ابريل ١١٠٢م: هزم الصليبيون قوات دمشق بالقرب من أنطرطوس.
* في شعبان ٤٩٦هـ/ أواخر مايو ١١٠٣م: ضمت دمشق حمص بعد اغتيال حاكمها جناح الدولة حسين علي يد الباطنية.
* وفي جمادى الآخرة ٤٩٦هـ/ الموافق ١٣ مارس ١١٠٣م: استردت دمشق الرحبة.
* وفي شعبان ٤٩٧هـ/ الموافق ٢٩ ابريل ١١٠٤م: استولى صليبيو بيت المقدس على عكا.
* وفي ١٢ رمضان ٤٩٧هـ/ الموافق ٨ يونيو ١١٠٤م: توفي الملك دقاق - حاكم دمشق - وخلفه أتابكه طغتكين.
* وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة ٤٩٧هـ/ الموافق ١٨ سبتمبر ١١٠٤م: عين طغتكين

أرتاش بن السلطان تاج الدولة تتش ملكا لدمشق.

* ٤٩٧هـ/١١٠٤م: فر الملك أرتاش من دمشق، وأصبح طغتكين أمير دمشق.

* وفي صفر ٤٩٨هـ/ ٢٢ اكتوبر ١١٠٤م أرسل طغتكين المساعدة للفاطميين في عسقلان ضد صليبيي بيت المقدس.

* ٤٩٨هـ/١١٠٤م: هزم الصليبيون الفاطميين والدمشقيين بالقرب من الرملة.

* ٤٩٨هـ/ الموافق ٥ مايو ١١٠٥م: وفاة السلطان بركيارق، وخلفه أخاه محمد.

* رمضان ٥٠١هـ/ ١٣ ابريل ١١٠٨م: استرد الفاطميون مدينة طرابلس، من فخر الملك بن عمار.

* ٥٠١هـ/١١٠٨م: هزم طغتكين حاكم طبرية الصليبيي جرفاس صاحب باسوجي (Basoches).

* ٥٠٢هـ/١١٠٩م: ساعد طغتكين أهالي صيدا ضد صليبيي بيت المقدس.

* وفي ١١ ذي الحجة ٥٠٢هـ/ الموافق ١٢ يوليو ١١٠٩م: احتل الصليبيون طرابلس من الفاطميين.

* وفي شعبان ٥٠٢هـ/ ٦ مارس ١١٠٨م: استيلاء الصليبين على عكا.

* وفي أواخر ٥٠٢هـ/ الموافق يوليو ١١٠٩م: طغتكين يوقع هدنة مع صليبيي بيت المقدس.

* في محرم ٥٠٣هـ/ اغسطس ١١٠٩م: استولى الصليبيون على جبيل.

* **وفي شعبان ٥٠٣هـ/ الموافق ٢٥ فبراير ١١١٠م:** طغتكين يخضع واليه المتمرد كمشتكين صاحب بعلبك.

* وفي ٢١ شوال ٥٠٣هـ/ الموافق ١٣ مايو ١١١٠م: احتل صليبيو بيت المقدس بيروت من الفاطميين.

* وفي ٥٠٣هـ/ الموافق ٣١ يوليو ١١٠٩م: فشل حملة مودود ضد الصليبيين.

* وفي أواخر ذي الحجة ٥٠٤هـ/ أوائل يوليو ١١١١م: أجبر طغتكين بلدوين الأول ملك بيت المقدس على توقيع هدنة جديدة

* ٥٠٥هـ/ ١٠ يوليو ١١١١م: ساعد طغتكين أهالي صور ضد صليبيي بيت المقدس.

* ٥٠٦هـ/ ٢٨ يونيو ١١١٢م: قبول طغتكين عرض أهالي صور لاستلام مدينتهم.

* ١١ محرم ٥٠٦هـ/ الموافق ٢٩ يونيو ١١١٣م. قوات مودود ـ حاكم الموصل ـ وطغتكين تهزم صليبيي بيت المقدس بالقرب من الاقحوانة.

* جماديالأخرة ٥٠٧هـ/ الموافق ٣٠ نوفمبر ١١١٤م: توفي الملك رضوان حاكم حلب وخلفه أبنه ألب أرسلان.

* ٥٠٩هـ/ الموافق ٢٧ مايو ١١١٥م: أرسل السلطان محمد السلجوقي برسق بن بُرسُق ـ حاكم همدان ـ بحملة ضد طغتكين وآيل غازي حاكم ماردين، واستولى برسق على حماة من طغتكين

* جمادى الأخرة ٥٠٩هـ/ ٢ اكتوبر ١١١٥م: استعاد طغتكين رفانية من صليبيي بيت المقدس ثم هجرها.

* ٥٠٩هـ/١١١٥م: أصدر السلطان محمد السلجوقي مرسوماً يؤكد حكم طغتكين لإمارة دمشق.
* ٥٠٩هـ/١١١٥م: هاجم الملك بلدوين الأول - حاكم بيت المقدس - الفرما في مصر.
* ٥١٠هـ/١١١٦م: بناء برترام - كونت طرابلس - حصن بارين.
* ٥١٠هـ/ الموافق ١١١٦م: هزم كلا من طغتكين وآق سنقر البرسقي - حاكم الموصل - الكونت برترام - كونت طرابلس - في عين الجر.
* ٥١١هـ/ ٥ مايو ١١١٧م: استلم أيل غازي - حاكم ماردين - حلب.
* ٥١٢هـ/ ٢٤ ابريل ١١١٨م: ساعد طغتكين عسقلان - التابعة للفاطميين - ضد صليبيي بيت المقدس.
* ١٥ ربيع الأول ٥١٣هـ/٢٦ يونيو ١١١٩م: هزم كل من آيل غازي - حاكم حلب - وطغتكين روجر أمير أنطاكية الصليبي في بلاط، وقد قتل روجر نفسه في تلك المعركة.
* ٥١٥هـ/ ٢٢ مارس ١١٢١م: إغتيال الأفضل وزير الخليفة الفاطمي.
* ٥١٦هـ/ ١٢ مارس ١١٢٢م: استرد الفاطميون صور من طغتكين.
* ٥١٦هـ/نوفمبر ١١٢٢م: وفاة آيل غازي حاكم حلب وماردين.
* في ربيع الأول ٥١٧هـ/ ٢٨ ابريل ١١٢٣م: أسر بَلَكْ بن بهرام بن أُرتق بلدوين الثاني ملك بيت المقدس.
* ٥١٨هـ/١١٢٤م: استلم طغتكين صور مرة ثانية من الفاطميين.
* ٢٠ ربيع أول ٥١٨هـ/ الموافق ٧ يوليو ١١٢٤م: إغتيال بلك بن بهرام حاكم حلب.
* ٢٣ جمادى الأول ٥١٨هـ/ الموافق ٧ يوليو ١١٢٤م: استولى الصليبيون على صور من طغتكين.
* ٥١٨هـ/١١٢٤م: استيلاء آق سنقر البرسقي - حاكم الموصل - على حلب من تمرتاش بن آيل غازي.
* ٥١٨هـ/ ١١٢٤م: وفاة قائد الباطنية الحسن الصبَّاح.
* ٣ ربيع الثاني ٥١٩هـ/ ١٠ مايو ١١٢٥م: استرد كل من آق سنقر البرسقي - صاحب الموصل وحلب - وطغتكين كفرطاب من الصليبيين.
* ١٦ ربيع الثاني ٥١٩هـ/٢٣ مايو ١١٢٥م: هُزمت كلا من قوات آق سنقر البرسقي وقوات طغتكين على يد صليبيي الشرق.
* ٥١٩هـ/١١٢٥م: فشل محاولة الصليبيين في الاستيلاء على مدينة دمشق
* ذو القعدة ٥٢٠هـ/ ١٨ نوفمبر ١١٢٦م: أسس بهرام - قائد الباطنية في بلاد الشام - قوته في دمشق، واستلم بانياس من طغتكين.
* ٨ ذو الحجة ٥٢٠هـ/٢٦ ديسمبر ١١٢٦م اعتيال آق سنقر البرسقي - صاحب الموصل وحلب - على أيدي الباطنية.
* ٨ صفر ٥٢٢هـ/١١ فبراير ١١٢٨م وفاة طغتكين وخلفه ابنه تاج الملوك بوري كأمير لدمشق.
* ٥٢٢هـ/ ٦ يناير ١١٢٨م: استلم زنكي - صاحب الموصل - مدينة حلب.
* ٥٢٢هـ/ الموافق ١١٢٨م: هزيمة واغتيال - قائد الباطنية في بلاد الشام - بهرام الاعجمي على

يد الضحاك بن جندل أمير وادي التيم. وقد خلفه اسماعيل كقائد للباطنية في بلاد الشام.
* وفي ١٧ رمضان ٥٢٣هـ/ الموافق ٤ سبتمبر ١١٢٩م: اغتيال المزدقاني وزير تاج الملوك بوري حاكم دمشق، ومذبحة الباطنية في دمشق.
* ٥٢٣ هـ/ الموافق ٢٥ ديسمبر ١١٢٨م: استلم صليبيو بيت المقدس بانياس من الباطنية.
* ذو القعدة ٥٢٣هـ/ ١٦ اكتوبر ١١٢٩م: فشل الصليبيين في الاستيلاء على دمشق.
* ٨ شوال ٥٢٤هـ/ الموافق ٥ اكتوبر ١١٣٠م: استولى زنكي على مدينة حماة من إمارة دمشق.
* ٥ رجب ٥٢٥هـ/ ٥ يونيو ١١٣١م: فشل محاولة الباطنية في اغتيال بوري أمير دمشق.
* ٦ شعبان ٥٢٥هـ/٦ يوليو ١١٣١م: بوري - حاكم دمشق - يقبض على دبيس بن صدقة صاحب الحلة.
* شعبان ٥٢٥هـ/ يونيو ١١٣١م: وفاة الملك بلدوين الثاني - ملك بيت المقدس - خلفه ابنه غير الشرعي فولك.
* شوال ٥٢٥هـ/ ٢٨ اغسطس ١١٣١م: وفاة السلطان محمود بن محمد السلجوقي والمنافسة بين أبنائه للفوز بالسلطنة.
* ١٢ رجب ٥٢٦هـ/ الموافق ٦ يونيو ١١٣٢م: وفاة الأمير بوري وخلافة ابنه شمس الملوك اسماعيل.
* دو الحجة ٥٢٦هـ/ ١٥ اكتوبر ١١٣٢م: أخضع شمس الملوك إسماعيل أخوه شمس الدولة محمد والي بعلبك.
* محرم ٥٢٧هـ/ اغسطس ١١٣٣م. استرد شمس الملوك اسماعيل بانياس من صليبيي بيت المقدس.
* شوال ٥٢٧هـ/ أغسطس ١١٣٣م: استرد شمس الملوك اسماعيل - حاكم دمشق - مدينة حماة من زنكي حاكم الموصل وحلب.
* ذو القعدة ٥٢٧هـ/ ٢٢ يونيو ١١٣٣م: فشل الخليفة العباسي المسترشد بالله في الاستيلاء على الموصل من زنكي.
* محرم ٥٢٨هـ/ ١ نوفمبر ١١٣٣م: احتل شمس الملوك اسماعيل - حاكم دمشق - شقيف تيرون من الصحاك بن جندل رئيس وادي التيم.
* ٩ ربيع الثاني ٥٢٨هـ/٦ فبراير ١١٣٤م: فشل محاولة اغتيال شمس الملوك اسماعيل.
* ذو الحجة ٥٢٨هـ/ أكتوبر ١١٣٤م: سلب شمس الملوك - حاكم دمشق - مدينة عكا الصليبية وإجبار صليبيي بيت المقدس الى تجديد الهدنة مع دمشق.
* محرم ٥٢٩هـ/ ٢٢ أكتوبر ١١٣٤م: حصل مسعود بن السلطان محمد على السلطنة السلجوقية.
* ٥٢٩هـ/١١٣٥م: طلب شمس الملوك اسماعيل - حاكم دمشق - من زنكي - حاكم الموصل وحلب - تسليم مدينة دمشق.
* ١٤ ربيع الثاني ٥٢٩هـ/فبراير ١١٣٥م: اغتيال شمس الملوك على يد والدته خاتون صفوت الملك، وخلفه أخيه شهاب الدين محمود

* جمادى الأولى ٥٢٩هـ/ ١٦ فبراير ١١٣٥م: استيلاء زنكي على حماة من إمارة دمشق.
* ذو القعدة ٥٢٩هـ/ بدأ في ١٤ اغسطس ١١٣٥م: اغتيال الخليفة العباسي المسترشد بالله على يد الباطنية.
* شعبان ٥٢٩هـ ١٨ مايو ١١٣٥م: فشل زنكي في الاستيلاء على حمص من أبناء خير خان بن قراجة.
* ٥٣٠هـ/ الموافق ١١ اكتوبر ١١٣٥م: استلمت إمارة دمشق مدينة حمص من خمرتاش الوصي على أبناء خيرخان بن قراجة.
* ٢ جمادى الأولى ٥٣٠هـ/ ٢٧ فبراير ١١٣٦م: شهاب الدين محمود يعين كمشتكين الأتابكي كأتابك واسفهسلار لجيش دمشق.
* جمادى الثاني ٥٣٠هـ/ الموافق ٢٦ مارس ١١٣٦م: أصبح الأمير بِزْواج - أحد قادة دمشق - أتابك واسفهسلار لجيش دمشق.
* رجب ٥٣١هـ/ ٢٥ مارس ١١٣٧م: سلب الأمير بزواج مقاطعات إمارة طرابلس الصليبية، ثم هزم بونر حاكم طرابلس.
٢٠ شوال ٥٣١هـ/ ١١ يوليو ١١٣٧م: هزم زنكي الملك فولك - ملك بيت المقدس - واستولى على حصن بارين.
* ذو الحجة ٥٣١هـ/ ١٨ اغسطس ١١٣٧م: استسلمت بانياس لزنكي.
* شعبان ٥٣٢هـ/١٥ ابريل ١١٣٨م: فشلت القوات الصليبية والبيزنطية في الاستيلاء على شيزر.
* شعبان ٥٣٢هـ/ ١٥ ابريل ١١٣٨م: قتل شهاب الدين محمود - حاكم دمشق - الأمير بزواج وأصبح أنر أتابك واسفهسلار لجيش دمشق.
رمضان ٥٣٢هـ/ يونيو ١١٣٨م عقد معاهدة السلام بين زنكي وشهاب الدين أمير دمشق، واستلام زنكي حمص من الدمشقيين.
* ٢٣ شوال ٥٣٣هـ/ ٢٤ مايو ١١٣٩م: اغتيال شهاب الدين محمود - حاكم دمشق - وخلفه أخاه جمال الدين محمد (كان سابقا يعرف بشمس الدولة والي بعلبك).
* ٢٠ ذو الحجة ٥٣٣هـ/ ١٧ اغسطس ١١٣٩م: استولى زنكي على بعلبك من أهل دمشق.
* ٨ شعبان ٥٣٤هـ/ ١٠ ابريل ١١٤٠م: توفي جمال الدين محمد - حاكم دمشق - بينما كان زنكي يحاصر دمشق، وقد خلفه ابنه مجير الدين أبق تحت وصاية الأمير أنر.
* شوال ٥٣٤هـ/ الموافق ٢٠ مايو ١١٤٠م: استولى أهل دمشق مع حلفائهم صليبيي بيت المقدس على بانياس من زنكي، وقد منح الدمشقيون صليبيي بيت المقدس بانياس كثمن لمساعدتهم ضد زنكي الذي حاول الاستيلاء على دمشق.
١٦ جمادى الثاني ٥٣٩هـ/ ٢٣ ديسمبر ١١٤٤م: استرد زنكي الرها من الصليبيين للمسلمين.
* ٦ ربيع الآخر ٥٤١هـ/ ١٤ سبتمبر ١١٤٦م: اغتيل زنكي، وقسمت ممتلكاته بين أكبر أبنائه سيف الدين عازي في الموصل ونور الدين محمود في حلب.

جمادى الثانى ٥٤١هـ/ اكتوبر ١١٤٦م: استرد نور الدين ـ حاكم حلب ـ مدينة الرها من الصليبيين الذين نجحوا في استرداد المدينة لمدة خمسة أيام.
* محرم ٥٤٢هـ/ ٢ يونيو ١١٤٧م: أحلبط الأتابك أنر ونور الدين محاولة صليبيي بيت المقدس في الاستيلاء على بصرى وصرخد.
* محرم ٥٤٣هـ/ ٢٢ مايو ١١٤٨م: فشلت الحملة الصليبية الثانية في الاستيلاء على مدينة دمشق.
* محرم ٥٤٤هـ/ ١١ مايو ١١٤٨م: جدد الدمشقيون وصليبيو بيت المقدس الهدنة وتوقيع معاهدة السلام بينهما.
* ٢١ صفر ٥٤٤هـ/ ٢٩ يونيو ١١٤٩م: أحرز نور الدين ـ حاكم حلب ـ بمساعدة دمشق نصراً كبيراً بالقرب من حصن إنّب ضد الأمير ريموند أمير أنطاكيه وقواته الحربية واسترد افامية.
* جمادى الأول ٥٤٤هـ/ ٦ سبتمبر ١١٤٩م: وفاة أنر أتابك الأمير مجير الدين أبق حاكم دمشق.
* محرم ٥٤٥هـ/ ٣٠ ابريل ١١٥٠م: وافق الدمشقيون على أن يكونوا تحت السلطة الإسمية لنور الدين حاكم حلب.
* ٥٤٦هـ/ بدأ في ٢٠ ابريل ١١٥١م: أحبط الدمشقيون بمساعدة صليبيي بيت المقدس محاولة نور الدين الاستيلاء على دمشق.
* ١٠ ربيع الأول ٥٤٦هـ/ ٢٧ يونيو ١١٥١م: فشل صليبيو بيت المقدس في الاستيلاء على بصرى من الدمشقيين.
* ١٠ ربيع الثاني ٥٤٦هـ/ الموافق ٢٦ يوليو ١١٥١م: وافق مجير الدين أبق ـ حاكم دمشق ـ أن يكون تحت سلطة نور الدين.
* ربيع الأول ٥٤٨هـ/ ٥ يونيو ١١٥٣م: فشل مجير الدين ـ حاكم دمشق ـ ونور الدين ـ حاكم حلب ـ في نجدة أهالي عسقلان لفك حصار الصليبيين.
* ٩ جمادى الأولى ٥٤٨هـ/ ١٠ اغسطس ١١٥٣م: استبدل مجير الدين وزيره مؤيد الدين بن الصوفي بأخيه زين الدين حيدرة.
* جمادى الأول ٥٤٨هـ/ اغسطس ١١٥٣م: استولى الصليبيون على عسقلان من الفاطميين.
* ٢٥ ذو الحجة ٥٤٨هـ/ ١٠ فبراير ١١٤٥م" قتل مجير الدين وزيره الدرزي عطاء الخادم.
* ٣ صفر ٥٤٩هـ/ ١٨ ابريل ١١٥٤م: سقوط دمشق في يد نور الدين حاكم حلب ونهاية حكم عائلة طغتكين في دمشق، وتوحد بلاد الشام لأول مرة تحت زعامة نور الدين .



قائمة بالمصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية

(١) أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين**، تحقيق محمد أحمد. المجلد الأول، القاهرة ١٩٥٦م.

(٢) البغدادي: صفي الدين عبد المؤمن، **مَرَاصد الإطلاع على أسماء الأمْكنة والبقاع**. الطبعة الأولى، تحقيق علي محمد البجاوي، ثلاثة مجلدات، دار إحياء الكتب العربيَة. غيرمحدد مكان النشر، ١٩٥٤م.

(٣) البنْداري: أبو الفتح بن علي، **تاريخ دولة السلاجقة**، المحقق غير مَعرُوف، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٠م.

(٤)ا لذهبي: الحافظ، **العبَرْ في أخبار من غَبَرْ**. تحقيق صلاح الدين المنجد، المجلد الرابع ، وزارة الارشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٣م.

(٥) الفارقي: إبن الأزْرَق، **تاريخ الفارقي**. تحقيق ب.أ. عَوَّاد، مراجعة م. س. غُوربَال، القاهرة ١٩٥٩م.

(٦) الحَموي. ياقوت شهاب الدين بن عبدالله. **مُعْجَم البُلْدان**، خمسة مجلدات، بيروت ، ١٩٥٥م.

(٧) الحُسيني: صدر الدين أبو الحسن علي، **أخبار الدولة السلجوقية**، تحقيق محمد إقْبَال، بيروت ١٩٨٤م.

(٨) ابن العَديم: كمال الدين أبو القاسم عمر، **زُبْدَة الحَلَب من تاريخ حَلَب**، مجلدين، تحقيق سامي دهَان، دمشق، ١٩٥٤م.

(٩) ابن الأثير: عر الدين أبو الحسن علي، **الكامل في التاريخ**، تحقيق مجموعة من المؤرخين، المجلدات من الثامن حتى العاشر، القاهرة، ١٩٢٩م.

(١٠) **تاريخ أخبار الدولة الأتَابكَية (ملوك الموصل)**، تحقيق أحمد طُلَيْمات، القاهرة ١٩٦٣م.

(١١)ا بن عساكر: علي بن الحسن، **تاريخ مدينة دمشق**، المجلد الأول، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، دمشق، ١٩٥١م، وكذلك المجلد الثاني بعنوان: **خُطَطْ دمشق**، دمشق ١٩٥٢م. (مؤرخ دمشقي).

(١٢) ابن بَطُوطة: أبو عبدالله محمد، **رحلة ابن بطوطة**، تحقيق كرم البستاني، بيروت، ١٩٦٤م.

(١٣) ابن الفقيه: أبي بكر أحمد، **مختصر كتاب البلدان**، تحقيق أم. جي. دي جوجي، ليدن، ١٩٦٧م.

(١٤) ابن حَوْقَل: أبو القاسم، **كتاب صُورةالأرض**، الطبعة الثانية، تحقيق جي. أتش. كريمز، ليدن، ١٩٦٧م. (مصدر فاطمي اسماعيلي).
(١٥) ابن العبري: غَويغُريوس المالطي، **تاريخ مختصر الدول**، تحقيق أنطون اليسوعي، بيروت، ١٩٥٨م.
وكذلك ابن العبري: **تاريخ الزمان**، تحقيق سالم دَكّاش، دار المشرق، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٦م. (مؤرخ أرمني ولكن المؤلف بالعربية).
(١٦) ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن، **المُنتَظم في تاريخ الملوك والأمم**، غير معرف المحقق، حيدر آباد، ١٩٣٩م.
(١٧) ابن كثير: أبو الفدا، **البداية والنهاية**، المجلد الثاني عشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٦٦م.
(١٨) ابن خلدون: عبد الرحمن، **العبَر وديوان المُبتَدأ والخبر**، المجلد الخامس، بيروت، ١٩٦١م.
(١٩) ابن خلّكان: أحمد بن محمدَ، **كتاب وفيات الأعيان وأخبار أنباء الزمان**، تحقيق محمد عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨م.
(٢٠)ابن خردابذة: عبيد الله **كتاب المسالك والممالك**، تحقيق أم. جي. دي جوجي، ليدن، ١٩٦٧م.
(٢١) ابن القلانسي: حمزة بن أسد الدولة، **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق أش. أي. أد. جب، ليدن، ١٩٠٨م.، بعنوان «**تاريخ دمشق للحروب الصليبية**»، لندن، ١٩٣٢م.
ابن القلانسي: حمزة بن أسد الدولة، **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق أش. أف. أمدروز، ليدن، ١٩٠٨م
(٢٢) ابن شداد: عز الدين، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة حلب)** المجلد الأول، تحقيق دومينيك سوريال، دمشق، ١٩٥٣م. والجزء الخاص بتاريخ مدينة دمشق، مجلدان، تحقيق سامي دهان، دمشق، ١٩٦٣م.
(٢٣) ابن تَغْري بَرْدي: أبو المحاسن يوسف، **كتاب النُجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المجلد الخامس، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٨م.
(٢٤) ابن العمراني: محمد بن علي، **الإنباء في تاريخ الخُلفاء**، تحقيق قاسم السمرائي، الطبعة الثانية، الرياض، ١٩٨٢م.
(٢٥) ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم، **مُفرِّج الكروب في تاريخ بني أيوب**، المجلد الأول، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣م.
(٢٦) الكرخي: أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الإصطَخْري، **كتاب المَسالك والممالك**. تحقيق أم. جي. دي. جوجي، ليدن، ١٩٦٧م.
(٢٧) المَقدسي: أبو عبد الله محمد، **كتاب أحسنْ التقاسم في معرفة الأقاليم**، تحقيق أم. جي. دي. جوجي، ليدن، ١٩٦٧م.
(٢٨) المَقريْزي: تقي الدين أحمد بن علي، **إتعاظ الحُنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلفا**، تحقيق م. أ. م. أحمد، المجلد الثالث، القاهرة ١٩٧٣م. (مؤرخ دمشقي).
(٢٩) الصَفَدي: صلاح الدين خليل بن أيبك، **أمراءدمشق في الاسلام**، تحقيق صلاح الدين المُنجِّد، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٣م.

(٣٠) شيخ الربوة: شمس الدين محمد، كتاب نُخْبَة الدهر، تحقيق أي. مهرن. ليبزيغ، ١٩٢٣.
(٣١) ابن مُنْقِذ: أسامة، كتاب الإعْتِبار، تحقيق فيليب حتّي، طبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠م.

ثانيا: المصادر الغربية (صليبية ـ أرمينية ـ بيزنطية)

(1) Anne, Comnena. **The Alexiad** (Eng. Trans. by E.A.S Dawes, London, 1979.

(2) **Anonymous Syriac Chronicle**, eng. Trans by A.S Tritton as "The First and Second Crusades From an Anonymous Syriac Chronicle", with notes by H.A.R. Gibb, **Journal of the Royal Asiatic** Society, 1933, P.P. 69 - 101, P.P 173 - 305.

(3) Fulcher of Chartres. **Historia Hiersolymitana (A History of the Expedition to Jerusalem, 1095 - 1127)** Eng. Trans by F.R. Ryan, ed, with an introduction by H.S. Fink. Knoxville, 1969.

(4) **Gesta Francorum**, The Deed of Franks, ed. and Eng. Trans by R. Hill, London 1945.

(5) Matthew of Edessa. The Chronicle of **Matthew** of Edessa. 2 vols, Eng. Trans by Ara Edmond Dostourian, Michigan, 1972.

(6) William, A rchbishop of Trye. **A History of Deeds Done Beyond the Sea.** Eng. Trans and Ed. by Emily Babcock and A.C Krey, 2 vols, Newyork, 1976.

ثالثا: المراجع العربية

(١) أبو بدر: الشيخ، **الحروب الصليبية والأسرة الزَنكية**، بيروت ١٩٧٢م.
(٢) عبد الجبار، **الإمارة المَزْيدية**، تاريخها السياسي والاقتصادي والاجتماعي من ٣٨٧ هـ حتى ٥٨٥ هـ، دار الطباعة الحديثة، بغداد ١٩٧٠م.
(٣) العلبي أكرم، **دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين**: ٩٠٦ ـ ٩٢٢هـ، ١٥٠٠ ـ ١٥٢٠م، دمشق، ١٩٨٢م.
(٤) أمين: حسين، **تاريخ العراق في العصر السَلْجُوقي**، بغداد ١٩٦٥م.
(٥) أمين: محسن، **كتاب جبل عامل (عاملة)**، بيروت، ١٩٨٣م.
(٦) عاشور: سعيد، **الحركة الصليبيّة**، جزئان، الطبعة الثالثة القاهرة، ١٩٧٦م.

(٧) بدوي: عبد المجيد، **التاريخ السياسي والفكري للمذهب السُني من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد**، جدة، ١٩٨٣م.
(٨) البيطار: أمينة، **مواقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري**، دمشق، ١٩٨٠م.
(٩) غالب: مصطفى، **أعلام الإسماعيلية**، بيروت، ١٩٦٤م.
(١٠) حبشي: حسن، **الحرب الصليبية الأولى**، القاهرة، ١٩٤٧م.
(١١) الحمد: عامرة، **الإمبراطورية البيزنطية والأمراء الصليبيين (١٠٩٨م - ١١١٨م)** القاهرة، ١٩٨٠م.
(١٢) حمادة: محمد، **وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي**، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٦م.
(١٣) الحموي: محمد ياسين، **دمشق في العصر الأيوبي**، دمشق، ١٩٤٦م.
(١٤) حسن: حسن إبراهيم، **تاريخ الدولة الفاطمية**، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٤م.
(١٥) الهرفي: محمد، **شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام**، الاسكندرية، غير معروف تاريخ الطباعة.
(١٦) حسين: عبد المنعم، **إيران والعراق في العصر السلجوقي**، بيروت، ١٩٨٢م.
(١٧) حسين: محسن، **الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين**، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦م.
(١٨) إدريس: محمد، **تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول**، القاهرة، ١٩٨٥م.
(١٩) إقبال: عباس، **الوزارة في عهد السلاجقة**، ترجم من الفارسية بواسطة أحمد حلمي، الكويت، ١٩٨٠م.
(٢٠) إسماعيل: محمد علي، **تاريخ السلاجقة في بلاد الشام في القرنين الخامس والسادس الهجريين**، دمشق، ١٩٨٣م.
(٢١) الجَنزُوري: علّية، **إمارة الرُها الصليبية**، القاهرة، ١٩٧٥م.
(٢٢) خليل: عماد الدين، **الإمارات الأُرتُقية في الجزيرة والشام (٤٦٥ - ٨١٢هـ/١٠٧٢ - ١٤٠٩م)**، بيروت، ١٩٨٠م.
خليل: عماد الدين، **المقاومة الاسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل (٤٨٩ - ٥٢١هـ/١٠٩٥ - ١١٢٧م)**، الرياض، ١٩٨١م.
(٢٣) محمود: علي، **الغزو الصليبي والعالم الإسلامي**، الرياض، ١٩٧٩م.
(٢٤) مؤنس: حسين، **نور الدين محمود**، القاهرة، ١٩٥٩م.
(٢٥) المُنَجِّد: صلاح الدين، **مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين**، بيروت، ١٩٦٧م.
المُنجِّد: صلاح الدين، **ولاة دمشق في العهد السلجوقي**، نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق الكبير للحافظ بن عساكر، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٦٧م.
(٢٦) مُقبل: فهمي، **الفاطميون والصليبيون**، بيروت، ١٩٧٩م.

(٢٧) مصَطفى: شاكر، **دخول التُرك الغز بلاد الشام**، المؤتمر الدولي حول تاريخ سوريا، جامعة الأردن، ١٩٧٤م. ص ٣٠٣ - ٣٩٨.
(٢٨) النَبرَواي: فتحية، **العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى** (١٠٠٠ - ١٣٠٠م)، القاهرة، ١٩٨٢م.
(٢٩) النَخيلي: دَرويش، **فتح الفاطميين لبلاد الشام في مرحلته الأولى من ٣٥٨ حتى ٣٦٢هـ**، الاسكندرَية، ١٩٧٩م.
(٣٠) سبانو: أحمد، **تاريخ دمشق القديم**، دمشق، غير معروف تاريخ الطباعة.
(٣١) سالم: عبد العزيز وأحمد مختار العَبَّادي، **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام**، بيروت ١٩٨١م.
(٣٢) سالم: سيد عبد العزيز، **طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي**، الاسكندرية، ١٩٦٧م.
(٣٣) سلام: حورَية عبده، **النظام المالي في مصر زمن الفاطميين، ٣٥٨ - ٥٦٧هـ/٩٦٨ - ١١٧١م)**، ١٩٨٠م.
(٣٤) شَنذَاب: محمد، **الحضارة الاسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري** (٤٦٧ - ٥١٢هـ) بيروت، ١٩٨٤م.
(٣٥) الشيخ: محمد، **الامارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين**، الاسكندرية، ١٩٨٠م.
(٣٦) الشميساني: حسن، **مدارس دمشق في العصر الأيوبي**، بيروت، ١٩٨٣م.
(٣٧) تَدمُري: عمر، **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور: عصر الصراع العربي البيزنطي والحروب الصليبية**، الجزء الأول، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤م.
(٣٨) زيتون: عادل، **العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، دمشق، ١٩٨٠م.
زيتون: عادل، **العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى**، دمشق، ١٩٨٠م.
(٣٩) زكّار: سهيل، **مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية**، دمشق، ١٩٨١م.
(٤٠) زكريا: أحمد، **جولة اثرية في البلاد الشامية**، الطبعة الثانية، دمشق، ١٩٨٤م.
(٤١) زينو: أحمد، **تاريخ دمشق القديم**، دمشق، بدون تاريخ النشر.

رابعا: المراجع الاجنبية

Alptexın (Caskun) "The Reign of Zangı (521 - 541 A.H. / 1127-1146 A D.)" Ph. D., University of London,1972

Ashtor, E., **A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages,** London, 1976.

Atıya, 'A S. **Crusades, Commerce and Culture,** Bloomington, 1962.
... The Crusade, Historiography and Bibliorgraphy.

Bashır, b J. "Fatımid Mılitary Organizatıon" **Der Islam,** Vol 55, Berlın 1978, pp 37-56.

Berry, Vırginia. "The Second Crusade ın **A History of the Crusades**. Vol 1, eds K M. Setton and M W Baldwın (Madıson, Mılwaukee and London, 1969, pp 463-512

Byrne, E H "Genoese Trade wıth Syrıa ın the Twelfth century", **American History Review**, 25 (1919 - 1920), pp. 191-219

Cahen, C. The Turkısh Invasıon the Selchukıds", ın **A History of the Crusades,** Vol, I, eds, K. M Setten and M W Baldwın (Madıson, Mılwaukee and London, 1969, pp 135-67

Davıs, R H "Wıllıam of Tyre", ın **Relations between East and west in the Middle Ages** Ed. Derek Baker, Edinburgh, 1973, pp. 64-76

Dunlop, D M **Arab Civilization to A. D. 1500** Beırut, 1971

Edbury, Peter W **William of Tyre, Historian of the Latin East.** Cambrıdge, 1988, 1st editıon

Elısseeff, N **Nur al-Din. Un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades.** 3 Vols Damascus, 1967

Fahmy, A. M **Muslim Sea Power** London, 1950

Fınk,H S "Mawdud of Mosul, Precursor of Saladın", The **Muslim World,** Vol XLIII, (1953), pp 18-27

Forey, A. J. "The Failure of the Siege of Damasucs in 1148", **Journal of Medieval history,** No. 10, (1984), pp. 13-23.

Freeman - Grenville, G. S. P. **The Muslim and Chiristian Calendars.** London, 1963.

Cabrieli, F. "The Arabic Historiography of the Crusades", in **Historians of the Middle East**, ed. B Lewis and P. M. Holt (London, 1962), pp. 98-107.

Gibb, H. A. R "The Career of Nur-al-Din", in **A History of the Crusades.** Vol I, eds. K. M. Setton and M. W. Baldwin (Madison, Milwaukee and London, 1969), pp. 513-27.

... **The Damascus Chronicle of the Crusades**. See trs. of **Dhayl Tarikh Dimashq,** Luzac and Co., London, 1932

... "The Rise of Saladin 1169-1189", in **A History of the Crusades**. Vol. I, eds. K. M. Setton and M W. Baldwin (Madison, Milwaukee and London, 1969), pp 563-89

Studies on the Civilization of Islam, London, 1962

Goitein, S. D. **A Mediterraneen Society: Economic Foundation** Vo 1 Berkely, 1967

Hillenbrand, Carole "The Career of Najm al-Din Il-Ghazi" **Der Islam**, Vol 58, 1981, pp 250-292.

Hodgson, M G S **The Order of the Assassins.** (The Haugue, 1955)

Lane-Poole, S **Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem**, London, 1898

Lewis, Bernard. **The Assassins: A Radical Sect in Islam** .al-Saqi Books London, 1985

.. "The Sources for the History of the Syrian Assassians" Reprint with original pagination from **Speculum**. 27 (1952), **Studies in Classical and Ottoman Islam.** (Collected Essays), Essay 8, pp 875-89

The Muslim Discovery of Europe, London, 1982

Lewis, Bernard and P M Holt **Historians of the Middle East,** London, 1962

Lyons, Malcolm Cameron and D E. P Jackson, **Saladin, the Politics of the Holy War**. Cambridge, 1982

Mayer, H. E. **The Crusades.** Trans. J. Gillingham, Oxford, 1988.

Mirza, N. A. **"The Isma'ilis in Syria at the time of the Crusades".** Ph. D. Thesis, Durham University, 1963.

Oman, Charles. **A History of the Art of War in the Middle Ages**, 2 volus. London, 1924.

Pernoud, Regine. **The Cruaders**. Trs. Mcleod, Enid. London, 1962.

Pritchard, James B. **The Times Atlas of the Bible.** First edition, London, 1987.

Riley-Smith, J. S. C. **The First Crusade and the Idea of Crusading.** London, 1986.

Runciman, S. **A History of the Crusades. (The Kingdom of Jerusalem and the Frankish East** (1100-1187).. Cambridge, 1952

Segal, Judah Benzion. **Edessa, the Blessed City.** Oxford, 1970.

Setton, K. M. and Baldwin, M. W., ed **A History of the Crusades**.vol I The First Hundred Years. (Madison, Milwaukee and London, 1969.

Smail, R C. **Crusading Warfare** (1097 - 1193). Cambridge, 1956.

Stevenson. W B **The Crusaders in the East.** (Cambridge, 1907).

Thompson, J W **Economic and Social History of the Middle Ages** 2 Volumes. New York, 1959.

Vasiliev, A. A. **History of the Byzantine Empire,** 2 vols., Madison, 1959.

Yewdale, Ralph. **Bohemond I, Prince of Antioch.** Ph. D., Princeton University, 1917

Yusuf, Muhsin Dhib. **"The Economic History of Syria During 4th-5th Centuries After Hijra/ 10-11 A. D."**
Ph. D. Thesis, Princeton University, 1982.





مطابع القبس التجارية